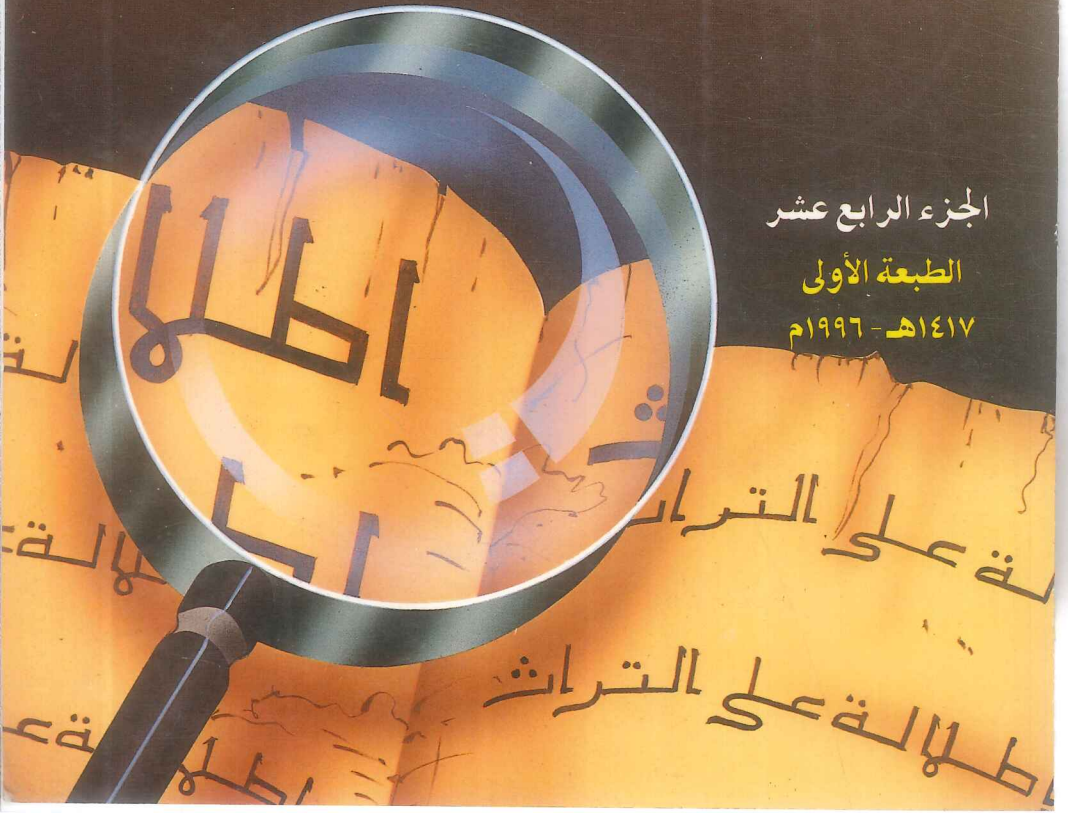
إطلالة على التراث

تأليف

عبد العزيز بن عبد الله الخويطر



الجزء الرابع عشر

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

حقوق الطبع محفوظة

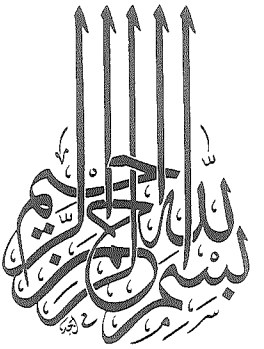
الطبعة الأولى

١٤١٧هـ

٨١٠,٨
٦٣٦خ

الخـويطـر، عبدالعزيز بن عبدالله.
إطلالة على التراث / عبد العزيز بن عبدالله بن علي الخويطر.
- ط١. - الرياض: ع. ع. الخويطر، ١٤١٥هـ / ١٩٩٦م.
مج ١٤: ٤٤٨ ص؛ ١٤,٥ × ٢١ سم.
ردمك: ٨ - ١١٨ - ٢٧ - ٩٦٦٠ (مـج ١٤)
٥ - ١١٤ - ٢٧ - ٩٦٦٠ (المجموعة)
١ ـ الأدب العربي - مجموعات. ٢ - الحكايات العربية.
٣ - السعودية - المقالات العربية.
أ ـ العنـــــــوان.

رقم الإيداع: ٠٥٧٥ / ١٥
ردمك: ٨ - ١١٨ - ٢٧ - ٩٦٦٠ (مـج ١٤)
٥ - ١١٤ - ٢٧ - ٩٦٦٠ (المجموعة)


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا هو الجزء الرابع عشر من سلسلة «إطلالة على التراث» وهي سلسلة وفق الله إلى خطتها، وتتابعت أجزاؤها حتى هذا الجزء، والله مستعان على ما آمل أن يتبعه من أجزاء، تؤدي الغرض الذي من أجله تم الإقدام على معالجة مواضيع التراث في هذه السلسلة التي أرجو أن يجعل الله فيها البركة، فتأتي بالنفع المرجو منها، والفائدة المتوخاة فيها.

واسم الكتاب يدل على فحواه، وينم عن هدفه، ويكشف عن الغاية التي وضع من أجلها؛ فهو نافذة تطل على حقل التراث الإسلامي والعربي، ويُسلط منها نور كاشف يبين ما في التراث من درر وجواهر، ومن جذور عريقة للحضارة الإسلامية والعربية، طورها أباؤنا، وبنوا لبنات سامقة على صروحها المختلفة، وحافظوا على ما أنجزوه، وأمّلوا في الأجيال اللاحقة أن تؤدي دورها نحوه، فتتقي

الإهمال في حقه، وتبذل الجهد في العناية به.

وهذه النافذة التي فتحت على روض التراث، مع النور الذي سلط على جوانبه المختلفة، هدفت من جملة ما هدفت إليه، إلى كشف ما اتسع من مداه، وما اخضر مما احتواه، وما أينع من ثمره، وما فاح من زهره؛ واختير منه ما يجذب الشاب إلى تراثه، وابن الجيل الحالي إلى ما ينتمي إليه من أصل وأُسٍّ، ليكون في يده عند المفاخرة ما يرفع رأسه، ويبز به محدثه من أهل الحضارات الأخرى المختلفة.

وشبان اليوم في حاجة إلى التعريف بتراثهم، لأنّ في زمنهم من الشواغل ما يحجب عنهم ما يجب أن يعرفوه، ويغمرهم بما تقذفه حضارة التقنية الحديثة، مما يشد ويغري، ويَصُدُّ ويلهي؛ وهو تقدم تنقص جوانبه حضارة الخُلُق التي اتسم بها تراثنا الإسلامي والعربي، بما وضع من مقاييس كانت قناديل مشعة صَفَت بها أرواحهم، ونقت بها نفوسهم.

والشباب معذورون، لأن الظباء تكاثرت على

خراش، فما يدري خراش أيهن يصيد، فهناك سيل جارف من الغرب، سهّل وصوله إلينا ما توصل إليه من اختراعات متقدمة في الاتصالات، مع إتقان في المناهج والخطط، والتفات ناضج بما يجب أن يكون عليه الأمر في نشر المعلومات، وإيصالها إلى الأذهان بسهولة ويسر، وبطرق متكررة متعددة؛ إذا أخفقت واحدة، أو قصرت عن هدفها، أعقبتها أخرى، كفيلة بأن تكمل النقص، وتدفع الأمر دارجاً في مدارج القبول.

ولم يواكب هذا الهجوم الحضاري من الغرب استعداد مكافئ في الشرق، فالوسائل شحيحة، ومعرفة الطرق الموصلة يقف دونها جهل في هذا الأمر أو ذاك، فالمخطوطات رهينة محبس المكتبات الخاصة أو العامة؛ وما ينشر منها يتسم أحياناً بالنقص في جانب من الجوانب، فإن كمل التحقيق والتدقيق عند النشر، قصر التوزيع عن البَاعِ، وإن كمل هذا ارتفع السعر إلى علو لا يستطيع الصعود

إليه إلا القادر من الناس، وهم قليل، ولم يعوض هذا انتشار المكتبات العامة في الأحياء، أسوة بما عالج به الغرب هذه المعضلة.

والتراث مادة ثرة، وقد تكون، بصيغتها الأصل، شديدة القضم على أسنان ابن اليوم، ولم يتصد لمعالجة هذا الجانب إلا قليل ممن أدرك أهمية الالتفات لهذه المسألة، وهو ما جاء ممثلاً أحد أغراض هذه السلسلة، فهي تعرض التراث بثوب جديد، ينتقي النصوص، ويوائم بينها، ويقارن بعضها ببعض، وقد يقارن بعضها بما هو حديث، لتعم الفائدة بتقريب الصور بعضها من بعض، ليسهل التخيل، ويكمل التصور.

وقارئ اليوم عندما يقرأ كتاب التراث ينفر منه، لأنه لم يتعود على مناهجه وخططه، ويخرج منه بما يوحي له بأنه مشوش، ومتسم بالخلط، ويزيد نفوره عندما يقارنه بما هو مترجم، وقد يصل الأمر به إلى الاشمئزاز، خاصة إذا لم يجد الفهارس التي تعينه في

بحثه وقراءته، ويقيس الكتاب السوي بغيره مما هو غير سوي، ويصدر حكماً عاماً يتخذه ترساً يقبع خلفه، ويَتّقي به مقابلة ما سمي يوماً بالكتب الصفراء.

لهذا جاءت سلسلة «إطلالة على التراث» لتساهم مع ما سبق أن سوهم به، ومما لا يزال يساهم به، في تغيير الصورة إلى ما هو أقرب للواقع، والحقيقة؛ مبرزة النصوص في صورة تجذب القارئ، وقد وضعتْ أمامها خطوات تسهل هذا الجذب، والتحبيب؛ فجمع نصوص عن أمر واحد، ومقارنة بعضها ببعض، ومحاولة معرفة الصحيح منها، وكشف المنحول، وإعطاء كل واحد القيمة الأدبية أو التاريخية التي يستحقها، والإقناع بأن كل نص في التراث له قيمته، حتى لو كان مكذوباً أو منحولاً، لأنه يعطي فكرة عن النحل في ذلك الزمن، وأسبابه، وأهدافه، ووسائله؛ ففيه تاريخ للمجتمع والفكر، والعوامل المختلفة، التي تختبط في ذلك المجتمع.

والإطلالة تمد جسوراً بين الماضي والحاضر،

وترمي إلى إيجاد مسالمة بين قارئ اليوم وكاتب الأمس، بكشف بعض الدرر والجواهر التي غطاها تراب الزمن، وعوامل الجهل في بعض العصور التي مرت؛ وترمي «الإطلالة» إلى زرع الثقة في ابن اليوم في ماضيه وإنتاجه؛ وهو إن قبل المبدأ لابد أن يسير في الأمر إلى آخر الطريق؛ لأن في التراث ما يتكفل بذلك، إذا صفت النية، وبذل الجهد، وأحسن عرض الأمر.

لهذا كان من بين الأساليب التي ترمي إلى الجذب، محاولة التخفيف على القارئ، فلا يُسلَكُ له طريق العلم «الأكاديمي»، لأنه قد يمله، والملل هو آفة القارئ والمتعلم فإذا جاء العارض بأمور متماثلة متتابعة يجد القارئ أن بعضها يكفي، ويلقي بالكتاب جانباً، أما إذا أتي بالجد، يعقبه المرح، تعقبه فكرة خالصة وأدخل بعض ما ليس في الأمر لكسر التتابع والتشابه، فإن هذا يحرك حاسة التطلع عند القارئ، ويبقى في توقع شيء يخرج عن حدسه وتقديره.

ومن أهداف «الإطلالة» إعطاء القارئ الشاب

ملكة هو في أشد الحاجة إليها، وهي القدرة على معرفة النص وصحته أو خلله؛ وهذا مِثْلُ من يعلّم الغلام السباحة، يعطيه أصولها، ويدربه عليها، ثم يتركه يقوم بها وحده، في أي مكان، وفي أي زمان.

هذا عن الهدف الأساس، والأسلوب المختار، والخطة الموضوعة، والمنهج المتبع؛ وهناك المُحُّ، وهو كشف جوانب حياة الناس في تلك المجتمعات، وكيف عاشوا، وما هي مادة معيشتهم، وما حَكَمَهُم من خلق، وما قيدهم من عادات، يأتي هذا داخل النصوص المختارة، وكشف بعض جوانبها، مما يستحق أن يوقف عنده، وأن يوزن بالميزان الذي أريد منه أن يكون عادلاً ونافعاً.

في هذا الجزء، كما في الأجزاء السابقة، اختيرت بعض المواضيع التي تصور بعض جوانب مجتمعات آبائنا وأجدادنا، ونظرتهم لبعض الأمور، التي لا تزال تلعب دوراً رئيساً في حياتنا اليوم، فمثلاً الخير والشر، وجدا في كل زمان، وعرفا كل مجتمع

ومكان، وألقت كل حضارة على أهلها منهما ما دل على سموها أو دنوها؛ يتبين هذا في مدى ما يُزرع من حب للخير، ونبذ للشر، أو خلاف ذلك، وجيء في هذا الجزء بأمثلة لذلك تُرِي الصّراع بين هذين العنصرين، وما قام به الناس تجاههما؛ فأرى بعضها الخير عند عِلْيَةِ القوم من حكام وعمال وقضاة وغيرهم، ومن عامة الناس من أصحاب المهن والحرف، وما يأتي في سبيلهم من خير تبعوه، ومن شرٍّ قاوموه، وما كان يبذل من تضحية في سبيل ذلك، ومن محاولة في أن يكون المرء قدوة في عمل الخير، والتسابق فيه.

وبعض ما جاء في هذا يعضد ما جاء في مقال «قوة الأسس» أو لعلهما يتعاضدان، ففي هذا صور مضيئة عن نظرة الحكام إلى السياسة، وتعضيد الدين لها، والحزم في سياسة الناس، وأخذهم باللين حيناً، وبالشدة حيناً، حسب ما يقتضيه الأمر، الموجب للتصرف؛ وإيمانهم ببذل الجهد، والاهتمام بالصغير مثل اهتمامهم بالأمر الكبير، لأن إهمال الصغير قد

يكبر، فيستعصي على الحل؛ ومن الصور البهجة في هذا المقال ما جاء عن التغاضي والتسامح، وضبط النفس؛ وما كشفته النصوص من ثقافة الحكام والعمال والساسة، نتيجة التأديب أو التجربة، أو هما معاً؛ وما كان من حسن التصرف في البلدان المفتوحة، ومعاملة أهلها، وما كان يرسمه الخلفاء لعمالهم في الأقطار المختلفة، وما يعطونه من تعليمات، وما يقدمونه من نصائح، وما يحثون عليه، أو يحذرون منه.

وقد لمس هذا الجزء جانباً من جوانب الحضارة في تلك المجتمعات وهو اللباس، وما بدا عند الناس من اهتمام بالغ به، فقد شغل تفكيرهم، فتنوعوا في أقمشته، وتفننوا في تفصيله؛ وإذا كانت الألبسة في الجاهلية في الصحراء ساذجة، فهي ليست كذلك في المدن، ومجيء الإسلام، واندياح المسلمين في البلدان المجاورة، طوّرها بسرعة فائقة، حتى أصبح من الصعب معرفة أنواعها وتعددها، ومع سرعة تغير

الطراز الذي يقبله الناس اليوم، ويغيرونه غداً.

جاء اللباس صورة لعصرهم في تنوعه، والدقة في أمره، وتخصيص اللباس لكل فئة من الناس، سواء ما كان منه على البدن، أو ما كان على الرأس، حتى أصبح ذلك علامة تميز بها فئة عن فئة، ومهنة عن مهنة، وحرفة عن حرفة؛ وإذا كان في لباس النساء تنوع، وسرعة تغير، فللرجال مثل ذلك. وجاء اللباس ملبياً أحياناً للحاجة، وأحياناً مستجيباً لمظاهر الرفاهية والترف، ونتج عن ذلك أقوال وآراء، دونت في جملة ما دون عن حضارة القوم في ذاك الزمن.

وفي مقال اللباس إطلالة من نافذة واسعة على عمق الحضارة، وتقدم الصناعة، واختلاف الذوق، وارتقائه، وتباين وجهات النظر فيه.

ومراعاة الشرع وتعاليمه تجاه اللباس لعبت دوراً كبيراً في تقرير لباس الحشمة، وما يخرج عنه، وتمسك بعض الفئات به، وخروج بعضهم عنه، وما تلا ذلك

من حِجاج ونقاش؛ وما حدث من مغالاة المترفين في ترف الملابس، وتنطع المتقشفين من الصوفية وأمثالهم؛ والنظرة التي تأتي من جراء ذلك، قبولاً أو اعتراضاً.

ويستمر عرض الصور عن مجالات أخرى غير اللباس وأمثاله إلى ما هو أعمق من ذلك مثل التربية والتعليم، وفي كل هذا دعوة إلى عودة المسلم والعربي إلى جذوره، وشدٌّ له إلى ماضيه؛ ولا قيمة للإنسان إذا نظر إلى الأمام دون أن يلتفت، بين آن وآخر، إلى الخلف، ليعرف ما قطع من طريق، ويزن ذلك بالوقت، وبالجهد المبذول، وليعرف ما عليه أن يبذله تجاه ما أمامه من أهداف، وما يطمح إليه من إنجاز، ففي النظرة إلى أساس الإنطلاق علامة على تقدير الجذر، وتقويم الأصل، وبذر بذور الفخر والاعتزاز بالأسّ، والمباهاة بالعنصر الفاخر، والمحافظة على ما بلغه من مستوى، وما ارتفع إليه من علو؛ وهذه أمانة يشعر برونقها الجيل الجديد، وهو يرى غيره

من أبناء الأمم يجمّلون وطنيتهم بالعودة إلى الأصول، وحماية الجذور من أن يتسرب إليها الطعن من الخارج، أو يخونها الإهمال من الداخل.

هذه لمحة خاطفة عما جاء في بعض هذا الجزء، وهذا الجزء مثل الأجزاء السابقة في نهجه وخطته، ولكنه أضاف علماً جديداً فيما تطرق إليه من مواضيع، وفتح نوافذ إلى حقول ممتعة من حقول التراث.

ولعل فيما تطرق إليه هذا الجزء بالتفصيل، أو أشار إليه إشارات خاطفة، أو ألمح إليه إلماحاً خفيّاً، ما يثير حب استطلاع بعض القراء، فيتابع بعض المواضيع في المصادر التي حرصتُ أن أنوعها، وأن أختار مما يسهل الوصول إليه؛ وهذا هدف مقصود من أهداف هذه السلسلة، وعن طريقه تتكون الصلة بين القارئ ومصادر التراث؛ فإذا ما تم هذا فهو مكسب عظيم، مهما بدا النجاح صغيراً في هذا الجانب.

هذا والله المستعان، وهو خير معين.

عبدالعزيز الخويطر

الخير والشر

الخير والشر، والنور والظلمة، والعلو والتدني، والجميل والقبيح، والحسن والسيء، والمفيد والضار، والممتع والمؤذي، أمور متقابلة، متناطحة، إذا حل أحدها في مكان تركه الآخر، والناس بين هذه الأمور يتأرْجحون، فمن وفقه الله كان حظّه ما تيامن من هذه، ومن لم يوفقه وقع وارتكس في حفرة السيء من هذه الأمور.

والله ـ سبحانه وتعالى ـ أوجد هذه المتعاركات، وهدى الإنسان النجدين؛ وفي الحياة أناس سلكوا الطريق السوي، وتغلبوا على أنفسهم، وخرجوا منتصرين عليها؛ وآخرون سلكوا طريقاً معوجاً، وانساقوا وراء شهواتهم، أو وراء طبعهم الذي لم يهذبه دين، ولم تثقفه تربية، فتدلوا في حفرة العناء، وانحدروا إلى صهاريج عفنة.

والخير وما يأتي في ميزانه من الصفات الحميدة مُرٌّ

على مذاق بعض الناس، حلو في فم غيرهم؛ وعلى هذا فليس كل إنسان يستطيع أن يقدم على الخير، ويتحمل مشاقه، الحادة في أول الطريق، المريحة السهلة في نهايته، مع الصبر والاحتساب، والتطلع إلى النتيجة الغالية التي لا تكتسب إلا بالعناء، من تعب، وإنفاق، وجهد، وصبر وأناة وتحمل، لا يقدر عليها إلا ذوو العزم من الناس.

وأغلب الناس يقعون في شرك الشر للذته، ولقلة العناء فيه، ولما فيه من بريق خلاب، لا يدع للإنسان فرصة للتفكير في غيره، فهو طاغية، سريع التغلغل إلى النفوس، متمكن إذا حل، صعب المقتلع، سهل الإنبات والإنتشار، تسقيه مياه آسنة في داخلها، عذبة في ظاهرها؛ وطبيعته خضراء دمن، تجذب وتخلب اللب، ولكن النار والحريق في داخلها، ومع ذلك العفنُ، وسوء الطعم والرائحة.

والخير في الصبر، وفي التحمل، وفي التسامح، وفي الرأفة، وفي الصدق، وفي الأمانة، وفي الكرم،

وفي النجده، وفي النخوة، وفي البسمة تُبدَى، وفي اليد تمد، وفي الأذى يكف، وفي الحق يقال، وفي العدل ينشر؛ وفي الفكر النير يضيء، وفي التحسب الذكي عند الاستشارة، وفي العفو عند المقدرة، وفي بذل الجهد عند العمل، وفي الإخلاص عند التكليف، وفي حسن النية عند الإقدام على الأمر.

والشر في الغيبة والنميمة، وفي الحسد، وفي البغضاء، وفي الأذى، وفي الاحتقار، وفي الغيرة، وفي الرذيلة، وفي التقصير عند العمل، وفي التراخي عند طلب النجدة، وفي التراخي عند الحاجة، وفي الانتقام عند القدرة، وفي الغدر عند الثقة، وفي الخيانة عند الائتمان، وفي الختل بعد التربص، وفي الخلف بعد الوعد، وفي المروق بعد العهد؛ لا يصبح للشرير كلمة شرف يعتمد عليها، ولا يؤمن جانبه في أي أمر وكل إليه، يتوقع منه الأذى، وينتظر منه الضرر، لا يعرف للصدق طريقاً، ولم يطلب التوفيق، ولم يفكر في النفع.

والخير قد يأتي ومظهره صغير، ولكن مخبره كبير،

وكذلك الشر، وكلا الأمرين قد يبدأ صغيراً ثم يكبر، فإذا كبر أحدهما كبرت معه نتيجته، ولا يعلم إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى أي مدى يندلح الأمر، ولا إلى أي مدى ينتشر، وكل منا مر به شيء من هذا، وشيء من ذاك، سواء كان فيما نشاهده في حياة الناس اليوم، أو فيما نقرؤه في الكتب.

وفي التراث أمثلة مضيئة للخير، تري كيف يأتي به أهله، من آنية ممتلئة بضياء له بريق باهر؛ لا يمكن لأحد إخفاؤه، يقف أمامه السامع مبجلاً مقدراً؛ وفي التراث أيضاً أمثلة مظلمة كحلكة الليل، تأتي من أنفس سكنها الشر، أو فارقها الخير؛ فجاء منها ما يصدم القارئ أو السامع، ويسيء إلى سمعة الإنسان عموماً.

والشيطان بالمرصاد لابن آدم، يحاول أن يوقعه في شباكه، وهي شباك منصوبة معدة؛ فهو يحاول أن يبعد الإنسان عن ربه، أو يوقع بينه وبين إخوانه، وهذان السبيلان يتردد فيهما إبليس، لأنه يجد فيهما

مدخلاً سهلاً عند الناس، لأن طبعهم يساعد في هذا الجانب، وإحكام الخطة يتكفل بإطباق الفخ، والقصة الآتية مثل من أمثال مكائد إبليس، إلا أنه أخفق، لأن الإيمان في قلوب من أراد أن يغويهم كان أقوى من أن يخترقه إبليس، فآب في نهاية الأمر مذموماً مدحوراً، خائب الغزوة، محروم الغنيمة، يجر أذيال ثوب الفشل، ويعض أصابع الندم:

«دار بين سعد بن أبي وقاص وبين خالد بن الوليد كلام، فذهب رجل ليقع في خالد عند سعد، فقال سعد: مه، إن ما بيننا لم يبلغ ديننا؛ أي عداوة وشر». (١)

لقد أرسل إبليس رسوله ليوقع بين سعد وخالد، لأن إبليس شم رائحة شواء الإغراء، عندما رأى ما وقع بين خالد وسعد من قول، قد يكون حاداً، أو فيه رائحة الاختلاف؛ ولكن إبليس نسي مقام الرجلين من الإسلام وجِدَّته، ولهذا أرسل رسوله في مهمته؛ وإذا كان قد وقع اختلاف في الرأي بين سعد وخالد،

---

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٢٠.

فلأن كل واحد يحتم عليه إسلامه أن يبدي رأيه، ولكن القائد هو الذي يقرر في نهاية الأمر الطريق الذي يجب أن يسلك؛ وإلا أصبح الأمر فوضى؛ وإذا كان الإثنان في طريقهما إلى غزوة، فالأمر يصبح من الأهمية بمكان، لإن اتباع رأي لم يؤمن به القائد، قد يعرض الجيش للهزيمة. ولهذا أيضاً عبر سعد عن صفة الأمر بينهما بأنه لم يبلغ دينهما، إنما هو رأي على الجلد، ولم يصل إلى العظم.

وفي أنفس منتهزي الفرص مرعى للشر، ومرتع للأذى، ولا يهم المتصف بهذه الصفة أن يتآذى الناس، ويلحقهم الضرر، وما يهمه هو منفعته هو، وكسبه، حتى لو كان حراماً، ونفعه هو حتى لو كان على حساب الآخرين، وهو ذو أثرة تعمي عينيه، فلا يرى إلا نفسه، وتعشي بصيرته فلا يفكر إلا في مصلحته، والقصة الآتية تُري موقف رجل أراد أن يكسب عن طريق الدس على غيره، ويغنم عن طريق إيقاع الآخرين، وانتهز فرصة وجود أمير يافع، أمّل ألا

يكون عنده من الحكمة ما يحميه، ولا من التجربة ما يكشف نيته، ولكن الله خيب أمله، وأضاع عليه غرضه؛ إذا أن الأمير كان ناضجاً، فعرف قصده، وقطع عليه طريقه، وكان ذكيا، فلم يعطه فرصة أن يسمم عقله، ويخرب عليه نيته، ويفسد عليه حكمه، والقصة تجري حوادثها كالآتي:

«أتى رجل الوليد بن عبدالملك، وهو على دمشق لأبيه، فقال: للأمير عندي نصيحة.

فقال: إن كانت لنا فأظهرها، وإن كانت لغيرنا فلا حاجة لنا فيها.

قال: جار لي عصى، وفر من بَعْثِه.

قال: أما أنت فتخبر أنك جَارُ سوء، فإن شئت أرسلنا معك، فإن كنت صادقاً أقصيناك، وإن كنت كاذباً عاقبناك؛ وإن شئت تاركناك.

قال: بلى تاركني». [1]

لقد انقلب مجلس الأمير حلبة مصارعة، أو ميدان

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٢٦.

ملاكمة، اصطرع على أديمه الخير والشر؛ جاء الشر فاتنا، شاهراً أسلحته، متأكداً من النصر، فغريمه غر صغير، وهو رجل ناضج، وهو معد أمره، والآخر سوف يفاجأ بالأمر؛ ولكن الخير جال جولته الأولى، وأطاح بخصمه أرضاً، ثم سمح له أن يقوم، واشترط لعودته للملاكمة شروطاً، ومنها أن يخرج ما خبأه من غش تحت قفازه، وأنه مقضي عليه، مبعد عن حلبات المصارعة، إن تبين أنه غاش، والخيار في يده، إن أحب أن ينسحب في هذه المرحلة.

فلما رأى الشر وحامله أن أمره قد افتضح، وأن غشه قد انكشف، وأن خصمه عرف أن ظاهره غير باطنه، وأنه ليس أهلاً لهذه الحلبة في كل الأحوال، وأنه إن لم ينزل على حكم المنتصر، فعاقبته وخيمة، فانسحب خاسئاً ذليلاً، لم ينل طائلاً، ولم يصل إلى هدفه، وما ناله إلا الفضيحة أمام الجالسين، وعداء جاره الذي أراد أن يعرضه للعقاب، لأنه هرب من واجبه في السير مع الجيش للحرب في الثغور.

لقد التفت الوليد إلى فضيلة داسها الناصح بأقدامه، وركلها برجليه، في حين أنه كان عليه أن يحافظ عليها، وأن يستر ما جاء فيها من خدش أو عيب؛ وهي الجار وحقه، فالرسول ﷺ أوصى بالجار خيراً، وألح بهذا، وأكده، وكرر القول، حتى ظن السامعون أنه سوف يورثه.[1]

لقد ثأر الوليد للجار، ورعى حق الجوار، ودار قوله حول ذلك، وتركز تصرفه على هذا الجانب المهدر، وهو أمر غاب عن الناصح، بل لعله لم يفكر فيه قط، لأن مراعاة الجار خير، وهذا الرجل داخله مملوء بالشر، ومن يعلم، فقد لا يكون التقرب بالإيقاع به هو السبب الوحيد الذي حكم تصرفه، وإنما مكسباً يريد أن يكسبه من إبعاده عن داره، وتغريبه عن أهله.

ولا يستبعد أن يكون الوليد تصرف هذا التصرف لأنه قد لقن درساً عن مثل هذا الموقف؛ وأنه وعى

(١) في كتاب «لباب الآداب» لأسامة بن منقذ، تفصيل وافٍ عن الجار، فيه من الآيات والأحاديث ما لا يستغنى عنه، وفيه أشعار جيدة، وقصص مفيدة.

الدرس، واستفاد منه عندما جاء وقت الاستفادة منه، فوالده عبدالملك قد مر به موقف مماثل، ولا يستبعد أن الوليد قد سمع به، فاحتفظ به درة ثمينة، يقابل بها ما يعترض حكمه من أمثال هذه الأمور؛ فمجالس الخلفاء كانت مدارس للأجيال المقبلة، لما يجرى فيها من أحداث، ولما يقال فيها من أقوال.

كانت هذه المجالس تتسم بالجد، وكانت تعالج فيها ـ على مرأى من الناس ـ أمور الدولة؛ يحضرها المستشارون، والحكماء، والقضاة، والعلماء، والمفكرون، فهي بهذا خير مدرسة للكبار والصغار، لما فيها من آراء سديدة، وحكم بليغة؛ ولما يجري فيها من محاورات، ومن بحث عميق عن الأمور، ويستعاد التاريخ، ويعرض الأدب، ويتدارس الدين، وتفتى الفتاوى.

ويتخذ الخلفاء هذه المجالس للتأديب المباشر، وللتأديب عن طريق أخذ العبرة مما يحدث للآخرين، وقد استقى الأدباء والكتاب من هذه المجالس كثيراً

مما كتبوه عن زمنهم في المجالات المختلفة، ودونوا كثيراً من الطرائف التي مرت بهم، وسجلوا كثيراً من المواقف غير المعتادة التي جرت في هذه المجالس.

ولهذا لا عجب أن يكون الوليد رضع من لبان هذه المجالس ما قوى عظمه، وشد من عضده، وأنار بصيرته، وأبعده عن مواقع الختل، ومزالق التربص، فخرج من الموقف الذي وصفناه ظافراً، معجباً لجلسائه، معطياً درساً لمن تسول له نفسه محاولة مماثلة، في أي مجال من المجالات.

والقصة التي رويت عن والده عبدالملك كمايلي:

«سأل رجل عبدالملك بن مروان الخلوة، فقال لأصحابه:

إذا شئتم تنحوا.

فلما تهيأ الرجل للكلام قال له:

إياك أن تمدحني، فإني أعرف بنفسي منك، أو تكذبني، فإنه لا رأي لكذوب، أو تسعى بأحد إليّ، وإن شئت أقلتك.

قال: أقلني». [1]

عبدالملك بن مروان رجل فقيه، لقد سد على الرجل جميع طرق الشر، التي توقع أن الرجل سوف يدخل عليه منها، وأوقفه، منذ البداية، عن أن يسمم أفكاره، أو يوحي إليه بما يريد أن يتجنبه؛ ونجح عبدالملك في الوصول إلى ما أراده من سد باب الشر، وفتح باب الخير على مصراعيه.

إن مثل هذه الحادثة تكشف عن الجوانب المضيئة في نفوس هؤلاء الحكام، وأمثالهم؛ فعبدالملك بجانب فقهه، أثبت بتصرفه هذا أنه عالم نفس متميز؛ لقد تدبر موقفه وهو حاكم جديد، فعرف أنه سوف يكون هدفاً للمستغلين؛ هذا يريد أن يتقرب بالمدح، وهذا يريد أن يكسب من الغيبة، وهذا يريد أن يجعل له يداً بالنميمة؛ والضحية في النهاية هو عبدالملك نفسه، فرأسه سوف يكون مخاريق بأيدي لاعبين؛ وعرف عبدالملك أنفس الناس، وأنهم مختلفون،

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٢٨.

منهم العاقل، ومنهم الحكيم، ومنهم العالم، ومنهم التقي، ومنهم الخيّر، ومنهم الشرير، ومنهم نهاز الفرص، ومنهم المنافق، ومنهم المداجي، ومنهم المحابي، ومنهم المتملق، ومنهم الصادق، ومنهم الكاذب، ومنهم الخائن، ومنهم الأمين؛ ولكل واحد من هؤلاء صفة يعرفه عبدالملك بها، وله مدخل يدركه بمجرد أن يفتح بابه؛ ولهذا تصرف مع هذا الرجل هذا التصرف؛ لأنه لم يغب عن باله أنه من نوع يجب ألاّ يعطى الفرصة للتمادي في الهدف الذي قد نصبه أمامه، وأمل أن يكسب من ورائه.

والتقرب من الحكام على حساب إبعاد الآخرين، أو أذاهم لا يستغرب على بعض من سكن الشيطان قلوبهم، وبيض وفرخ في صدورهم؛ فهؤلاء لا هم لهم إلا الشر يلحقونه بغيرهم، والأذى ينزلونه على الناس؛ والنميمة والوقيعة عند حاكم هي من أكبر الكبائر، لما قد يأتي منها من أذى كبير، والقصة الآتية تري كيف أراد أحد الناس أن يتقرب من

الحاكم في أول حكمه بأذى عظيم، لم يراع ربه فيه، ولا مصلحة دولته، لقد أعماه الهوى عن الحق، وأعشى عينيه النفاق عن أن يعرف الصحيح من الخطأ؛ والقصة الآتية هي:

«لما قام السفاح قال له أحمد بن يوسف:

لو أمرت بلعن معاوية على المنابر، كما سن اللعن على عليّ ـ عليه السلام ـ.

فأبى، وتمثل بقول لبيد:

فَلَمَّا دَعَانِي عَامِرٌ لأَسُبَّهُمَ
أَبَيْتُ وَإِن كان ابنُ عِيْسَاءَ ظَالِماً»[1]

هذا إذا صح أن أحمد بن يوسف قال هذا القول، وأحمد له أعداء كثيرون، وقد يكون هذا الخبر دس عليه في حياته أو بعد مماته، أذى له، ورفعة للسفاح، والله أعلم بالحقيقة.

ويصطرع الخير والشر في موقف، ويتغلب الخير،

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ١٨١.

ويبدد النور الظلمة، ويبعد النفع الأذى، في الموقف الآتي:

«قال حاتم بن يحيى: سمعت محمد بن يحيى المروزي يقول:

قال رجل لوهب بن منبه: إن فلاناً شتمك.

قال: أما وجد الشيطان بريداً غيرك؟». [1]

هنا شمر الشيطان عن ذراعه، إذ لمح صيداً ظنه سهلا، فسن أضراسه، ونصب شباكه، واستعد للإنقضاض، واثقاً من الكسب، مطمئناً إلى الربح، فالأداة قوية، هي النميمة، والسعي بين اثنين، والأرض مهيأة، إذ أن أحد الاثنين قد فتح نافذة، يمكن للريح الفاسدة أن تهب منها، وأن ينفخ الإعصار المخرب من خلالها، ولكن أمراً مثل هذا لا يقدح شرره إلا إذا وُجِدَ له سالب وموجب؛ ومرسل ومستقبل، وحاذف وملتقط، وباعث ومتلقي؛ إلا أن دائرة كهرباء الشر لم تتصل، والتيار وجد في مسيره قطعاً، فلم يستمر،

(١) الإشراف: ١٥١.

فانقطع عند القطع، وهو قطع خير، وصمام أمان، لقد خيب وهب بن منبه أمل الشيطان ووسيلته، وأحبط عمله، وعمل مريديه، إذ وجدوا في طريق نميمتهم صخرة عاتية، قوية بالخير، مليئة بالنفع، تكسرت عليها نصال شرهم، وغطى خيرها على أذاهم؛ وأزال ضياؤها ديجور ظلامهم.

ونظرة الخيرين إلى الأمور تحميهم من كثير مما يمكن أن يكون فيه أذى كثير، أو ألم حاد، أو ضررٌ عميق، وتكسبهم نفعاً ضافياً، وربحاً وافياً، وفخراً كافياً؛ إذ أنهم قد وضعوا أمام أعينهم مبادئ، يسيرون في هديها، ويتصرفون في ضوء نورها الوهاج، فتقودهم إلى ما يحمدون عقباه، وتفرحهم بما تأتيهم به من راحة في النفس، وطمأنينة في الذهن؛ يأخذون بعض هذه المبادئ، وما صيغت فيه من أقوال، حكماً يجعلونها نصب أعينهم، لا يهملون مراعاتها، ولا يتخلون عن التحلي بها، والقول الآتي أحد هذه الأقوال المضيئة:

«قال وهب بن منبه:

احتمال بعض الذل خير من انتصار يزيد صاحبه قماءة». [1]

إنه لقول يوزن بالذهب والدرر، لما يكمن فيه من صدق، وما يحتوي عليه من معنى عزيز، وفكر نير، وصدق في المدلول، وبرهان في النتيجة؛ وهو قول تؤكده التجربة، وتعضده الممارسة، ولو عرض أحدنا بعض المواقف التي يدخل فيها التسامح والإغضاء، لرأى صدق هذا القول، وكيف أنه بالتغاضي عن بعض الخطأ، والتسامح عن بعض الأذى، يكسب الإنسان كثيراً من راحة الضمير، وسعادة النفس؛ فالإنتصار لذته ظاهرة، ولكن باطنه مؤلم في بعض الأحيان؛ والمؤكد هو لذة التسامح، وما توحي للمرء به بأنه هو الغالب في الحقيقة، لأنه تغلب على نفسه أولاً، ثم قطع الطريق على أي احتمال ضغينة، أو ربربة حقد، أو نية انتقام ممن انتصر عليه، ولا يعرف هذا إلا من مرّ به موقف

(١) الإشراف: ١٥١.

من هذا؛ ولا يخلو الموقف من أجر وثواب من الله الذي يطلع على أفعال الناس، ويثيب على ما يجيء منهم بنية حسنة، ولوجهه الكريم.

ويطفر الخير من إناء كريم الأصل، وافي الدين، وهو نفس عمر بن عبدالعزيز، فيتلمس لنفسه الخير، وفي هذا الخير انعكاس على الآخرين، لأنه إمامهم، وخليفتهم، وعمله هو لهم، فهو إن أراد الخير نفسه، وبحث عنه عند من يتوافر عندهم، إنما يريد أن يكون وسيلة عنده لصالح أمة محمد، التي هي أمانة في عنقه، وهذا ما طلبه.

«قال عمر بن عبدالعزيز لمزاحم، مولاه:

إن الولاة جعلوا العيون على العوام، وأنا أجعلك عيني على نفسي، فإن سمعت مني كلمة تربأ بي عنها، أو فعالاً لا تحبه، فعظني عنده، وانهني عنه». (١)

جمال القول هنا أن عمر بن عبدالعزيز جعل مولاه عليه رقيباً، ينبهه إلى ما قد لا يتنبه له، مما يشين،

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٢٣.

وما يعيب، مما يجلب الإثم، ويحبط العمل؛ ولم يترفع عمر بن عبدالعزيز عن أن يأخذ النصح من مولاه؛ ولكنه يؤمن بأن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها، ومزاحم، مولى عمر، قد رباه عمر التربية الصالحة، فهو يرجو منه خيراً، وهو أعرف الناس بطبعه، وأقدر الناس على ملاحظة ألفاظه، ومتابعة مزاجه، ويمكنه تنبيهه إلى الأمر قبل الوقوع فيه أحياناً.

والخير يستقر في الأنفس الخيرة أياً كانت، وهذا فيثاغورس يقابله الشر، فيحيد عنه، ويراد على غير الخير، فيأبى قبول غيره؛ والقصة الآتية تبين مجرى الخير من فيثاغورس، ومجرى الشر من زوجته، وكيف كانت نفسه روضاً مزهراً، ونفسها صحراء جدباء؛ أضاء صدره بالنور، وعكمت الظلمة في ثنايا صدرها؛ هو سعيد بما يأتيه، وهي شقية بما ترتكبه؛ والمتدبر في القصة يرى البعد بين الاثنين؛ فرغم تكرار الأذى منها إلا أنه تحمل وصبر؛ وكأنه كان يتعلم الصبر

والتحمل بها، فهي مدرسته في هذا، وهي وسيلة الإيضاح، التي يرى فيها مدى قدرته على التحمل، والصبر، وقد نجح نجاحاً كبيراً، وهو جدير بهذا، لأنه فيلسوف عرف داخل الأمور وخارجها:

«لفيثاغورس: :

شتمته امرأته، وظلت تُسَمِّعُ به، وتؤذيه، وهو ساكت؛ فلما اشتد غيظها من سكوته أخذت غُسَالة ثياب، كانت تغسلها، فصبتها على رأسه، وعلى كتاب كان في يده.

فرفع رأسه، وقال: أما إلى هذه الغاية فكنت تبرقين وترعدين، وأما الآن فقد أمطرت». (١)

أما الأذى منها فواضح، وأما الصبر منه فجلي، ولكن عند دراسة حال المرأة فقد يكون ما جعل مرجلها يغلي هو الغيرة، والغيرة جاءتها من كتاب فيثاغورس، فهي تريد أنيساً، وجليساً، يشاركها أفكارها، وآمالها، ويستمع لثرثرتها، وكتابه آخذ

(١) البصائر: ٢/ ١٧١.

وقته، ومستولٍ على تفكيره، لا أحد له منه نصيب مادام الكتاب يناديه، ولا يلتفت إلى نداء غيره، فهو لها أسوأ من الضرة، لأن الضرة قد يأتي منها خطأ، فتقل منزلتها، وأما الكتاب فمطيع، إن طلب فهو متواجد، وإن لم يطلب بقي صامتاً، منتظراً الاستدعاء، فهو الخطر الأكبر للزوجة، وهو المزاحم الكفيء، لهذا خرجت عن صوابها، إذ لم ينفع الابراق والإرعاد، فأصبح لابد من سحابة قوية، تنزل على فيثاغورس، فتوقظه من غفلته، وتخرجه من صمته، ولكن خروجه من صمته لم يختلف عن صمته، ولم يفد المطر، كما لم يفد قبله الإرعاد والابراق.

ويبقى صبر فيثاغورس وتحمله فضيلة، والفضيلة خير، وتبقى غيرة الزوجة رذيلة، والرذيلة شر.

ونطل على فتية عشرة، في بغداد، في عصر ازدهارها، ونرى تعارك الشر والخير فيهم، ونشهد تغلب الخير في نهاية الأمر، لأن الشر لم يكن عميقاً في نفوسهم، وإنّما نقص الخير عندهم كان من جراء

السن، وعدم النضج؛ ولكنهم سرعان ما استجابوا لنداء العقل، وأصغوا لصوت الدين، وانصاعوا لداعي الحكمة، وتداركوا أنفسهم قبل فوات الأوان؛ والعقل متى تحكم غلب، وهو مفتاح فهم الدين، والغوص على درره، ومن حاز هذه الدرر فقد فاز فوزاً عظيماً، وقصة هؤلاء الشبان العشرة كمايلي:

«اجتمع ببغداد عشرة فتية على لهو، فبعثوا أحدهم في حاجة، فرجع وفي يده بطيخة، يشمها، ويقبلها: فقال:

جئتكم بفائدة: وضع بشر الحافي يده على هذه البطيخة، فاشتريتها بعشرين درهما، تبركا بموضع يده.

فأخذ كل واحد منهم، يقبلها، ويضعها على عينه.

فقال بعضهم: ما الذي بلّغ بشراً.

قالوا: تقوى الله، والعمل الصالح.

قال: فإني أشهدكم أني تائب إلى الله؛ وإني داخل في طريقة بشر.

فوافقوه على ذلك؛ وخرجوا إلى طرطوس، واستشهدوا». [1]

من عمل حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، وبشر الحافي بعمله الصالح، وبتقواه، كان قدوة حسنة، انتشلت هؤلاء الشبان من هاوية الضلال، ووضعتهم على المحجة السليمة الصحيحة؛ ولم يكن صعباً عليهم عند التدبر أن يروا الحق، ولم يكن مجهداً لهم عند التبصر أن يميزوا طريق الهداية والاستقامة؛ وكان المدخل طموحهم أن يكونوا مثل هذا الذي هو مثلهم الأعلى، ومن حبهم له، وتقديرهم لعمله، أرادوا أن يكونوا مثله؛ وماذا عنده ليس عندهم، عنده الإرادة، وهي عندهم؛ عنده التغلب على النفس، وهم أقوياء عليها، قادرون على قهرها؛ وهم شباب مهيأ للجهاد، وقادرون عليه، والإسلام في حاجة إليهم، لدفع العدو عن ثغورهم؛ وبالشهادة سوف يصلون ـ بقبول الله لعملهم ـ إلى الدرجة

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٢٧٣.

العليا، التي يطمحون إلى أن يصلوا إليها برضاء الله وفضله، وكان لهم ما أرادوا، واستشهدوا، فنرجو أن يقبل الله عملهم، فقد أخلصوا النية، واجتهدوا في العمل، وبذلوا أنفسهم الغالية رخيصة في سبيل الله.

ويدحر الخير الشر في موقف مضيء، رغم أن الشر ـ كما يبدو ـ كان متمكناً، إلا أن طبيعة الخير كانت أقوى، رغم أن السلاح كان ليناً، هادئاً، ولكنه نافذ متغلغل، تراجعت جيوش الشر أمامه، مندحرة، كأنها لم تكن فتاكة من قبل، ولم تكن احتلت نفساً، تبين فيما بعد أن عندها الأرض الطيبة لقبول البذرة الزكية، والقصة هكذا:

«كان أبو الطيب الطاهري، يهجو بني سامان، فقال له نصر بن أحمد يوماً:

يا أبا الطيب إلى متى تأكل خبزك بلحوم الناس؟

فخجل، ولم يعد»[1]

لقد رسم نصر بن أحمد صورة بشعة لما كان يقوم

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ١٧٨.

به الطاهري، ولعل هذه الصورة لم تخطر للطاهري على بال، ولم يكن يتصور أن عمله يصل إلى تشبيهه بأكل لحوم الناس؛ لابد أن الطاهري يعلم أن الغيبة والرثع في أعراض الناس، وجرح إحساسهم، وإيلام شعورهم، تدخل في قول الله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾.[1]

ولكنه لم يستحضر الآية وهو يهجو هذين الرجلين، لم تطابق الآية فعله في ذهنه، حتى أيقظه من سدرته قول نصر، فأردك أنه والغ في الرذيلة، وغارق فيها إلى أذنيه، فذعر ذعراً ألجم لسانه، وشل ذهنه، فصمت صمتاً أبدياً عن هذا الهجو، ولم يستطع في تلك اللحظة لذهوله أن يجيب على تساؤل نصر.

وننتقل إلى قصة طريفة يدخل فيها الخير والشر مداخل تستحق أن يوقف عندها، ويتدبر؛ ومن العناصر التي أوجبت ما حدث من مظهر شر، ثم خير، أن هناك عهداً، لم يحافظ عليه، ولابسته الخيانة،

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

وهنا غسل للعار الذي لحق بمن خان العهد؛ ورغم أن مادة العهد لم تكن بهذه الأهمية، إلا أن المبدأ امتهن، والأساس قوض؛ فكان لابد من رد الاعتبار، وصيانة الكرامة، وغسل العار؛ والقصة هكذا:

«وفد زياد الأعجم على المهلب بن أبي صفرة، وهو يقاتل الأزارقة بتوج، فأكرمه، وأنزله على ابنه حبيب؛ وقال له: أحسن قراه.

فبينما هو في بستان غنت حمامة على فنن، فطرب لها زياد، فقال له حبيب: إنها فاقدة إلف كنت أراه معها، فقال زياد؛ هو أشد لشوقها، وأنشأ يقول:

تَغَنَّيْ أَنْتِ فِيْ ذِمَمِي وَعَهْدِي
وَذِمَّـــةِ وَالِـــدِيْ أَلاَّ تُضَـــارِي
فَـإِنَّـكِ كُلَّمَـا غَـرَّدْتِ صَـوْتـاً
ذَكَـرْتُ أَحِبَّتِـيْ وَذَكَـرْتُ دارِي
فَـإِمَّـا يَقْتُلُـوْكِ طَلَبْـتُ ثَـأْراً
لِإِنَّـكِ يَـا حَمَـامَـةُ فِـيْ جَـوَارِي

فضحك حبيب، ودعا بجلاهق (بندق)، فرماها،

فسقطت ميتة، فنهض زياد مغضباً، وقال:

أخفرت أبا بسطام ذمتي، وقتلت جاري.

فشكا إلى المهلب، فغضب، وقال لحبيب:

أما علمت أن جار أبي أمامة جاري، وذمته ذمتي، والله لألزمنّك دية الحر والعبد.

وأخذها من ماله، ودفعها إلى زياد، فقال:

فَلِلَّـهِ عَيْنَـا مَـنْ رَأَى كَقَضِيَّـةٍ
قَضَى لِيْ بِهَا شَيْخُ العِرَاقِ المُهَلَّبُ
قَضَى أَلْفَ دِيْنَارٍ لِجَارٍ أَجَرْتُهُ
مِنَ الطَّيْرِ إِذْ يَبْكِيْ شَجَاهُ وَيَنْدُبُ»

فرفع خبره للحجاج، فقال:

«لشيء ما سودت العرب المهلب». (١)

لقد هز هديل الحمامة شعور زياد، وأحس فيه نغمة حزن، فلما أخبره حبيب بأنها فاقدة إلفا طغى عليه شعور، ملأ نفسه، فنفس عن نفسه بأبيات قارن فيها بين فقد الحمامة إلفها، وبين غربته عن

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٤١١، ويختلف الشعر ويزيد في «لباب الآداب»: ٢٦٤.

أهله، وأحس أن هذا التماثل يجعل بينهما قرابة شعور، وإحساس، فأصبحت منه، وهو منها، ولا أقل من أن تكون جارة له؛ وإذا كان إِلْفُها قد غدر به صائد، فهي ـ خلافه ـ في أمان لأنها جارته.

ولكن حبيباً لم يأخذ الأمر مأخذ الجد، ولم يغص على ما في سويداء قلب زياد، ولم يقس شعوره الحق في هذا الأمر، فأطلق بندقة من بندقه، وأردى الحمامة قتيلة، ولعل معها ضحكة مجلجلة، هزت كيان زياد، واضطر للشكوى إلى المهلب، والمهلب أحس بعمق الطعنة، فغالى في دية القتيلة، مغالاة جعلت الحجاج يقر له بما اشتهر عنه من أعمال، جعلته سيداً.

وهذا العمل الضافي من المهلب، وهذا الحكم القاسي على ابنه، نتيجة فعلته الشنيعة، هزت زياداً، فنطق بأبيات خلدت المهلب؛ وقد ذهب المال، وبقي الشعر، والذكر الحسن.

وهذا يري مدى اهتمام العرب بالجوار والجار،

وهذا من الأمور التي حرصوا على حرمتها منذ عصر الجاهلية، ولم يزدهم الإسلام إلا تمسكاً بها، بل وما هو أقل منها، استمع، متعجباً، إلى القصة الآتية، وهي طريفة، وقد قامت على كلمة «جار»، عندما نطق بها أحد الناس تهكماً واستهزاءاً، فأخذها من قيلت له مأخذ الجد، وتصرف حيال الجراد تصرفه مع إنسان لجأ إليه، وطلب حمايته؛ والقصة كمايلي:

«سقط الجراد قريباً من بيت أبي حنبل جارية بن مر، فجاء الحي، فقالوا:

نريد جارك. فقال: أما إذ جعلتموه جاري، فوالله لا تصلون إليه.

فأجاره حتى طار من عنده، فسمي مجير الجراد، وفي ذلك يقول هلال بن معاوية الثعلبي:

وَبِـــالْمَعْقِلَيْـــنِ لَنَـــا مَعْقِـــلٌ
صَعَـدْنَـا إِلَيْـهِ بِصُـمِّ الصِّعَـاد
مَلَكْنَـاهُ فِـيْ أُوْلَيَـاتِ الـزَّمَـانِ
مِـنْ قَبْـلِ نُـوْحٍ وَمِـنْ قَبْـلِ عَـاد

وِمِنَّـــا ابْـــنُ مُـــرٍّ أَبُـــو حَنْبَـــلٍ
أَجَارَ مِنَ النَّاسِ رِجْلَ الجَرَاد
وَزَيْـــدٌ لَنَـــا وَلَنَـــا حَـــاتِـــمٌ
غِيَاثُ الوَرَى فِي السِّنِيْنِ الشِّدَاد»[1]

لقد ارتفع أبو حنبل بحماية هذا الجار، رغم أنه ضار، وفخر به قومه، وجاء ذلك في شعرهم، وأصبح اسمه يدور على الألسن، بنغمة فخر، ولهجة اعتزاز، ودخل التاريخ من أوسع أبوابه؛ وهذا يؤكد حرص الناس على فضيلة رعاية الجار، لأنها مبدأ اطمئنان للمجتمع، تحميه من أن يتصرف أفراده تصرفاً أحمق تمليه ساعة الغضب، التي تأتي عند رؤية العمل المثير، فقاتل يأتي راكضاً، ويحتمى جاراً بمن يمكنه أن يجيره، يسلم من انتقام سريع؛ ويدخل الأمر حيز التحري عن الأمر، وقد يتبين أن القتيل على خطأ، والقاتل بريء من التعدي؛ وقد يكون هناك تعد، ولكن الخطأ يمكن أن يعوض بالمال.

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٤١٤.

وكان الذي لا يجير مرذولاً عندهم، يعود تخليه إلى الجبن، أو الضعف، وينظر إليه نظرة متدنية، وعلى أنه ليس عزيزاً في قومه؛ لهذا حرصوا على حماية الجار، وإذا حماه أضعف الناس في القبيلة، تكاتفت القبيلة لمساعدته، واستماتت في ذلك؛ وتقوم حروب على ذلك، وتفنى قبائل، ولا يتأبى أحد عن هذا التصرف الشريف، ولا يتأخر عن هذه العادة الحسنة.

وقد يعرف شخص بأنه يحمي الجار، فيتكرر لجوء الخائفين إليه، فيستمر حمله هذا العبء، ويبقى له الشرف متوطناً ثابتاً، وممن عرف بحماية الجار أبو سفيان؛ ؛ وهذا ما قيل عنه:

«كان أبو سفيان إذا نزل به جار، قال له:

يا هذا إنك قد أخترتني جاراً، واخترت داري داراً، فجناية يدك عليّ دونك؛ وإن جنت عليك يد فاحتكم عليّ حكم الصبي على أهله». [1]

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٤٢٣.

وسياق الخبر يدل على أن هذه عادة أبي سفيان، فهو لا ينتهي من جار إلا ويأتي آخر، لأن الطير لا يسقط إلا حيث يلتقط الحب، ولا تغشى إلا منازل الكرماء، ومادام أبو سفيان عرف بإيوائه الجار، فلن تقف رجل الطارق عليه.

وقد رتب أمر الجار، ودلله تدليل الطفل الصغير، فالجار، في كل الأحوال، غانم، وأبو سفيان دائماً غارم؛ فأبو سفيان لا يريد أن يشعر جاره بأنه عبء؛ ولا يقول له كما تقول أمم اليوم عندما يلجأ إليها لاجئ دبلوماسي: أنت على الرحب والسعة، ولكن لا تتكلم في السياسة؛ إن أبا سفيان يؤكد على جاره بأن أي خطأ يرتكبه، فسيسعد أبا سفيان أن يكون هو من يصلح الخطأ، وإذا أخطئ في حق الجار من أي أحد، فعلى الجار أن يحدد الطريقة التي يمكن أن يمحى بها الخطأ.

ويقول الزمخشري بعد أن ساق الخبر في كتابه «ربيع الأبرار»:

«ويوشك أن يكون هذا من الأسباب الموصلة إلى أن شرف بقول رسول الله ﷺ يوم الفتح:

من دخل دار أبي سفيان فهو آمن». [1]

وخير من كان يعرف الناس أيام الجاهلية هو الرسول ﷺ يعرف الزعماء، ويعرف ما يدور في أنفسهم، ويعرف ما يدغدغ كبرياءهم، وهو خير من يستفيد مما يشعرون به من نقص، وما يشعرون به من كمال؛ وقد عرف تقدير أبي سفيان للجار، فلم يرد أن يقطع عادته، بل رأى أن من المفيد استغلالها؛ فأجار ﷺ من دخل دار أبي سفيان مستجيراً، ومن سوف يدخلون دار أبي سفيان قليلون، ولكن المهم هو الرمز؛ أما العدد الحق فهو في من سوف يدخل المسجد الحرام، وهو البديل الآخر لدار أبي سفيان، ومجرد مساواة بيت أبي سفيان في الجوار بالحرم، يتأكد شرف أبي سفيان، الذي أضفاه عليه رسول الله ﷺ وأين هذا في علوه، ورفعته، وتميزه، من جوار

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٤٢٣.

أبي سفيان في الجاهلية، لطريد مذنب؟

ويظهر الخير جلياً مع رجل عاش بعض وقته في الجاهلية، ولكن بقية شر قديم، تطل برأسها، فيجتثها رسول الله ﷺ ولعل إبليس كان وراء هذه الغواية، ولكنه ﷺ قطع أمله، وقضى على محاولته، والقصة طريفة، وفيها شعر يحمل الخير كله، لما فيه من حكم صادقة، وأقوال عدل، والقصة كمايلي:

«وفد العلاء بن الحضرمي على النبي ﷺ فقال: أتقرأ من القرآن شيئاً؟

فقرأ: «عبس»، وزاد فيها من عنده:

«وهو الذي أخرج من الحبلى نسمة تسعى، من بين شراسيف وَحَشَى».

فصاح به النبي ﷺ وقال له:

كف، فإن السورة كافية.

ثم قال: هل تروي من الشعر شيئاً؟ فأنشده:

حَيِّ ذَوِيْ الأَضْغَانِ تَسْبِ قُلُوبَهُمْ
تَحِيَّتُكَ القُرْبَى فَقَدْ تُرْقَعُ النَّعْلُ

وَإِنْ دحسوا بِالكُرْهِ فَاعْفُ تكَرُّماً
وَإِنْ خَنَسُوا عَنْكَ الحَدِيْثَ فَلاَ تَسَلِ
فَإِنَّ الَّذِيْ يُؤْذِيْكَ مِنْهُ سَمَاعُهُ
وَإِنَّ الَّذِيْ قَالُوَا وَرَاءَكَ لَمْ يُقَلِ

فقال النبي عليه السلام: إن من الشعر حكماً، وإن من البيان لسحراً». [1]

هذه الأبيات جميلة، لأنها صادقة، ولأنها تحمل الحق في ثناياها، ولهذا امتدحها الرسول ﷺ لأنها أبيات فيها الخير، وتحث على جانب مهم من جوانب مكارم الأخلاق؛ فهي تدعو إلى التحبب إلى من أكل الحقد قلبهم عليك، وامتلأت نفوسهم ضغنا؛ والتحبب يكون بتحيتهم، والتقرب إليهم؛ فهذا يغسل قلوبهم مما فيها من درن عليك، وتحتلها أنت بترحاب منهم، وقبول؛ فالنعل إذا ما انقطعت، أو أصاب جزءاً منها عطب، لا ترمى، وإنما تصلح بالرقع؛ فتعود لعملها كما كانت. هذه حكمة بالغة.

---

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٢٢.

ويؤكد الشاعر على فضيلة التسامح حتى لو جاهر الكارهون بكرههم، فالعفو هو الدواء، وهو الذي يملأ نفس العافي بالرضا عن نفسه، وهذا مهم؛ ويحث على عدم متابعة ما يجلب الغضب، مهما كان صغيراً، فإذا أسروا حديثاً فلا تحاول أن تتتبع ما أسروه عنك، اختياراً منهم، وعليك أن تتغافل عن ذلك؛ لأن ضرر عدم المعرفة أهون من ضرر التتبع، والتساؤل، والبحث؛ ولعل في ذهن هذا الشاعر الحكيم أن ما تساروا فيه سوف يأتيك من حيث لا تحتسب، ويأتيك بالأخبار من لا تزود.

ويعلل الشاعر الحكيم لذلك بأن ما يؤذي هو ما تسمعه، لأنه يحرك فيك شعور العداء لهم، وعوامل الغضب تجاههم، فتسكت على مضض، أو ترد رداً يلهب نار البغضاء بينك وبينهم، ويسعر جمرة العداء، فيفسد ما بينك وبينهم، أكثر من ذي قبل؛ أما الذي لا يصل إلى أذنيك فكأن أحداً لم يفه به، ولم يتلفظ.

حكم الأمويون والعباسيون العراق، وكان

العراق للدولتين مصدر ثروة طائلة، ومنبع خيرات واسعة، ولكنها كانت أحياناً مصدر شر للعامل الذي يعين على العراق من قبل الخليفة الأموي؛ فقد يتهم باستغلال الثروة، وسرقة شيء منها، أو تبذيرها، فيحل به عقاب الخليفة؛ والعقاب عادة صارم؛ ويبدو أن الأمر في زمن العباسيين اتخذ أسلوب المقاولة، فيعهد، إلى رجل قادر، بالتعهد برعاية منطقة، يؤدي عنها مبلغاً معيناً في السنة، وله ما زاد عن ذلك؛ فإذا ما سُخط عليه طولب بأكثر مما كان عُين له، وقد يكون المبلغ المطالب به فوق طاقته، فيتعرض لعقاب شديد، قد يؤدي به إلى الموت.

في زمن الأمويين هناك قصة اجتمع فيها الخير والشر؛ هذا بضيائه الوهاج، وهذا بظلمته السوداء؛ ولكن الشر سرعان ما ارتفع، بما فيه من بشاعة، واختفى بما فيه من قبح، والعاقبة دائماً للمتقين؛ ورغم أن الشر في هذه القصة برز مكشراً عن أنيابه في مرحلة من مراحل أعماله، إلا أنه تبين أنه لم يكن

عميقاً إلى الحد الذي يحتاج الأمر فيه إلى جهد لاقتلاعه، أو جهاد عنيف للقضاء عليه؛ فما احتاج في واقع الأمر إلا إلى بصيص من إشعاع الخير حتى يبتسم الموقف، وتتورد أوداجه؛ ثم تتالى الخير بعد ذلك، لأن بابا واسعاً من أبوابه قد فتح على مصراعيه، والقصة كالآتي:

«قال شيبة بن محمد الدمشقي:

كان في أيام سليمان بن عبدالملك رجل يقال له: خزيمة بن بشر، من بني أسد، مشهور بالمروءة والكرم والمواساة؛ ؛ وكانت نعمته وافرة؛ فلم يزل على تلك الحال حتى احتاج إلى إخوانه الذين كان يواسيهم، ويتفضل عليهم، فواسوه حيناً، ثم ملوه، فلما لاح له تغيرهم، أتى امرأته ـ وكانت ابنة عمه ـ فقال لها:

يا بنت العم، قد رأيت من إخواني تغيراً، وقد عزمت على لزوم بيتي، إلى أن يأتيني الموت.

ثم أغلق بابه عليه، وأقام يتقوت بما عنده من

نقد، وبقي حائراً في حاله.

وكان عكرمة الفياض والياً على الجزيرة؛ فبينما هو في مجلسه، وعنده جماعة من أهل البلد، إذ جرى ذكر خزيمة بن بشر، فقال عكرمة:

ما حاله؟

قالوا: صار في أسوأ الأحوال؛ وقد أغلق بابه، ولزم بيته.

فقال عكرمة الفياض ـ وما كان سمّى الفياض إلا للإفراط في الكرم:

فما وجد خزيمة بن بشر مواسياً، ولا مكافئاً!

فقالوا: لا.

فأمسك عن ذلك.

فلما كان الليل عمد إلى أربعة آلاف دينار، فحملها في كيس واحد، ثم أمر بإسراج دابته، وخرج سرّاً من أهله، فركب معه غلام واحد يحمل المال؛ ثم سار حتى وقف بباب خزيمة، فأخذ الكيس من الغلام، ثم أبعده عنه، وتقدم إلى الباب،

فطرقه بنفسه، فخرج خزيمة، فقال له:

أصلح بهذا شأنك.

فتناوله، فرآه ثقيلاً، فوضعه، وقبض على لجام الدابة، وقال له:

من أنت؟ جعلت فداك!

قال له: ما جئتك في هذا الوقت وأنا أريد أن تعرفني.

قال خزيمة: فما أقبله، أو تخبرني من أنت؟

قال: أنا جابر عثرات الكرام.

قال: زدني.

قال: لا.

ثم مضى.

ودخل خزيمة بالكيس إلى امرأته، فقال لها:

ابشري، فقد أتى الله بالفرج، فلو كان في هذا فلوس لكانت كثيرة؛ قومي، فأسرجي.

قالت: لا سبيل إلى السراج.

فبات يلمس الكيس، فيجد تحت يده خشونة

الدنانير، ولا يصدق.

ورجع عكرمة إلى منزله، فوجد امرأته قد افتقدته، وسألت عنه، فأُخبرت بركوبه منفرداً؛ فارتابت، وشقت جيبها، ولطمت خدها؛ فلما رآها على تلك الحالة قال لها:

ما دهاك يا ابنة العم؟

قالت: سوء فعلتك بابنة عمك؛ أمير الجزيرة، لا يخرج بعد هدأة من الليل، منفرداً عن غلمانه، في سرٍّ من أهله، إلا إلى زوجة أو سرية.

فقال: لقد علم الله ما خرجت لواحدة منهما.

قالت: فخبرني فيم خرجت؟

قال: يا هذه، لم أخرج في هذا الوقت إلا وأنا أريد ألا يعلم بي أحد.

قالت: لابد أن تعلمني.

قال: فاكتميه إذاً.

قالت: سأفعل.

فأخبرها بالقصة على وجهها.

ثم قال : أتحبين أن أحلف لك؟

قالت : لا ، قد سكن قلبي .

ثم أصبح خزيمة ، فصالح غرماءه ، وأصلح من حاله ؛ ثم تجهز يريد سليمان بن عبدالملكِ بفلسطين ؛ فلما وقف ببابه ، دخل الحاجب ، فأخبره بمكانه ـ وكان مشهوراً بالمروءة ، وكان الخليفة به عارفاً ـ فأذن له ، فلما دخل عليه وسلم بالخلافة ، قال :

يا خزيمة ما أبطأك عنا؟

فقال : سوء الحال يا أمير المؤمنين .

قال : فما منعك من النهوض إلينا؟

قال : ضعفي .

قال : فما أنهضك؟

قال : لم أشعر يا أمير المؤمنين ، بعد هدأة من الليل ، إلا ورجل يطرق بابي ، وكان منه كيت وكيت . . وأخبره بقصته من أولها إلى آخرها .

فقال : هل عرفته؟

قال : لا والله ، لأنه كان متنكراً ، وما سمعت منه

إلا «جابر عثرات الكرام».

قال: فتلهف سليمان بن عبدالملك على معرفته، وقال: لو عرفناه لأعنّاه على مروءته.

ثم قال علي بقناة.

فأُتي بها، وعقد لخزيمة الولاية على الجزيرة، وعلى عمل عكرمة الفياض وأجزل عطاياه، وأمره بالتوجه إلى الجزيرة.

فخرج خزيمة متوجهاً إليها، فلما قرب منها خرج عكرمة، وأهل البلد، للقائه؛ فسلم عليه، ثم سارا جميعاً إلى أن دخلا البلد، فنزل خزيمة في دار الإمارة، وأمر أن يؤخذ عكرمة، وأن يحاسب، فحوسب؛ ففضل عليه مال كثير، فطلبه خزيمة بالمال؛ فقال:

ما لي إلى شيء منه سبيل.

فأمر بحبسه، ثم بعث يطالبه، فأرسل إليه:

إني لست ممن يصون ماله بعرضه، فأصنع ما شئت.

فأمر به فكُبل بالحديد، وضيق عليه.

فأقام على ذلك شهراً، فأضناه ثِقَل الحديد، وأضرّ به.

وبلغ ذلك ابنة عمه، فجزعت عليه، واغتمت، ثم دعت مولاة لها، ذات عقل، وقالت:

امضِي الساعة إلى باب هذا الأمير، فقولي:

«عندي نصيحة».

فإذا طلبت منك، فقولي:

«لا أقولها إلا للأمير خزيمة».

فإذا دخلت عليه، سليه الخلوة، فإذا فعل قولي له:

«ما كان هذا حق جابر عثرات الكرام منك، في مكافأتك له بالضيق والحبس والحديد».

قال: ففعلت ذلك.

فلما سمع خزيمة قولها قال:

واسوأتاه! جابر عثرات الكرام غريمي!

قالت: نعم.

فأمر، من وقته، بدابته فأُسْرجت، وركب إلى

وجوه أهل البلد، فجمعهم، وسار بهم إلى باب الحبس، ففتح، ودخل، فرأى عكرمة الفياض في قاع الحبس متغيراً؛ قد أضناه الضر؛ فلما نظر عكرمة إلى خزيمة، وإلى الناس، أحشمه ذلك، فنكس رأسه.

فأقبل خزيمة حتى انكب على رأسه، فقبّله، فرفع رأسه إليه، وقال:

ما أعقب هذا منك؟

قال: كريم فعالك، وسوء مكافأتي.

قال: يغفر الله لنا ولك.

ثم أمر بفك قيوده، وأن توضع في رجليه.

فقال عكرمة: تريد ماذا؟

قال: أريد أن ينالني من الضر مثل ما نالك.

فقال: أقسم عليك بالله ألا تفعل.

فخرجا جميعاً إلى أن وصلا إلى دار خزيمة، فودعه عكرمة، وأراد الانصراف، فلم يمكنه من ذلك.

قال: وما تريد؟

قال: أُغَيِّرُ من حالك ما أراه؛ وأما حيائي من

ابنة عمك فأشد من حيائي منك.

ثم أمر بالحمام فأخلي، ودخلا جميعاً؛ ثم قام خزيمة، فتولى خدمته بنفسه؛ ثم خرجا، فخلع عليه، وحمل إليه مالاً كثيراً؛ ثم سار معه إلى منزله، واستأذنه في الاعتذار من ابنة عمه، فأذن له، فاعتذر إليها، وتذمم من ذلك.

ثم سأله أن يسير معه إلى أمير المؤمنين، وهو يومئذ مقيم بالرملة، فأنعم له بذلك.

فسارا جميعاً حتى قدما على سليمان بن عبدالملك، فدخل الحاجب، فأخبره بقدوم خزيمة بن بشر، فراعه ذلك، وقال:

«والي الجزيرة يقدم علينا بغير أمرنا، مع قرب العهد به! ما هذا إلا لحادث عظيم!».

فلما دخل عليه قال، قبل أن يسلّم:

ما وراءك يا خزيمة؟

قال: خير يا أمير المؤمنين.

قال: فما أقدمك؟

قال: ظفرت بجابر عثرات الكرام، فأحببت أن أسرك، لما رأيت من شوقك إلى رؤيته.

قال: ومن هو؟

قال: عكرمة الفياض.

فأذن له بالدخول؛ فدخل، فسلم عليه بالخلافة؛ فرحب به، وأدناه من مجلسه، وقال:

يا عكرمة، كان خيرك له وبالاً عليك.

ثم قال له: اكتب حوائجك، وما تختاره في رقعة، فكتبها، فقضيت على الفور، ثم أمر له بعشرة آلاف دينار، مع ما أضيف إليها من التحف والطرف؛ ثم دعا بقناة، وعقد له على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان، وقال له:

أمر خزيمة إليك، إن شئت أبقيته، وإن شئت عزلته.

قال: بل أرده إلى عمله، يا أمير المؤمنين.

ثم انصرفا جميعاً، ولم يزالا عاملين لسليمان بن عبدالملك مدة خلافته». [1]

---

(١) ثمرات الأوراق: ٢٤٨.

أجل، صدق سليمان بن عبدالملك، كان خير عكرمة لخزيمة وبالاً على عكرمة، أو شراً عليه، ولكن الله لطف بعكرمة ففك عسرته، ولطف بخزيمة فأبعده عن نكران المعروف وهو لا يدري.

يقف المرء أمام هذه القصة وقفات عديدة، فالخير والشر، أو الصواب والخطأ، ليسا هما الأمر الوحيد البارز فيها، ولكنها تكشف عن أمور أخرى، تكشف عن أن الدنيا لا أمان لها، فالغني اليوم يمكن أن يكون فقيراً مدقعاً غداً، والأصدقاء، والأقربون الذين حول الإنسان قد يبتعدون وينفرون، والسلطة اليوم بيد شخص قد تنتقل بسرعة البرق منه إلى غيره، والضحية اليوم هو المضحي غداً، ولا يُبْقِي السعادة في القلب، إلا النية الحسنة، والعمل الخير، والنظرة إلى الناس نظرة يحكمها حب الخير لهم، والسعي فيما يفيدهم.

ولم يضع الله ـ سبحانه وتعالى ـ عكرمة، لأنه يبدو أن عمله الذي قام به تجاه خزيمة، ومساعدته على

تخطي محنته، وإخراجه من عسرته، وإرخاص هذا المبلغ الكبير، وتعرضه للوم زوجته، ابنة عمه، لما قد كان بالإمكان أن يصبح أمراً جسيماً بينهما، قد يؤدي إلى الفراق، وحرصه على إخفاء الأمر حتى عن غلامه، الذي صحبه في هذه الزيارة الغامضة، وإبعاده إياه عن بيت خزيمة، حتى لا يرى أو يسمع ما يقال، أو ما قد يدور من حديث وإصراره على عدم ذكر اسمه لخزيمة، كان، كل هذا لوجه الله وقد صبر على الأذى الذي كان يقربه من الموت وهو وإن كان صَبرَ على هذا الضر ابتغاء أن يُبقي الأمر لوجه الله، إلا أن زوجته لم تصبر، ولعلها بجانب الشفقة عليه، والخوف على حياته، خشيت أن يدخل في حيز إلقاء النفس في التهلكة، فأقدمت على تنبيه الغافل، وإيقاظ النائم، وإعلام الجاهل، فأنقذت زوجها، وأخذت بيده إلى مكافأة الدنيا، ونرجو أن تكون سابقة لمكافأة الآخرة، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

ويأتي موقف طريف، وهو طبيعة المرأة وغيرتها، فخروج عكرمة منفرداً، متسللاً، في هدأة الليل، توجب الظنة، وقد شعرت أن الخطر في مثل هذا الظرف من المرأة، فشمرت ساعدها لتحمي حمى الزوجية، ولم يهدأ لها بال إلا بعد أن اقتنعت بالدليل على براءة زوجها، مما سكّن قلبها، وأزال أوهامها، وقضى على ظنونها.

والوقفة التي تمسك القدم، وتحجزها عن الاجتياز قبل أن تتمعن في جانب من جوانب هذه القصة وهو موقف الخليفة، فهو في حرصه على منفعة الناس لاحظ قلة الموارد التي تأتي من عكرمة، فجمع هذا مع ما قد يكون زوده به صاحب الخبر، فرأى في خزيمة البديل الأوفق لحكم هذه الجهة، ويكون بهذا أفاد شخصاً، وأخذ على يد الآخر، وهو في هذه الخطوة لم يغفل عن إشعاع رآه يضيء من داخل المجتمع؛ فهناك من تمتلئ نفسه بالخير، فيعطي العطاء الجزيل سراً؛ وهذا في نظره خُلُق سام يود أن يعينه على

بقائه، والاستمرار في طريقه.

عكرمة كان يتتبع أمور رعيته، ليسارع إلى تعضيد من يستحق التعضيد، ومساعدة من يحتاج إلى مساعدة، وهذه الفضيلة يهبها الله ـ سبحانه وتعالى ـ لبعض خلقه، والقصة التالية تري سير شخص جعل نصب عينيه رعاية مصلحة الناس، ووقف نفسه على من حوله من مجتمعه ممن هو في حاجة إلى مساعدة، لأنه يجد لذة لا يعدلها لذة، في أن يرى السعادة على وجوه الناس، والراحة في صدورهم، والطمأنينة، في نفوسهم، وهذه قصته:

«قال عمرو بن بحر الجاحظ عن إبراهيم بن السندي:

قلت في أيام ولايتي الكوفة لرجل من وجوهها، وكان لا يجف لِبْده، ولا يستريح قلمه، ولا تسكن حركته، في طلب حوائج الرجال، وإدخال المرافق على الضعفاء، وكان رجلاً مفوهاً:

خبّرني عن الشيء الذي هوّن عليك النصب،

وقواك على التعب، ما هو؟

قال: قد والله سمعتُ تغريد الطير بالأسحار، في أفنان الأشجار؛ وسمعت خفق أوطار العيدان، وترجيع أصوات القيان الحسان؛ ما طربت من صوت قط طربي من ثناءٍ حسن، بلسانٍ حسنٍ، على رجل قد أحسن؛ ومن شكرِ حرٍّ لمنعمٍ حرٍّ، ومن شفاعة محتسبٍ لطالبٍ شاكرٍ.

قال إبراهيم: فقلت: لله أبوك، لقد حُشِيت كرماً، فزادك الله كرماً.

فأي شيء سهلت عليك المعاودة والطلب؟

قال: لأني لا أبلغ المجهود، ولا أسأل ما لا يجوز؛ وليس صدق العذر أكرهَ إليّ من إنجاز الوعد، ولست لإكداء السائل أكرهَ مني للإجحاف بالمسؤول، ولا أرى الراغبَ أوجبَ علي حقاً للذي قدم من حسن ظنه من المرغوب إليه الذي احتمل من كَلِّهِ.

قال إبراهيم: ما سمعت كلاماً قط أشدَّ موافقة

لموضعه، ولا أليق بمكانه من هذا الكلام». [1]

هذا رجل امتلأت نفسه بالخير، يبحث عن الخير لمن يحتاجه، يبحث عنه عند غيره لغيره؛ فهو لا يعدو أن يكون أداة؛ أعمل نفسه في حقل النفع، وفي طريق الفائدة، تطوعاً منه، وكرم نفس؛ ولا يحس بالتعب، ولا يشعر بالعناء، من جراء الجهد الذي يبذله، لأن مردود هذا لذة لا تعدلها اللذات، التي تعود الناس على طلبها.

ويبدو أن ظله خفيف على المسؤولين، ممن يطلب منهم عون المحتاجين، فهو لا يلحف، ولا يوصل «الجحر أقصاه» معهم؛ إن أعطي على أول إشارة رضي، وإلا فإنه لا يضايق بالإلحاح، وإذا أعطي القليل رضي به؛ ولنتذكر هنا في هذا التصرف أنه لا يطلب لنفسه، وإنما يطلب من غيره لغيره.

وإضاءات الخير في أنفس الناس كثيرة، لا يحدها حد، ولا يحصرها حصر، وهي في كل زاوية من

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ١٧٣.

زوايا حياة الناس، وفي كل ركن من أركان سيرهم؛ وهي أنوار تشع في حلكة بعض الجوانب المظلمة في حياة بعض المجتمعات؛ فهذه ظلمة أرادت أن تنتشر، فسارع إشعاع من النور إلى تبديدها، والقضاء عليها في مهدها، قبل أن تكبر ويستفحل أمرها، ويكون لها ضحايا، وتنقطع بسببها صلات، ويتباعد إخوان، ويتعادى أصدقاء، والقصة تتضح فيما رواه الزمخشري في كتابه القيم «ربيع الأبرار»، حين قال:

«قيل لبعض قضاة البصرة: إن فلاناً يعضهك (يبهتك).

فقال: لكني أجعل صداقته ستراً لقلبي عن قبول سيئهِ.

فبلغ المأمون، فقال:

هذا والله عين الضن بالصداقة». [1]

إن النمام جاء عارضاً رمحه، يريد أن يوقع بين

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٤٣٨.

رجلين، والشيطان يسوطه بسوطه، ويسن له حرابه، ويسل له سيوف الإيقاع؛ ولكن لطف الله بالقاضي كان الجُنّة التي احتمى بها، فرد الكيد، وأحبط الدس، وقال قولاً أعجب رجلاً يعرف موازين القول، ومرامي الحكم. لقد جعل هذا القاضي الصداقة، بينه وبين من قيل أنه تكلم فيه بما لا يسره ترساً يتقي به ما قد يكون قاله، هذا إن كان قال قولاً لا يعجبه، وجعل هذه الصداقة دواءاً يعالج به ما قد يأتيه من هذا الصديق من داء.

إن منبع هذا الخير النفس الخيرة التي انطوى عليها صدر هذا القاضي التقي، وهو صدر عامر بالإيمان وضيائه، والإسلام وتعاليمه، ومعرفة حقوق الصداقة. وما يوجبه النضج في الحياة من مقابلة الدس والنميمة بما يضيع على مرتكبهما من الهدف، ويحبط عمله، ويخيب أمله.

ويشع نور خير آخر يلقي ضياءه على موقف كان بالإمكان أن ينبثق منه شر محطم، يقضي على ما بين

متصاحبين، والقصة هكذا:

«مر بخالد بن صفوان صديقان؛ فعرج عليه أحدهما، وطواه الآخر، فقال:

عرج علينا هذا لفضله، وطوانا ذاك لثقته». [1]

إن خالد بن صفوان بحث عما وراء التصرفين بعين الصديق؛ وعين الصديق الحق لا يأتي منها إلا الخير؛ إن العملين متناقضان، والمتبادر إلى الذهن أنه إذا كان أحدهما ممدوحاً، فالآخر مذموماً؛ ولكن حسن الظن عند خالد جعله يرى زوايا منيرة في كلا العملين؛ إنه مثل لو إن أحداً ناداه باسمه مجرداً لقال إنه لشعوره بالقرب مني رفع الكلفة، وإن أتى بلقبه، قال إنه أراد تكريمه، وهكذا النفوس الخيرة، دوحات باسقة، لا يأتي منها إلا الثمرة الناضجة.

وليست الصداقة تقاس بالزيارة والتودد، فقد يكون الصديق بعيداً ومنقطعاً عن التردد على صديقه، ولكنه عند الحاجة حاضر؛ وكم من مديم للزيارة

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٤٤٩.

يختفي عند الحاجة، ولا يُرَى له أثر عند اللزوم، وهذا الأعمش يذكر شيئاً من هذا فيما رواه الزمخشري عنه:

«قال الأعمش: أدركت أقواماً، لا يلقى الرجل أخاه الشهر والشهرين، فإذا لقيه لم يزده على كيف أنت؟ وكيف حالك؟ ولو سأله شطر ماله أعطاه.

ثم أدركت آخرين، إذا لم يلق الرجل منهم أخاه يوماً، سأله حتى عن الدجاجة في البيت، ولو سأله حبة من ماله لمنعه». [1]

لقد رسم الأعمش صورة واضحة المعالم لصلة الناس بعضهم ببعض، ما كان فيها الخير طافحاً، وما كان الخير فيها ضحلاً، ولكن الخير دائماً يغلب، وفي النهاية يكون مسك الختام في جانبه، لا يندم صاحبه، ولا يستخسر ما قد يكون بذله منه، فائدته فيه لا تفارقه، وإن غابت فترة فلابد أن تظهر في وقت لاحق، لأنها خير، والخير حق، والحق يبقى، ويزول الباطل مهما طال أمده، والقصة الآتية تُري

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٣٥٤.

شيئاً من هذا:

«أحب فقير غنياً في الله، ثم سأله حاجة، ثلاث مرات، فرده، والفقير لا يتغير عن محبته، فقال له في ذلك، فقال:

يا أخي، إنما أحببتك في الله، فلم يفسد ما بيني وبينك شيء من الدنيا.

فقاسمه الرجل شطر ماله». [1]

هذا الفقير عنده من الخير ما طفح به صدره، فأخذ يغدق منه على من أحب في الله، فأكرمه بطلب ما احتاج إليه منه، فلما رده، وتكرر هذا الرد، ظن الغني أن في هذا ما يغضب الفقير، لأن التصرف حتى هذه المرحلة لم يكشف عن مخزون الخير داخل نفس الفقير، فلما كشف له هذا المخزون الثَّرَّ من الخير، استحلب ما عند الغني من بذرة خير، وجعلته دون كابح يضحي بنصف ماله، تقديراً لهذه العاطفة الخيرة، التي وجد أنه بها أغنى من المال الذي جمعه؛

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٤٥٥.

وهكذا يطغى بريق الخير على كل ما حوله، ويسعد به من لامسته أشعته النبيلة.

ونعود للأصدقاء والتزاور بينهم، وما قد يأتي به انقطاع الزيارة من ظن غير حسن، وما قد يتبين أنه يخفي وراءه تأويلاً حسناً مثلما حدث مع خالد بن صفوان، مما ظنه بعض من حضر وفاءاً من أحد الصديقين، وجفاءاً من الآخر؛ وهناك قصة قريبة من هذه إلا أن أحد الصديقين هو الذي ظن بالآخر ظناً مشوباً بغير الحسن، فأزال الصديق هذا الوهم، وجاء بتعليل منير، بدد نوره ظلمة هذا الوهم، وأحل الطمأنينة محل الكدر، والقصة هكذا:

«كتب رجل إلى صديق له:

كتبت تشكو جفائي إياك بتأخري عن لقائك، وذاك إيثاراً مني لاستدامة مودتك على سروري بالأنس بك، مخافة استدعاء الملالة، بكثرة الزيارة؛ فتركت ما أحب فيك إلى ما أكره منك». [1]

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٤٦١.

تأخر صديق عن زيارة صديقه، وانقطع بعض الوقت عن المجيء إلى بيته، فظن أن هذا إهمال، أو تناس لأمر في نفس هذا الصديق؛ ولأنه يعز عليه، ولا يريد أن ينفصم ما بينهما من عرى هذه الصداقة، سارع يعاتبه، لعله بهذا يتدارك الأمر؛ وهذه نظرة خير منه؛ فجاءه الخير من صديقه يترى، إذ كتب إليه رداً على تساؤله، بأنه إنما قلل من الزيارة لتدوم المودة، ولتبقى المحبة، وهو أقدم على هذا رغم ما فيه من كره لهما معاً، ليضمن عدم ملل صديقه من تكرير الزيارة، وتتاليها؛ هنا لاقى الخير الخير؛ وتسابق الخيران في السعة والحجم؛ وليس غريباً عليهما، إذ لا تلتقي روحان، ويدوم اللقاء بينهما إلا إذا كانا من نبع واحد، حلو الطعم، صافي اللون.

ونعود إلى الضياء الذي ينبثق من مراعاة الجار، والحفاظ على راحته، والسعي في مصلحته، وتقديمها، وأمر الجار مجال لتصارع الخير مع الشر؛ فالإحسان إليه خير، والإساءة شر، وبعضهم يلحق بباب

الشر في هذا المجال الكف عن الخير والشر :

«يقول الحسن البصري :

ليس حسن الجوار كف الأذى، ولكن حسن الجوار الصبر على الأذى .

وجاءته امرأة محتاجة، وقالت :

أنا جارتك .

قال : كم بيني وبينك؟

قالت : سبعة أدؤر .

فنظر الحسن، فإذا تحت فراشه سبعة دراهم، فأعطاها وقال : كدنا نهلك» .[1]

لقد فوجئ الحسن ـ رحمه الله ـ أن له جارة تحتاج إلى أنها تسأل وتستجدي، وعدّ عدم معرفته بحالها أمراً جللاً، يؤدي إلى الهلاك؛ إذ أن مبدأه أن يحسن إلى جاره، والإحسان إلى الجار في نظره لا يقتصر على كف الأذى عنه، وإنما يتعدى إلى تفقده، ومعرفة أحواله، ورتق الفتق في حياته إذا حدث، وسد

---

(١) ربيع الأبرار : ١/ ٤٧٧ .

النقص إذا حل به، وإزالة الكربة عنه، ومراعاة أموره كلها، ما جل منها وما دق، وهذا ما اشتهر به كعب بن مامه، إذ يقول عنه الزمخشري:

«كان كعب بن مامه، إذا جاوره رجل، قام له بما يصلحه وأهله، وحماه ممن يقصده، وإن هلك له شيء أخلفه عليه، وإن مات وَدَاه؛ فجاوره أبو دواد الأيادي، فزاده على عادته؛ فكانت العرب، إذا حمدت جاراً، قالوا: كجار أبي دواد:

قال قيس بن زهير:

أُطَـوِّفُ مَـا أُطَـوِّفُ ثُـمَّ آوِيْ
إِلَـى جَـار كَجَـارِ أَبِـي دُوَادِ»[1]

ومثل هذا الضياء في حسن معاملة الجار، تأتي ظلمة الإساءة إليه، ولن نأتي بقصة في هذا، لأن اللذة سوف تكون مفقودة منها، والمعاناة في قراءتها وكتابتها مؤكدة، ولكننا سوف نأتي بكلمة قيلت في التراث، ترسم بشاعة الإساءة إلى الجار:

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٤٧٩.

«استعرض أبو مسلم ـ صاحب الدولة ـ فرساً محضيراً، فقال لأصحابه:

لِمَ يصلح هذا؟

فذكروا السباق، وصيد حمر الوحش والنعام، وإتباع المنهزم، فقال:

ما صنعتم شيئاً، ما يصلح إلا للفرار من جار السوء». (١)

لقد أجاد أبو مسلم الخراساني رسم بشاعة الشر يتقمص نفس الجار، فيمطر من شآبيبها على جاره؛ فينغص عليه عيشه، بالضوضاء والضجيج، أو بالأذى يضعه في طريقه، أو بتكشف محارمه، أو بالتجسس عليه، أو بالتصنت على ما يقول؛ هنا يكون الفرس السريع أداةً صالحة للهرب من هذا الجار المؤذي.

وما دمنا قد مهدنا بهذا القول عن الشر، فلعل القارئ يتحمل صورة الشر الذي تَحْمِله هذه القصة الآتية، إن صح وقوعها، لأن ما يخص القبائل،

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٤٧٩.

والتناحر بينها، والتطاحن، وما تلى ذلك من وضع أقوال فيها لَمْز مرّ، وغمز يَخز، وسب يجرح، وتنقص مؤذٍ، وهجو لاذع، وادعاء كاذب، وتلفيق مضل؛ يحتاج قبل القبول إلى تمعن وتروٍّ.

القصة الآتية جانبُ الشر فيها واضح، أدى إلى هلاك مسلم؛ نجاته فيها أجر، لو وفق الله حامل الشر هذا، ولكن ظلمة السوء فيه غطت عينيه عن أن تريا نور العدل والإخاء، الذي يجب أن تتصف به نفس المسلم، ليس تجاه أخيه المسلم في مثل هذا الموقف، وإنما تجاه غير المسلم أيضاً:

«قال ابن عياش: أخبرني رجل من الأزد قال:

كنا مع أسد بن عبدالله بخراسان، فبينا نحن نسير معه، وقد مد نهرٌ، فجاء بأمر عظيم، لا يوصف؛ وإذا رجل يضربه الموج، وهو ينادي:

«الغريق! الغريق!»

فوقف أسد، وقال:

هل من سابح؟

فقلت : نعم .

فقال : ويحك ! الحق الرجل .

فوثبت عن فرسي ، وألقيت عني ثيابي ، ثم رميت بنفسي في الماء ؛ فمازلت أسبح ، حتى إذا كنت قريباً منه قلت :

ممن الرجل ؟

قال : من بني تميم .

قلت : امض راشداً .

فوالله ما تأَخرت عنه ذراعاً حتى غرق .

فقال ابن عياش : فقلت له :

ويحك ! أما اتقيت الله ! غرّقت رجلاً مسلماً !

فقال : والله لو كانت معي لبنة لضربت بها رأسه» .[1]

إن المرء لا يكاد يصدق أن هناك صورة من الشر بهذه البشاعة ، ولا رسماً للسوء أقبح من هذا الفعل ، فلم يَكْفِ هذا الأزدي أن ترك هذا التميمي المسكين يصارع الموج ، وراح يسأله عن قبيلته ؛ هل كان

(١) عيون الأخبار : ٣/ ١٢٩ .

العداء بين القبائل في ذلك الوقت حاداً إلى هذا القدر من التنصل من الدين، وما يأمر به من التآخي، وما يحث عليه من التواصي، وتقوية اللُّحمة بين أفراد المجتمع المسلم؟ وما قساوة هذا القلب الذي جعل هذا الأزدي يرى الرجل يتلاشى أمامه، وليس بينه وبينه إلا ذراع؟

ولما عوتب لم يخجل أن يجيب بجواب يقطر قلة حياء وتبجح؛ وما كان ضره لو تعذر أنه كان متعباً، أو خاف أن يغرقه المنقَذ، لأنه أكبر منه جسماً مثلاً؛ بدلاً من المجاهرة بالسوء، والمفاخرة بالشر، والمباهاة بالاجرام!

إن بشاعة القصة تجعل المرء يقف بين المصدق والمكذب، خاصة لّما يعلم أن هؤلاء قد يكونون مجاهدين في طريقهم إلى ثغر من الثغور؛ وهم في بلاد غربة، ومهما بلغت العداوة القبلية بينهم لا تصل إلى حد أن يتمتع أحدهم برؤية الآخر يموت؛ أين الخوف من الله، القادر على أن يحل بهذا الشرير

ما حل بالآخر، فيجازيه غرقاً عن غرق، في وقت عسرة، لا يستطيع إنقاذه من قاعها وعمقها إلا القادر على كل شيء!

ويكمن الشر في الشماتة بما يصيب الأعداء من المصائب، وما يتعرضون له من نكبات؛ ويكمن الخير في الصبر عليها، والاحتساب للأجر عند الله عند وقوعها؛ إن في الشر ظلمة في النفس، وفي الصبر نور في الصدر، وشتان بين هذين الضدين؛ وهناك قصة رَسَمَت صورة الشر في شماتة قوم بقوم لما حل بهم، وصبر قوم على البلوى، وعلى الرد على الشامتين، فآبوا بالحسنيين، في نيتهم، وفي عملهم، وفي هدفهم، والقصة كمايلي:

«بلغ عمرو بن عتبة شماتة قوم به في مصائب، فقال:

والله، لئن عظُم مصابنا بموت رجالنا لقد عظُمت النعمة علينا بما أبقى الله لنا: شبانا يَشُبُّون الحروب، وسادة يُسْدُون المعروف؛ وما خلقنا ومن شمِت بنا

إلا للموت» .[1]

والإنسان يسعى إلى خير، فيأتي ما يعوقه عنه، أو يؤخره عن نيله، فيسوؤه ذلك، إلا الذين قد ملأ الله نفوسهم بالخير، فهم يقبلون ما يأتي من ربهم في هذا، توكلاً منهم عليه، في أنه أعلم منهم بما ينفعهم، فلا يزعجهم أن يصرفهم عما كانوا يتطلعون إليه؛ وهذا الأحنف بن قيس، وهو شيخ قومه، ورئيسهم، والمبجل عندهم، جليس الخلفاء، وقائد الجيوش، يأتي على عادته ليدخل إلى دارٍ، فتأتمنه امرأة على قربتها، يقعد عندها حافظاً لها حتى تعود، فلا يفرط في الأمانة، ولا يتراخى في الوفاء بالوعد؛ ويؤجل الدخول إلى الدار حتى تحضر المرأة التي اختارته، دون معرفة بمقامه، لتضع عنده الأمانة، فكانت في حرز مكين، والقصة كمايلي:

«قال الأصمعي:

جلس الأحنف على باب دار، فمرت به ساقية،

(١) عيون الأخبار: ٣/ ١٣٠.

فوضعت قربتها، وقالت:

يا شيخ، احفظ قربتي حتى أعود.

ومضت فأتاه الآذن، وقال:

«إنهض».

فقال: إن معي وديعة.

وأقام حتى جاءت». [1]

الخير متغلغل في صدر الأحنف، إذ كان بإمكانه وقد توقع قرب الإذن، أن يعتذر من المرأة في الحفاظ على القربة؛ أو قد يطلب من غيره أن يقوم مقامه، وقد جاء الإذن، إلا أنه ـ وقد رضي أن يؤتمن ـ لم يرد أن يتخلى عما أراد، ولو أنه فعل لما وصلت إلينا هذه القصة، لأنها تكون غير حادثة!

ومن صور الخير الجميلة ما يأتي من الحلم، والسيطرة على النفس، ولجمها عن الغضب، وإبعادها عن مجاراة السفيه، أو الرد على التجني؛ واختيار المسامحة مسلكاً، وعفة اللسان واليد نهجاً وسبيلاً، ما ذكره

(١) عيون الأخبار: ١/ ٣٧٦.

الأصمعي في القول الآتي :

«قال الأصمعي :
بلغني أن رجلاً قال لآخر :
والله لئن قلت واحدة لتسمعنّ عشراً .
فقال له الآخر : لكنك إن قلت عشراً لم تسمع واحدة» .[1]

هذا يرمي الحصى ، وهذا يستغفر له ، وهذا يريد قتل أخيه ، وهذا يريد حياته ، هذا يعض اليد ، وهذا يصافحها ؛ الشر واضح والخير واضح ، وما التوفيق إلا من الله ، وبيده جلَّ وعلا !

وصورة جميلة من صور الخير البالغ ، فيها الضياء باهر ، وفيها النور ساطع ؛ إن تدبرت ما جاء فيها وجدت أنه لا يأتي إلا من ذوي العزم ، الذين أعطاهم الله القدرة على ضبط النفس ، وحكمها ، ومسك رسنها بيد من حديد ؛ لا تستفزهم كلمات جوفاء تذروها الرياح ، بمجرد أن نطق صاحبها ، ويرويها

(١) عيون الأخبار : ١/ ٣٩٩ .

الراوون، ويكتبها الكاتبون، وينشرها الوراقون، وهم يتلذذون بها، وكأنهم يعلمون أننا كذلك سنجد طعمها، وسنرويها، فهي تستحق ذلك، وتستحق أن يؤخذ صاحبها قدوة حسنة، والقصة التي جاءت فيها هذه الصورة الجميلة، هي:

«قال الأصمعي:

بلغني أن رجلاً شتم عمر بن ذر، فقال له:

يا هذا، لا تغرق في شتمنا، ودع للصلح موضعاً، فإني أَمَتُّ مشاتمة الرجال صغيراً، ولن أُحْيِيَهَا كبيراً، وإني لا أكافئ من عصى الله فيّ بأكثر من أن أطيع الله فيه». (١)

هذه الدوحة التي أرستها جذور خير عميقة، بدأت منذ الصغر، لا يمكن لريح عابرة أن تهزها؛ وقد جادت بثمرة يانعة، لم تبخل بها على من أراد لها الأذى؛ وقد نبه عمر بن ذر شاتمهُ إلى أمر غفل عنه، وشأن لم يتنبه له، وهو أن الناس يحتاج بعضهم

(١) عيون الأخبار: ١/ ٣٩٩.

بعضاً، وهو يحتاج إلى أن يبقي باباً من أبواب الخير مفتوحاً، يدخل منه في يوم من الأيام عندما لا يكون بالحال التي هو عليها اليوم، فاليوم الأمر يقتضي، في نظره، الشتم، وغداً قد يحتاج للمدح!

ثم عبقت الرائحة التي تحكم الأمر كله، والتي غذت هذه الروح الإسلامية عند عمر بن ذر، وجعلته بهذا العقل والحلم والنبل، وهذه الرائحة فاحت من زهرة الدين التي وضعها أمامه، ووردة الإيمان التي خالطت لحمه ودمه، لقد كانت أوامر الله ـ سبحانه وتعالى ـ ونواهيه أمامه، تحكم أعماله، وتهدي أفعاله؛ فإذا كان خصمه عصى الله بما فعل، ونسي واجب المسلم نحو أخيه، وما يجب عليه من البعد عن الشتم والسب، والحقد، والحسد، والغيبة والنميمة، فإن عمر لم ينس هذا، بل كان طوال الوقت أمام عينه، يرعاه بكل جوارحه، ولا يغفل عنه طرفة عين؛ وهذا هو الفرق بين الرجلين، رجل نزق، ورجل عاقل، رجل شرير، ورجل خير، ورجل

مؤذ، ورجل مفيد، ولعمر بن ذر منا الدعاء بقبول عمله هذا، وغفر الله للثاني.

ومن المواقف الخيرة، التي قوبل فيها الشر بالخير، بعد تدبر وتفكير، وانسياقاً مع طبيعة وتعود، ما جاء من الأحنف بن قيس، وهو من عرف بالحلم، الذي كان يقول إنه تعلمه من قيس بن عاصم المنقري، أحد الأفذاذ في هذا المجال؛ والأحنف أعطى لشاتمه في هذه القصة نصيحة ثمينة، كانت عين الصواب، وحذره من أن يقع في يد من هو مثله في السفه:

«شتم رجل الأحنف، وجعل يتبعه، حتى بلغ حيّهُ.

فقال الأحنف: يا هذا، إن كان بقي في نفسك شيء فهاته، وانصرف لا يسمعك بعض سفهائنا، فتلقى ما تكره». [1]

وكأن الأحنف يستحضر في ذهنه قول عبدالله بن عمر، بما معناه: «لقد ذل من ليس في قومه سفيه»،

(١) عيون الأخبار: ١/ ٤٠٢.

لأن الحلم مع من لا يقدر الحلم فيه ذلة، مثلما أن البذرة الصالحة في الأرض السبخة لا تنبت.

وبرودة الأعصاب أحيانا دواء ناجح مع بعض السفهاء، ومع الشاتمين، فكأنك تصب عليه ذنوباً من ماء بارد، بعد أن تكون ناره متأججة، وغالبا ما يفاجأ بالرد، كمن ضرب دون سابق إنذار على وجهه، ومن أمثلة ذلك ما حدث لبعض الخيرين، وهو الحسن البصري، مع شاتم مفتر، والحسن ـ رحمه الله ـ صياد حسنات، ومتى رأى إحداها مقبلة فإنه يهيء شباكه لها، وينصب فخه لصيدها؛ ولا تهمه الدنيا، ولا يعبأ بها، لنعيمها الزائل؛ وإنما همه في الآخرة، ونعيمها المقيم؛ والحسن في رده على شاتمه لم يزد عن الحقيقة، ولكن ليس كل الناس يوفق لمعرفة الحقيقة، رغم أنها تكون أحياناً قريبة تحت أنف المرء، ولكنه يعمى عنها؛ وعندما ينبه إليها يدهش، وتكون له كالسهل الممتنع، وهذا قول الحسن رداً على الشتم:

«شتم رجل الحسن، وأربى عليه.

فقال له: أما أنت فما أبقيت شيئاً، وما يعلم الله أكثر». [1]

لعل الحسن تركه يقول ويكثر، حتى أربى قوله وزاد، حتى يكون أجر الحسن عند الله أكثر؛ ولم ينبهه إلى نقص معلوماته إلا بعد أن نضب ماء بئر شتائمه.

هذه بعض ملامح الخير المضيئة، وبعض ملامح الشر المظلمة، وما هذه إلا قصص محدودة، وحوادث معينة، والتراث مليء بما دوّن من هذا وذاك، ومن السهل الرجوع إليه في بعض هذه المراجع المشار إليها.

***

(١) عيون الأخبار: ١/ ٤٠٢.

اللباس في التراث

اللباس هو أول مظهر حضارة اقتضته طبيعة الإنسان، فهو ريشه الذي يتدفأ به حين يحتاج إلى الدفء، وهو ستر عورته حين لا يضطره البرد إلى التفكير في اللباس؛ بدأ أمره ساذجاً متواضعاً، المهم فيه أن يؤدي الغرض بأقرب طريق، وأسهل سبيل، وبوسيلة في متناول اليد، لا تقتنص، ولا يجهد المرء في البحث عنها؛ ولعل بدء اللباس كان ورق بعض الشجر، وجلد الحيوان، فكانت هاتان الوسيلتان تؤديان الغرض لسنين وسنين، حتى دب التطور في عروق حضارة بعض المجتمعات؛ واكتشفت، بترقي العقل، فائدة بعض المواد في بعض البيئات، فهيئت بطريقة تجعلها تؤدي الغرض بأوفى من الوسائل الأولى.

ويبدو أن هذا أخذ زمناً وحقباً الله بها عليم، وتباعُد الأماكن بعضها عن بعض، في أرض الله الواسعة،

ووجود مواد في هذه الأرض تختلف عن المواد في تلك الأرض، واختلاف عقول الناس هنا وهناك، وما قد تكون الصدف أتت به، مما يعتبر عثوراً غير مقصود على وسيلة نافعة، تحسن من اللباس ومظهره، جعلت سكان كل أرض يختلفون فيما اكتشفوه من مواد اللباس عن غيرهم؛ وهذا الاختلاف، عند معرفة ساكن أرض أخرى له، يوحي له بالاقتباس في المادة، أو في الطريقة.

هذا جانب من جوانب مراحل التطور في تحسين مادة اللباس ومظهره، وجانب آخر يأتي من إعمال العقل، وإعطائه الفرصة للتدبر والتبصر، ومراقبة الطبيعة، والتفكير فيها بعمق، والمقارنة بينها، والخروج من ذلك بنتيجة تنفع الإنسان، وتليق به، وما حباه الله به من ميزات تعلو به عن الحيوان الأبكم.

ومن أبرز مظاهر التدبر والتبصر مراقبة الإنسان للحيوان والطير والحشرات في حياتها؛ وما تأتي به للمحافظة على حياتها، وحياة بنيها، وما تبتدعه بما

تمليه عليها غريزتها من وسائل فيها ـ بإذن الله ـ بقاؤها، وحسن عيشها؛ وهذه المراقبة باب واسع، يتيح نظرة بعيدة وعميقة إلى عالم لا حدود لما فيه، وما يأتي به هذا العالم من حيل للعيش والبقاء والتكاثر.

والإنسان الأول في بيئته المتواضعة كان عنده الوقت للدراسة لما حوله، والتأني في ذلك، إذ أن مشاغل الحياة محدودة، ولا تأخذ عليه وقتاً؛ فهو إذا كان عند غنمه ونظر بتمعن إلى الأرنب، وهي تأخذ من فروها ما تهيؤه لأبنائها ليكون فِراشاً وثيراً لهم عندما يولدون، وهم لا يعدون أن يكونوا قطعة لحم طرية، من السهل أن تأكل الأرض منها ولا تدع؛ يمكن أن يوحي إليه هذا بفكرة التقليد لما تقوم به الأرانب؛ وقد يفتل صدفة ندفة صوف سقطت من ظهر الجمل، فيؤدي به هذا إلى ما هو أبعد، فيوائم بين فتلة وفتلة، ثم يجد أنه انفتح له باب واسع، يسد نقصاً عظيماً كان يعاني منه.

وقد يقفز مجتمع قفزة عالية لمراقبة دودة القز وهي تنسج خيوط الحرير، ملبية بذلك حاجة مهمة في

حياتها، فتوحي له بتقليدها، والاستفادة من المادة التي استعملتها، وقبل ذلك أنتجتها؛ والتجربة المتتالية تتيح للإنسان التطور والإتقان، ويستمر هذا مع الزمن، ومع الفكر الجديد الذي يأتي مع كل جيل جديد، يبدأ حيث انتهى الجيل السابق.

والدلائل يمكن أن تتبع في الدراسات المختلفة للمجتمعات البدائية، ففيها إضاءات متقطعة استفاد الباحثون منها مما وجدوه مما بقي من مخلفات القرون الأولى، وقد تشفي الغليل في جانب، ولا تشفي في جانب آخر، ولكنها تعطي لمحات، وقد نرى شيئاً من هذا في بعض النقوش، وما يظهر في الصور المرسومة من لباس.

وتعقد الأمر مع تقدم الحضارة، فلم يعد اللباس يقتصر على ما يُجزى، ولا على ما يُفيد، ولا على ما يُبعد البرد، أو يَكفي لستر العورة؛ ولكنه دخل في طور المباهاة، والمفاخرة، وأصبح المظهر في بعض الأحيان أهم من عمل اللباس الرئيس، فجمال

الثوب مقدم على الوقاية من البرد؛ وإذا صح هذا مع بعض الرجال، فهو مع النساء أشد وأقوى؛ ولا لوم من أحد عليهن، لأن الجمال بضاعتهن الأولى، وعن طريق إتقانها يأتي الربح الوفير!

وليس هذا هو الجانب الوحيد في التعقيد، بل دخل الأمر حيزاً آخر إذ أصبح للغني لباس، وللفقير لباس، ولصاحب تلك المهنة لباس، وصاحب المهنة الأخرى لباس، وهذه مهنة نظيفة، وتلك مهنة يتسم العمل فيها بعدم النظافة، وهذا يقرر أمر اللباس؛ وأصبح للعلماء لباس، وللحكام لباس، وللسادة لباس، وللعبيد لباس؛ وأصبح للإقامة لباس، وللسفر لباس، وللعيد لباس، ولغيره ألبسة مختلفة، وللزواج لباس، وللطهار لباس، وللحرية لباس، وللسجن لباس.

وأصبح الناس في بعض المجتمعات مثل مجموعة من الطيور بريشها الزاهي، بألوانه المختلفة، فهذه ثياب بيضاء، وهذه ثياب سوداء، وهذه خضراء،

وهذه حمراء، وهذه زرقاء، وهذه خليط من هذا وذاك. فيأتي بعض الناس وكأنه طاووس يختال في أبهى الألوان!

وعندما نقرأ في كتب التراث نجد ما يدهشنا عن اللباس، واختلافه، خاصة في زمن الأمويين والعباسيين، ومن جاء بعدهم؛ ولعل هذا راجع إلى ما أوجده الإسلام عندما وحد بين أقطار كانت متباعدة، وبعضها كان متحارباً، فالإسلام سهل أمر اتصالها، وتواصلها، فصار هناك امتزاج في الأذواق، وامتزاج في مواد اللباس، وامتزاج في طرق التفصيل، وأصبح هناك تفنن في بعض المدن، بحضارتها القائمة، ووجد الخياطون، ومن يضع طراز اللباس، قبولاً لكل جديد، وكان الأمر يتغير بسرعة، فيدخل الجديد في المجتمع، ولا يخرج القديم بسهولة، فيبقى هذا وهذا وربما جاء منهما مزيج فيما بعد.

وجاء الاهتمام باللباس، والتنوع فيه، لامساً لكل جزء من أجزائه، فالعمامة محل اعتناء، ولها

مقامها في ذهن لابسها، والناظر إليها، والحذاء أخذت النظرة إليه تتردد بين الاستعمال، والاستفادة التامة منه، والمنظر وإتقانه، وتوفر الجمال فيه، وانسياقه مع اللباس، وصاحب اللباس، ومقامه في المجتمع، والمهنة التي يزاولها، واللباس الأساس الذي على الجسد مباشرة، وما يعلوه من أنواع الألبسة، للرجال أو النساء، كانت هي مسقط الاهتمام، ومركز العناية، وتكاد أنواعه لا تحصر، وهذا جعل أي شيء منه يقترح يقبل.

وقد كُتبت في اللباس كتب قديمة وحديثة، وجاءت فصول في بعض الكتب عن اللباس، لأن الأمر من الأهمية بحيث لم يغب عن أذهان الكتاب والأدباء؛ ومع هذا فالصورة لا تزال ناقصة، ولهذا لا يجد الانسان أن من العدل أن نلوم بعض الأفلام الغربية، أو العربية، التي تأتي بصور مضحكة أحياناً للباس في القصص التي تخرج أفلاماً ومسلسلات.

وسوف نسوق بعض النصوص التي وردت في

اللباس أو القصص التي جاء فيها ذكر اللباس، أو لعب اللباس دوراً فيها، ونؤمل أن يكون من عرض ذلك تتكون فكرة متكاملة عن بعض جوانب هذا الموضوع، المتشابك الجوانب، المترامي الأطراف فيما كتب عنه.

يلعب اللباس دوراً في الشهرة بأنواعها المختلفة، فقد يختاره شخص ليبين غناه، ومقامه في المجتمع، فيأتي اللباس بفخامته، وغلاء قيمته، معلناً عن صاحبه، دَالاًّ على تميزه، ومؤدياً الغرض منه؛ وقد يلجأ إليه شخص ليبين فقره وحاجته، ليستدر به العطف، ويستنزل شآبيب الكرم، ويستنزف الأموال من الجيوب؛ وقد ينتقيه إنسان حتى يقال عن زهده وتقشفه، فينال الاحترام الذي يعطى عادة للزاهد، ويحظى بالمنزلة التي نصب شباكه ليصطادها، والنص التالي فيه من الدلالة ما يصله بهذا الأمر:

«قال معمر: رأيت قميص أيوب يكاد يمس الأرض، فكلمته في ذلك، فقال:

إن الشهرة فيما مضى كانت في تذييل القميص، وإنها اليوم في تشميره». [1]

هنا نحتاج إلى وقفة لنرى عادة متبعة، أوحى بها الدين، واقتضتها الفضيلة في عين أتباع هذه العادة، وهي عدم إسبال اللباس، لأن الإسبال قد يكون من مظاهر التبختر والكبرياء، ومن مستلزمات الخيلاء، لأن هذا هو الدأب في الجاهلية، فجاء الإسلام ليقطع دابر هذه العادة.

لهذا معمر، وهو رجل دين، فزع عندما رأى رجل دين آخر في قميصه زيادة ربما أدخلته حدود المحذور، فلم يصبر على ما رأى مخالفاً للشرع في نظره، وصارح برأيه أيوب؛ ولكن أيوب فاجأه بجواب رصين، وتبين من جوابه أنه لم يكن غافلاً عن طول قميصه، وإنما تعمد هذا الطول، لأن له رأيا بناه أيضاً على قاعدة يرى أن فيها فضيلة، واتباعاً للطريق السوي؛ فهو رأى أن الناس في الماضي كانوا

(١) عيون الأخبار: ٤١٥.

يلجؤن، طلباً للشهرة، إلى تذييل القميص؛ مما أوجب النفور من هذا، ولكنهم اليوم صاروا يشمرونه، طلباً للشهرة، ليقال إنهم متدينون؛ فهم دخلوا حدود النفاق، فنفر أيوب من هذا، واقترب من الحقل الثاني، لأن الأمان أصبح فيه، والسلامة في تبنيه.

والإسدال من الأمور التي تشتد الحملة على أصحابها بين آن وآخر، لأن فيها من الجاذبية للشباب ما يجعلها لا تغيب عن المجتمعات كثيراً، فهي إن غابت لفترة ما عادت مرة أخرى للظهور، لينبري لها من يعظ ضدها، ويبصر الناس بمزالقها، وهذه بعض الصور التي جاءت عن هذا في التراث وكيف تمت مقابلتها:

«قال أبو مطر النضري:

خرجت من باب المسجد، وعليّ إزار طويل، ربما عثرت به، وإذا بمن يناديني من خلفي:

أي بني، ارفع ذيلك، فإنه أبقى لثوبك، وأتقى لربك، وخذ من شاربك، إن كنت مسلماً.

فنظرت، فإذا هو علي ـ رضي الله عنه». [1]

ومن غير علي يمكن أن يدعو إلى ربه بحكمة وموعظة حسنة، إن كلمة «أي بني» المفتاح السحري، الذي فتح قلب هذا الشاب لأن يسمع ويصغي، ويقبل هدية النصيحة هذه؛ وإن هذا اللين في القول، والمنطق في الحجة، جدير أن يلمس شغاف أقسى القلوب.

وعندما طلب علي من أبي مطر أن يرفع من ذيل إزاره، الذي كاد أن يتعثر به، من طوله المفرط، أَتْبع ذلك بالفائدة التي تأتيه من رفع الثوب، لأن العاقل يسعى لإطالة عمر إزاره، وإلا فليس هو جدير بالنصح. فإن لم يكن عقله كاملاً فإن دينه يتطلب رفع الإزار، لأن في هذا تقوى الله، ومن يجرؤ أن يعصي الله؟

ثم زاد له في ميزان النصح ما ثَقَّل الكفة، فلفت نظره أن شاربه قد زاد عن الحد المقبول، ودخل في

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٨٧٠.

حدود ما يأتي بالضرر عليه، وعلى من ينظر إليه، فشاربه إذا طال شاركه أكله وشربه، مع ما قد يكون علق به، مما قد لا يمكن تفاديه مما يستقذر؛ وأيضاً من ينظر إليه يتأذى من شارب مخالف للشرع، الذي يحث على حف الشارب.

ويبلغ العقل منتهاه، وتبلغ الحكمة أقصى مدى لها عندما يعزم رجل على كسب هدي إنسان على خطأ، فيدخله حيز القبول والرضى، بطريقة متئدة، فيها شباك لصيد القلوب، بدلاً من تنفيرها، وكسب لها بدلاً من أن يخسرها، والقصة الآتية تبين ما يأتي به اللين، وما كان يمكن أن تضيعه الغلظة، وتقضي على كسبه الخشونة:

«مرّ بِصِلة بن أشيم رجل قد أسبل إزارهُ، فأرادوا أن يأخذوه بألسنتهم، فقال:

دعوني أَكْفِكُمُوه.

فقال: يا ابن أخي، لي إليك حاجة.

قال: وما هي؟

قال: ترفع إزارك.

قال: نعم، ونعمة عين.

ثم قال: أهذا كان أمثل، أم أخذكم إياه بألسنتكم». [1]

بل هذا أمثل، وأمثل، وأمثل، والنتيجة تؤكد هذا وتؤكد أن اللين يفل الحديد، ويسهل الصعب.

ويبدو أن عادة التظاهر بالدين قد انتشرت في بعض فترات من الحقبة الإسلامية، فلفت هذا أنظار الخيّرين من المسلمين، فأنكروه بطرق مختلفة، بعضها بالقول، وبعضها بالفعل؛ ومما زاد الأمر حدة انتشار الصوفية ولباسهم الخشن المتقشف، وما يأتي منهم من أعمال تؤكد تدينهم الزائد عن الحد المرسوم في تعاليم الدين الإسلامي، والمغالاة في هذا إلى حد التنفير من الدين، والقول الآتي فيه ملاحظة عميقة على بعض من ارتدوا لباس التقشف، ليستدل به على تدينهم الزائد، وعزوفهم عن الدنيا، كسباً للدنيا في بعض مجالاتها:

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ١٤١.

قال ابن السماك لأصحاب الصوف:

والله إن كان لباسكم هذا موافقاً لسرائركم لقد أحببتم أن يطلع الناس عليها، وإن كان مخالفاً لها فقد هلكتم». (١)

لقد عرف ابن السماك هؤلاء الناس، فحاصرهم بالمنطق المحكم، الذي صدر حكمه فيه عليهم؛ فاللوم واقع عليهم في أي من الحالتين اللتين حصرهم فيهما، فلا مخرج لهم إلا من أحد هذين المخرجين، وكلاهما يؤدي إلى الهلاك؛ وعلى هذا فهم مدانون، ولا منجا لهم إلا في أن يسلكوا الطريق الذي سلكه الناس المعتدلون، أصحاب النية الطيبة، وَمَن سرائرهم توافق ظواهرهم.

ولهذا هرب أحد الفضلاء من أن يظن فيه ظن سيء، مثل هذا، وأبان في قوله ما يؤكد أن عمله في حالته التي لوحظ فيها، عمل صالح، لا دنس فيه، ولا تظاهر، ولكنه كان مضطراً إليه، وهذا الاضطرار

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٤١٩.

أوقعه في حيرة بين أمرين كلاهما مرّ؛ لهذا ترك الأمر دون أن يسعى لإزالة اللبس، لأنه لا مقدرة له عليه:

«دخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم في مدرعة صوف، فقال له قتيبة:

ما يدعوك إلى لبس هذه؟

فسكت.

فقال قتيبة: أكلمك فلا تجيبني!

قال: أكره أن أقول زهداً، فأزكي نفسي، أو أقول: فقراً، فأشكو ربي». [1]

محمد بن واسع رجل عرف بفضله، وورعه وتقواه، مجاهد في سبيل الله، لم يكن يفارق الثغور في بعض مراحل عمره، وكانت مشاركته للحروب يُتطلع إليها من قبل القواد، لما يعرفونه من صلاحه، وإخلاصه، ولما يرجون من الله أن يستجيب دعاءه؛ ولهذا استغرب قتيبة أن يرى عليه ما قد يدخله حدود

(١) عيون الأخبار: ١/ ٤١٩، في ربيع الأبرار: ١/ ١٠ قائلها محمد بن عبدالرحمن القرظي.

الإثم، ومناطق اللغو. وقد يكون الفقر أجبره على هذا اللباس، فلم يرد أن يزيله بطلب الرفد، لأنه يرى في هذا شكوى الله على عباده، وقد يكون لبس الصوف، لأنه أنفق أمواله في سبيل الله، وفي طرق التقوى المختلفة، فافتقر، حتى لم يجد إلا الصوف، فهو لا يريد أن يغطي فقره بادعاء الزهد، فيزكي نفسه، وهذا مخالف لنص القرآن.

وشهر اللباس لصاحبه كان شغل بعض الناس الشاغل، لأن هناك من يرى أنه من الخطأ أن يكون الإعلان عن التميز عن طريق اللباس، ولهذا أكثروا من الحديث عن الشهرة عن طريقه، وجاء كثيراً على ألسنتهم، وحكم بعض تصرفاتهم، واستوجب الأخذ والرد، والسؤال والجواب، فجاء من ذلك أفكار جزله، وآراء عميقة، ومن ذلك النص التالي:

«قال الأصمعي: أخبرني بعض أصحابنا، قال:

جاء سيار أبو الحكم إلى مالك بن دينار في ثياب اشتهرها مالك، فقال له مالك:

ما هذه الشهرة؟

فقال له سيار: أتضعني عندك أم ترفعني؟

قال: بل تضعك.

قال: أراك تنهاني عن التواضع.

فنزل مالك، فقعد بين يديه». [1]

الحديث دار عن الشهرة، ولباس ما يلفت النظر، ويستوجب حديث الناس، ومالك لا يريد أن يكون سيّار عرضة للنقد والقيل والقال، ولا يريد أن تلاك سمعته، ولهذا سارع، فأبدى له دهشته، وأظهر له استغرابه، شفقة عليه، وحميّة؛ وأخذ مالك الأمر من جانبه الفكري، فاختار سيّار أن يكون الرد عن جانب اللفظ ومراميه، وسيرّ الحديث إلى لفظ التواضع، وهنا ربط الفرس، وبين أن هدفه التواضع، أو بالأحرى الابتعاد عن الكبر والخيلا، وهي أمور قد تأتيه من اللباس الذي لم يلبسه. هذا جعل مالكاً يقدر له عمله، وينزل عند قدميه تواضعاً لهذا المتواضع.

(١) عيون الأخبار: ١/ ٤١٥، وربيع الأبرار: ٤/ ١٣.

وهنا، وفي أمثال هذا الموقف ترجح النية، فتغلب المظهر، لأن الأعمال بالنيات، وهي عماد الأمور، والمحور الذي تدور عليه، وتسير في ركابه، وتؤدي بالأعمال إلى الفلاح، وقد أدرك هذا أحد المتدبرين، وقال ما يدل على ما كان المجتمع يفكر فيه، ويشغل الذهن في تلك الأزمان، وحتى زمننا هذا، وهذا ما قاله:

«قال ربيعة بن أبي عبدالرحمن:

رأيت مشيخة بالمدينة في زي الفتيان، لهم الغدائر، وعليهم المورد، والمصفر؛ وفي أيديهم المخاصر، وبها أثر الحناء، ودين أحدهم أبعد من الثريا إذا أريد دينه». [1]

أن يلبس الشيخ الوقور ثوب الفتى المتوثب، وأن يطيل الشعر حتى يصبح له ضفائر تنوس على كتفيه، وأن يلبس الثياب المصبوغة بلون الورد، أو بلون العصفر الأصفر؛ أو أن يمسك بيده مخصرة، فهذا

(١) عيون الأخبار: ١/ ٤١٦.

مظهر من مظاهر عدم الاتزان، وأن يكون في يده أثر للحناء، فهو أمر منتقد عادة في عرف ذلك الزمن؛ ولكن ربيعة، وقد رأى أناساً هذا مظهرهم، أكد قوة دينهم، وأن داخلهم يخالف ظاهرهم، فهم داخلاً أتقى وأنقى، وإيمانهم الذي لا يرى أقوى مما نم عنه فعل أحدهم.

ولكن في مثل هذه الحالة هم بلا شك محل انتقاد، لأنه ليس كل من رآهم عرف سرائرهم، واطلع على بواطنهم، فالناس ليس لهم إلا الظاهر، والباحثون عن الضمائر قليلون، والخوف في مثل هذه الحالة أن يُقتدى بظاهرهم، فيقع المحذور؛ وخير الأمور، وأصفى الأحوال، وأكمل الصفات، أن يتطابق الظاهر مع الباطن، وهذا يتماشى مع أصول الطبع، وما يحمد من السمات.

ونعود إلى مظهر التقشف، عندما يكمن تحته ما لا يتجانس معه، فيظهر صاحبه بمظهر المنافق، الضاحك على مجتمعه، وقد يتحقق له أنه ضحك على نفسه،

لأن مجتمعه ليس من الغباء بحيث لا يعرف كنه الأمور، أو من الغفلة بحيث يُدلس عليه الأمر، وهذا نص بليغ في هذا الجانب:

قال الحسن: إن قوماً جعلوا خشوعهم في لباسهم، وكبرهم في صدورهم، وشهروا أنفسهم بلباس هذا الصوف، حتى إن أحدهم بما يلبس من الصوف أعظم كبراً من صاحب المطرف بمطرفه». (١)

وللشعر مشاركة في الحديث عن اللباس، ويخوض مع الخائضين في فائدة تواضع اللباس أو عدمه، ويبين رأيه في أبيات يسوقها أحد الشعراء لترجيح رأي على رأي، وهذا ما قاله هلال بن العلاء الرقِّي:

أَجِدِ الثِّيَابَ إِذَا اكْتَسَيْتَ فَإِنَّهَا
زَيْنُ الرِّجَالِ بِهَا تُهَابُ وَتُكْرَمُ
وَدَعِ التَّوَاضُعَ فِي اللِّبَاس تَحَرِّياً
فَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُجِنُّ وَتَكْتُمُ

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٥٥.

فَدَنِيُّ ثَوْبِكَ لاَ يَزِيْدُكَ زُلْفَةً
عِنْدَ الإِلٰهِ وَأَنْتَ عَبْدٌ مُجْرِمُ
وَبَهَاءُ ثَوْبِكَ لاَ يَضُرُّكُ بَعْدَ أَنْ
تَخْشَى الإِلٰهَ، وَتَتَّقِيْ مَا يَحْرُمُ[1]

هذا الشاعر يميل إلى تحسين اللباس، ولا يرى صواب التقشف، ويؤكد أن اللباس ليس هو الذي ينفع عند الله إذا كان رديئاً متدنيا، وجمال اللباس لايبعد المرء عن ربه، إذا أدى واجباته الدينية، فأطاع الله فيما أمر به، وابتعد عما عنه نهى وزجر.

وعندما تسيطر النيّة، ويعلو شأنها، وتكون هي العماد في العمل، وتأخذ الحيّز من النفس، يتضاءل الظاهر، حتى لا يصبح مهما، ويقل شأنه، ولا يُعطى اعتباراً، لأنه يصبح هامشاً مهملاً عند مَتْنٍ، بارق الإهاب، مضيء الجوانب، ساطع الطلعة، وهذا ما كان بين اثنين من خيرة الناس في زمنهما؛ اثنان من فقهاء المدينة، قريبا عهد بالصحابة، ومن أتيا من

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٥٩.

صلبهما؛ لقد كان أحدهما يلبس نوعاً متواضعاً من اللباس، وخلافه الثاني كان يلبس لباساً يدل على النعمة، وما وقف اللباس بينهما عاملَ فرقة، أو وسيلة تهاجر وتقاطع؛ كانا في موقعهما قدوة لمن طلب القدوة من الخيّرين أمثالهما، والنص يأتي عنهما هكذا:

«كان القاسم بن محمد (بن أبي بكر الصديق، أحد فقهاء المدينة السبعة)، يلبس الخز، وسالم بن عبدالله (بن عمر بن الخطاب، أحد فقهاء المدينة السبعة)، يلبس الصوف، وكانا يتجالسان في المجلس، ويتحدثان الدهر، لا ينكر واحد منهما لباس صاحبه». [1]

ومما يدل على أن أمر الثياب، والتقشف فيها، أو البذخ فيها، شغل الناس الشاغل، وهم فيها مختلفون، هناك نوع من الهجوم، وهناك نوع من الدفاع، والأمر في هذا يأخذ صوراً مختلفة، ويسلك مسالك متباينة، وكلما ابتُدعت فكرة تعضد هذا الجانب، قامت فكرة تنقضها، وترجح الجانب الآخر،

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٦٤.

وتعاون الشعر والنثر في هذا الموضوع، فلم يُترك منتحى إلا سلك، ولم يترك طريق إلا انتهج، ومما قيل في هذا الجانب من الشعر؛ وهو مثل كثير مما قيل، يجعل الداخل أهم من الخارج، فيعطي النية الحظّ الأوفى، ويقلل من شأن المظهر، وما قد يجلبه من استثارة بعض أصحاب الفِكَر، والأبيات الآتية تشارك في هذا:

قال الشافعي:

عَلَـيَّ ثِيَـابٌ لَـوْ تُبَـاعُ جَمِيْعُهَـا
بِفَلْسٍ لَكَانَ الفَلْسُ مِنْهُنَّ أَكْثَرَا
وَفِيْهِـنَّ نَفْسٌ لَـوْ تُقَـاسُ بِبَيْعِهَـا
نُفُوسُ الوَرَى كَانَتْ أَجَلَّ وَأَكْبَرَا[1]

وعلى هذا النسق يأتي قول الشاعر:

لاَ تَنْظُـرَنَّ إِلَـى الثِّيَـابِ فَـإِنَّنِـيْ
خَلْقُ الثِّيَابِ مِنَ المُرُوْءَةِ كَاسِي[2]

ويرد رجل رداً حكيماً محكماً، على حاكم نظر

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٦٤.
(٢) بهجة المجالس: ٣/ ٦٣.

إليه نظرةً شعر أنها نظرةُ ازدراء، وأن باعثها الثياب الخلقة التي كان يلبسها، فاستل سيف القول ليرد به نظرة جاءته شزراً، واتقى بترس قوي، وهذا هو النص:

«نظر بعض الأمراء إلى رجل في أطماره، فازدراه، فقال له: أصلحك الله لا تنظر إلى هيئتي، ولكن انظر إلى همتي، فأنا والله كما قال عبدالله بن زياد:

فَإِنْ أَكُ قَصْداً فِي الرِّجَالِ فَإِنَّنِيْ
إِذَا حَلَّ امْرُؤٌ سَاحَتِيْ لَجَسِيْمُ[1]

ويأتي شاعر بفكرة جميلة يؤكد فيها أن المرء أهم من ردائه، وأن النظرة تكون له، لا لما يلبس، وعن طريق نفسه يكون تقويمه وتقديره:

«قال أبو الفضل البصري الشاعر يخاطب المتنبي:

لَئِنْ كَانَ ثَوْبِيْ فَوْقَ قِيْمَةِ الفَلْسِ
فَلِيْ فِيْهِ نَفْسٌ دُوْنَ قِيْمَتِهَا الأُنْسُ

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٦٣.

فَثَوْبُكَ بَدْرٌ تَحْتَ أَنْوَارِهِ دُجىً
وَثَوْبِيَ لَيْلٌ تَحْتَ أَطْمَارِهِ شَمْسُ»[1]

ويركز شاعر على جانب من الصورة، فيرسم الشرف مقترناً في بعض الأحوال بالثياب الخلقة، والقميص المرقوع، مما يؤكد أن الشرف ليس مقروناً دائماً بالثياب الغالية الجديدة:

«يقول ابن هرمة:

قَدْ يُدْرِكُ الشَّرَفُ الفَتَى وَرِدَاؤُهُ
خَلْقٌ وَجَيْبُ قَمِيْصِهِ مَرْقُوعُ»[2]

ويتطرق شاعر للثياب، وصلتها بالإنسان، ويبين أهمية الخُلُق، وأنه الأساس في الحياة، لا الثياب، ويرسم صورة واضحة لرأيه في هذا المجال، ويقارن بين اثنين أحدهما جميل الثياب، قبيح الداخل، والآخر كابي الثياب مضيء الداخل، فيقول:

---

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٦٤.
(٢) بهجة المجالس: ٣/ ٦٤.

لاَ يُعْجِبَنَّكَ مَنْ يَصُوْنُ ثِيَابَهُ
حَذَرَ الغُبَارِ وَعِرْضُهُ مَبْذُوْلُ
وَلَرُبَّمَا افْتَقَرَ الفَتَى فَرَأَيْتَهُ
دَنِسَ الثِّيَابِ وَعِرْضُهُ مَغْسُوْلُ[1]

ويطيل شاعر في هذا المعنى، ويخاطب رجلاً كان يرجح المظهر على المخبر؛ فيرسم له صوراً متقنة، ويضع أمامه أفكاراً مقنعة، ويفند له الآراء التي يتبناها مخالفة لما يراه هو، فيقول في النص الآتي:

«قال محمد بن الحسن الزبيدي مخاطباً أبا مسلم بن فهد الهذلي:

أَبَا مُسْلِمٍ إِنَّ الفَتَى بِجَنَانِهِ
وَمِقْوَلِهِ لاَ بِالْمَرَاكِبِ وَاللِّبْسِ
وَلَيْسَ ثِيَابُ المَرْءِ تُغْنِيْ قُلاَمَةً
إِذَا كَانَ مَقْصُوراً عَلَى قِصَرِ النَّفْسِ
أَعَيَّرْتَنِيْ أَنْ لَمْ أُفَرِّهْ مَطِيَّتِيْ
وَأَنَّ ثِيَابِيْ غَيْرُ بِيْضٍ وَلاَ مُلْسِ

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٦٥.

فَرُبَّ ثِيَابٍ رَثَّةٍ حَشْوُهَا فَتًى
أَجَدَّ مُمِرٌّ غَيْرُ فَسْلٍ وَلاَ نَكْسِ
وَآخَرَ بَرَّاقِ الثِّيَابِ وَعِرْضُهُ
مِنَ العَارِ وَالتَّدْنِيْسِ رِجْسٌ على رِجْسِ»

(الأجد: شديد الاجتهاد. والممر: العزيز النفس).[1]

ونعود مرة أخرى إلى اللباس الذي يراد به الشهرة، أو يراد به الكسب، والاصطياد، والختل، ولا يراد به ما جُعل له اللباس، من وقاية البرد والحر، أو جلب الاحترام وإبعاد الانتقاد، والحرص على حفظ المقام في المجتمع، مما هو محمود، ومطلوب، إبتعاداً عن الانتقاد، وما يكون سبباً لحديث الناس، ونهش العرض، والوقوع في الإثم، وكان يقال:

«كل من الطعام ما اشتهيت، والبس من الثياب ما اشتهى الناس».[2]

وقد سبك هذا المعنى شاعر اعتنق مبدأ مراعاة ما

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٦٦.
(٢) بهجة المجالس: ٣/ ٥٨، ربيع الأبرار: ٤/ ٢١.

يريد الناس من اللباس، وعدم الظهور بما يعتبر في رأيهم شذوذاً، وفي تقديرهم طلباً للشهرة فقال:

«إِنَّ العُيُونَ رَمَتْكَ مُذْ فَاجَأْتَهَا
وَعَلَيْكَ مِنْ شَهْرِ اللِّبَاسِ لِبَاسُ
أَمَّا الطَّعَامُ فَكُلْ لِنَفْسِكَ مَا اشْتَهَيْتَ
وَاجْعَلْ لِبَاسَكَ مَا اشْتَهَاهُ النَّاسُ»[1]

أما ما جاء عن الشهرة في الأحاديث فالحديث الآتي:

«قال رسول الله ﷺ: من لبس ثوب شهرة وعزة في الدنيا ألبسهُ الله ثوب مذلة في الآخرة». [2]

ويتأكد الأمر أكثر في نص آخر مرفوع إلى الرسول ﷺ أكثر شمولاً من الحديث السابق، ومنه يتأكد المرمى الذي قصده ﷺ:

«من لبس منظوراً، وركب مشهوراً، لم يزل الله عنه معرضاً، وإن كان عليه كريماً». [3]

والرسول ـ عليه الصلاة والسلام، لا يريد من

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٥٨، ربيع الأبرار: ٤/ ٢١.
(٢) بهجة المجالس: ٣/ ٥٧.
(٣) بهجة المجالس: ٣/ ٥٧.

المسلمين أن يتعلقوا بالدنيا عن طريق القشور التي تخدش النفس، وتوحي بتفاهة النظرة إلى ما خلق الله الخلق له؛ ودوام صلتهم بالله، والتعلق بما جعله أساساً في هذه الحياة، ليكون الطريق إلى النعيم المقيم في الآخرة.

والعقد النفسية التي تكمن خلف طالب الشهرة تخدش، إذا استشرت، المجتمع الإسلامي، وتصمه بصفات لا تليق بمكوناته، ولهذا حذر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ مما يوصل إلى هذا؛ وتبعه صحابته ـ رضوان الله عليهم.

فهذا عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنه: يدلي بدلوه في هذا الصدد، فيقول:

«من لبس ثوب شهرة، أعرض الله عنه، وإن كان واليا». [1]

وقال:

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٥٧.

«من لبس مشهور الثياب ألبسه الله ذلة يوم القيامة» .[1]

ويأتي الحديث عن الشهرة من جراء لبس بعض الثياب بصيغة أخرى، فيروى عن إبراهيم النخعي، وقد دل سائلاً على ما يحسن به أن يلبس عندما سأله عن ذلك، أنه قال:

«ألبس ما لا يشهرك عند العلماء، ولا يحقرك عند السفهاء» .[2]

ويحتاج المستفسر إلى ميزان دقيق لا يثير العلماء، ولا يوجب النظرة المتدنية من السفهاء، إذ أن العلماء يرضيهم التقشف في حدود المعقول، أما السفهاء فلا يرضيهم إلا الخروج عن المألوف، بذخاً وتفسخاً، والمسافة بين هذين الأمرين متباعدة الأطراف، وتحتاج إلى جهد من اللابس حتى يوفق بين فئتين متباعدتين كل التباعد، متنافرتين كل التنافر.

ومما جاء عن الشهرة النص التالي، وهو نص

---

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ١٧.
(٢) بهجة المجالس: ٣/ ٦٧.

تلاطم فيه الأمر، وحار بين حالين، حال ترضي فريقاً، وحال لا ترضيه، وهذا ما استطاع صاحبه عمله، مع من استعان به، فكان له مخرج مما هو فيه

«قال عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة:

جاءت الدولة وأنا حديث السن، كثير العيال، منتشر الأموال، فكنت لا أكون في قبيلة إلا شُهِر أمري؛ فلما رأيت ذلك عَزَمْتُ على أن أفدي حُرَمي بنفسي، قال المبارك:

فأرسل إليّ: أن وافني عند باب الأمير سليمان، (ابن علي بن عبدالعزيز بن العباس) قال:

فأتيته، فإذا عليه طيلسان أبيض مُطبق، وسراويل وشي مسدولة، قال، فقلت:

سبحان الله! ما تصنع الحداثة بأهلها! إن هذا ليس لباس هذا اليوم.

قال: لا والله، ولكن ليس عندي ثوب إلا أشهر مما ترى.

قال: فأعطيته طيلساني، وأخذت طيلسانه،

ولويت سراويله إلى ركبتيه .

قال : فدخل ، ثم خرج إليّ مسروراً» .[1]

هذا موقف طريف يبين موقف رجل انتقل من فترة الأمويين إلى فترة العباسيين الحديثة ؛ وتجواله في البادية ، وبعده عما طرأ على مجتمع العراق ، جعل لباسه ملفتاً للنظر ، لغرابته أولاً ، ولغلاء ثمنه ؛ فلما أراد أن يدخل في الدولة الجديدة لم يكن عنده أرخص من هذه الملابس ، أو ما يناسب العهد الجديد ، الذي لابد أن السواد كان سمته ؛ ولهذا تداركه صديقه ، فأعطاه طيلسانه ، وهو مثل العباءة ، أو اللباس الذي يعلو الثياب ، ويغطي كل ما تحته ، أو بعضه ؛ ووقف الصديق محتاراً تجاه السراويل المسبلة ، والموشاة ، فعالج المشكلة بأن طوى أسفلها إلى أعلى حتى أوصلها إلى الركبة ، فأخفاها تحت اللباس والطيلسان ؛ وهذا جعله مقبولاً عند الحاكم الجديد ؛ وأنقذه الله بسبب هذا الصديق مما أوحى به له سنه ، وحداثته .

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ٣٤٢ .

فالشهرة هنا أخذت جانباً معيناً، أوحى بها ظرف طارئ، ولم تكن بسبب النية في لفت النظر، بل إن لفت النظر كان سوف يؤدي إلى موقف قد تكون العواقب منه وخيمة.

ويشم أحد العباد، مزاولي المرابطة في الثغور، رائحة رياء، ويرى شبكاً منصوباً، لاصطياد العواطف، وختلا ينظم لاقتناص الضحايا، فيلتفت إلى صاحبه التفاتة أسد هصور، ويعمد إلى سلاح فتاك، يعرفه المهاجَم حق المعرفة، بل إنه بضاعته الرئيسة التي شهرته، وجعلت له أسماً في مجتمعه، ثم فيما بعد مفحصاً دافئاً في الأدب العربي، وتاريخه. فالمهاجِم هو عبدالله بن المبارك، الذي لا يغضي على القذي، وعرف عنه التقى، واشتهر بالصلاح، والمهاجَم هو أبو العتاهية، الشاعر ذائع الصيت، الذي لبس الصوف في مرحلة متأخرة من حياته، واختار التنسك في شعره، وفي لباسه، ولم تخل الأقوال عنه من تضارب تؤكد صدقه فيما تبنى، أو تشكك في

إخلاصه وصدقه، وهذه هي القصة، والسلاح هو الأبيات المعبرة التي وجهها عبدالله بن المبارك إلى أبي العتاهية، هكذا:

«نظر ابن المبارك ببغداد إلى رجل عليه ثياب صوف، لا يخالطها غيرها، فقال:

من هذا؟

فقيل له: هذا أبو العتاهية الشاعر.

فكتب إليه ابن المبارك:

أَيُّهَا القَارِئُ الَّذِيْ لَبِسَ الصُّو
فَ وَأَضْحَى يُعَدُّ فِي العُبَّادِ
إِلْزَمِ الثَّغْرَ، والتَّعَبُّدَ فِيْهِ
لَيْسَ بَغْدَادُ مَوْضِعَ الزُّهَّادِ
إِنَّ بَغْدَادَ لِلْمُلُوْكِ مَحَلٌّ
وَمَنَاخٌ لِلْقَارِئِ الصَّيَّادِ». (١)

عبدالله بن المبارك وضع الأمر على محك دقيق، ومقياس لا يخيب صاحبه، ودل أبا العتاهية على

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٦٥.

الموقع الذي يليق بالزاهد، الصادق النية، المخلص العمل، أن يكون فيه؛ هداه إلى المرابطة في الثغور، حيث العمل يعود على المرء بإحدى الحسنيين إما الشهادة، أو صدّ العدو، وكسب أرض للمسلمين، أو الدفاع عنها؛ أما بغداد فهي للملوك الذين لم يزهدوا، بل يعيشون عيشة بقية الناس، وهي كذلك للمنافق الصياد التي يلبس ملابسا يوقع بها السذج والمغفلين.

وهناك مساهمة شعرية على هذا النسق تلمس جوانب النفاق في التظاهر، وتكشف عن خبايا المدلسين، وما يدور داخل جوانحهم، مما لا يخفى على عاقل؛ وقد يخفى على هؤلاء المحتالين أن حيلهم معروفة، والقصة هكذا:

«قال محمود الوراق: :

تَصَوَّفَ فَازْدَهَى بالصُّوْفِ جَهْلاً
وَبَعْضُ النَّاسِ يَلْبَسُهُ مَجَانَهْ
يُرِيْكَ مَهَابَةً وَيُجِنُّ كِبْراً
وَلَيْسَ الكِبْرُ مِنْ شَكْلِ المَهَانَهْ

تَصَنَّعَ كَيْ يُقَالُ لَهُ أَمِيْنٌ
وَمَا مَعْنَى التَّصَنُّعُ لِلْأَمَانَهْ»[1]

عندما يكون الأمر مخالفاً للطبع فإنه لا يستقيم، ويعروه الاعوجاج والميل، ويتسلط عليه التناقض والتنافر، مثلما حصل لهذا المتصوف الذي وصفه محمود الوراق، فالصوف ولبسه دليل الديانة، وعلامة التقشف، ومظهر الزهد في الحياة، وهو يخالف المجون والمجانة، وهو ما يظهره هذا المتصوف، لأن ما اختاره مظهراً يخالف ما يعتقده مبدءاً ومخبراً، وهو يظهر التواضع، ويهين نفسه بهذا اللباس، ولكنه يظهر كبراً للناس، وهذا فيه من التناقض ما لا يستقيم معه الأمر، ثم هو يتصنع التقوى، والتقوى تصاحبها الأمانة، ولكن التصنع يخالف الأمانة، فهو على هذا لم يرد بهذا العمل، وهذا اللباس، وجه الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولكنه أراده سبيلاً للخيانة، والضحك على ذمم الناس، في تعامله معهم.

---

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٦٥.

ويلفت لباس أحد الناس المعتبرين في المجتمع نظر زوجته، فتبدي له ملاحظتها على ما لفت نظرها من عدم لبس ما اعتاد أهل زمانه أن يلبسوه، ولعلها خشيت أن يكون هذا طلباً للشهرة، وهو ما لا تريده له، لأنه لا يليق بمقامه، ولا ما عرف عنه من اتزان وعقل. وقد ردّ عليها بما طمأنها بأن ما اختاره إنما اختاره لسبب مقبول، فالصفات التي في اللباس تتناسب مع ثروته ومقامه، وهذا هو الحوار بينهما:

«قالت ابنة العوام أخت الزبير لزوجها حكيم بن حزام، وكان كثير المال:

ما لك لا تلبس لباس الناس اليوم؟

قال: وما تنكرين من لباسي؟ وإزاري قِطْرى، (نسبة إلى قطر)، وردائي مغافري (المغافر ما كثر صوفه من الأردية) وقميصي سابري (الرداء الرقيق الجيد)، وعمامتي خرقانية (أي مكورة)». [1]

هي تريده أن يساير عصره، وهو محافظ على ولائه

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٦٢.

لقديمه، ولعل سنه يسمح له بذلك، وهي ربما كانت ترمي إلى أن اللباس يوحي بصغر السن، وعدم مجاراة العصر قد توجب التساؤل. وقد سَمِعْتُ قبل فترة نقاشاً طريفاً بين زوج وزوجة على أيهما الأفضل له «الغترة» أو «الشماغ»، ولا يكاد يخرج ما تطارحاه من كلام عما جرى بين هذين الزوجين.

إذا كان هذا الرجل العاقل لم يرد أن يساير عصره، وتمسك بقديمه، وتحمل بسببه جدل زوجته، فإن هناك رجلاً مثله في العقل والرزانة، اختار أن يسير مع عصره، حذو القذة بالقذة، وكان حريصاً على هذا، حتى أنه تردد في طريق التغيير الذي طرقوه، فتبنوا لباساً فتبناه معهم، فهجروه، فهجره مثلهم، ثم عادوا إليه، فعاد إليه مثلهم، وصرح بأنه على استعداد أن يعود عنه إن عادوا مرة أخرى، والقصة كمايلي:

«قال الوليد بن يزيد:

كان الناس عندنا يلبسون الأردية، وكان الأوزاعي

يلبسها، فترك الناس لبسها، ولبسوا السيجان (ضرب من الملاحف)، فرأيت الأوزاعي قد ترك لبس الأردية، ولبس الساج، فقلت له:

يا أبا عمرو، كنت تلبس الأردية، فتركتها، ولبست الساج، فما الذي دعاك إلى ذلك؟

فقال: يا ابن أخي، رأيت الناس يلبسون الأردية، فلبستُها معهم، وتركوها، فتركتُها معهم، ولبسوا السيجان، فلبستُ معهم، ولو عادوا إلى الأردية لعدت معهم». [1]

والأوزاعي ـ رحمه الله ـ له نظرات في اللباس غير هذه، وهو إمام في الرأي في زمنه، إذاً فلا غرو أن يهتم باللباس، وهو مظهر مهم، شغل الناس، ولابد من أن يدلي بدلوه فيما يتجادل فيه أفراد مجتمعه، وله قول مأثور كمايلي:

«روى بقية عن الأوزاعي، قال:

---

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٦٠.

بلغني أن لباس الصوف في السفر سنة، وفي الحضر بدعة». [1]

هذا قول حكيم، يتصف بالعقل والمنطق، فالسفر فيه من الخشونة، ما لا يُلائم الأردية الناعمة، واللباس الغالي الثمين، فالركوب يبلى الثياب، والسفر فيه من الغبار ما يحتاج إلى لباس خشن، يتحمل مثل ذلك. فإذا لبس المسافر ثوباً ناعماً فقد سلك طريق الاختيار غير الموفق، ومثله من لبس الصوف في الحضر، خاصة وقت الصيف، واشتداد الحر، مع حاجة الجسم إلى اللباس الرقيق الناعم، الذي يسمح للهواء أن يتخلل إلى الجسم المتصبب عرقاً. ثم هناك الزينة التي يحتاجها الإنسان عند ذهابه إلى المسجد، أو ملاقاة ذوي المقامات، وهو ما يضمن الاحترام والتوقير.

وحكماء المجتمع يأتون بالأقوال الصائبة عندما يسألون عن اللباس اللائق في وقت بعينه، أو مجتمع

---

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٦٠.

بذاته، وهذا أحدهم يفصل الأمر عما يجب أن يلبسه الإنسان في بلده، وفي بلد الغربة، ولم يقل هذا القول جزافاً، ولم يجب على سؤال السائل، دون تفكير عميق، يستحق أن يجاب به سائل محتف، متطلع إلى جواب شاف، وهذا هو السؤال، ومعه جوابه:

«قال سفيان بن حسين:

قلت لإياس بن معاوية: ما المروءة؟

قال: أما في بلدك فالتقوى، وأما حيث لا تعرف، فاللباس». [1]

والحكمة واضحة في هذا الجواب، فالإنسان إذا عرف في مجتمعه، لا يرفعه إلا الدين، ومعرفة الله، ومراعاة تعاليمه، واتباع ما يأمر به، واجتناب ما ينهى عنه، والظهور بالمظهر الذي يجعل المرء قدوة حسنة، تؤخذ عنه العادة الحسنة، والتصرف السليم. وهذا يعرفه الناس بما يرونه منه من جراء معاشرته،

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٦٠، قال منصور بن عمار: من تعرى من لباس التقوى لم يستتر بشيء من لباس الدنيا.

وتتبع أعماله، ومراقبة تصرفاته؛ أما إذا كان الإنسان في بلد هو فيها غريب، لا يعرف، فالحكم عليه ممن يجهله يستقى من لباسه، وحسن اختياره له، وكونه ملائماً لسنه، وموائماً لمهنته، ومتناسقاً بعضه مع بعض، وألوانه متجانسة، وأقمشته متسقة، فإذا اكتمل هذا في لباسه استُدِلَّ على أنه صاحب مروءة، يستوجب احترام الناس له.

ويسير على هذه الجادة، ويماشي هذا النسق، نص آخر، ركز على جانب الدين، وهو جانب مضيء في كل مجال يدخله، وهذا هو النص:

«كان بكر بن عبدالله المزني يقول:
إلبسوا ثياب الملوك، وأميتوا قلوبكم بالخشية».[1]

لقد أكد بكر على تقوى الداخل، وأن الخارج يمكن أن يكسبه الإنسان بأحسن زينة، وأبهى مظهر؛ وأن العمدة على داخل النفس، وما تحمله النية من قصد حسن، وهدف نبيل، يتماشى مع ما هو مطلوب

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٥٩.

من المسلم؛ ؛ فالقلب هو مخزن السّر الذي لا يطلع عليه إلا الله سبحانه وتعالى.

وبكر هنا اهتم باللباس، وهو ظاهر المرء الذي يمشي به في الناس، به يحكم عليه، وبه يعامل، إن وافق ما في أنفسهم قدروه وأكبروه، وإن خالف عرفهم لفت نظرهم، وقد يحتقرونه بسببه، هو المقياس الذي به يقاس، وهو المعيار الذي به يوزن، وهو مُدْخِلُه مدخلاً حسناً إلى مجتمعه، أو مدخلاً ضيقاً مهتزاً؛ وقد قال أحد الشعراء في هذا بيتاً جعل اللباس حارس المرء الذي يفسح له الطريق، ليمشي بين الناس، فقال:

«وَثِيَابُ الْمَرْءِ جِلْوَا
زٌ لَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ»[1]

وقد لا تقوم الملابس بدورها على الوجه الأكمل، بل تقصر دونه، وتخون صاحبها لسبب أو آخر، وعندنا على الأقل حالة من الحالات التي لم تغن

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٦٥.

الملابس الفاخرة فيها صاحبها، لأن أمراً آخر أخذ العين، واستولى على التفاتتها، فهذا مجنون ليلى جلس إلى «كريمة» وصويحباتها، وعقر لهن ناقته، ولكنهن عندما مر بهن «منازل»، صبيحُ الوجه، تركن المجنون، وأقبلن على هذا المليح، ونسين ناقة المجنون الكوماء المذبوحة اللاتي أخذن طوال النهار يشتوين لحمها، وصاحبها بطيلسانه، وقلنسوته، وفي هذا يقول مجنون بني عامر:

أَأَعْقِرُ مِنْ جَرَّا كَرِيمَةَ نَاقَتِيْ
وَوَصْلِيَ مَفْرُوْشٌ لِوَصْلِ مُنَازِلِ
إِذا جَاءَ قَعْقَعْنَ الْحُلِيَّ وَلَم أَكُنْ
إِذَا جِئْتُ أَرْجُو صَوْتَ تِلْكَ الصَّلاَصِلِ
وَلَمْ تُغْنِ سِيْجَانُ العِرَاقَيْنِ نَقْرَةً
وَرُقْشُ القَلَنْسِيّ بِالرِّجَالِ الأَطَاوِلِ»

والسيجان جمع ساج وهو الطيلسان، ونقرة أي شيئاً، ورقش القلنسي أي القلنسوات المنقطة). [1]

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٩٨.

فإن كان اللباس الجميل الذي نصح بلبسه بكر، وحث على أن يكون من أفخر الألبسة، وحدده بلباس الملوك، واللباس الذي جعله الشاعر جِلوازاً وحارساً، نفع الرجل مع الرجال، فلعل القاعدة تخرق مع النساء، فاللباس لا يقوم له عندهن سوق، إلا إذا صاحبه وجه جميل، وشباب متقد.

وتأتي أبيات من الشعر تلمس الجديد من الثياب والخَلِقَ منها بطريقة مختلفة، وفكرة مغايرة، وتدل على إصرار قائلها على مبدءٍ اتخذه لنفسه، بناه على سبب وجيه، وجده مقنعاً فتمسك به، ودعا إليه، والأبيات كمايلي:

«أنشد ثعلب:

وَإِنَّمَا الشِّعْرُ عَقْلٌ أَنْتَ تَعْرِضُهُ
عَلَى الْمَجَالِسِ إِنْ كَيْساً وَإِنْ حَمَقَا
وَإِنَّ أَشْعَرَ بَيْتٍ أَنْتَ قَائِلُهُ
بَيْتٌ يُقَالُ إِذَا أَنْشَدْتَهُ صَدَقَا

إِلْبَسْ جَدِيْدَكَ إِنِّي لاَبِسٌ خَلَقِيْ
وَلاَ جَدِيْدَ لِمَنْ لاَ يَلْبَسِ الخَلِقَا»[1]

مهد الشاعر بقول حكيم عن العقل، وعن الشعر، وكأنه يريد أن يعرض عقله على السامع، ويؤكد له أنه أهل لأن يسمع منه، ثم انتقل في البيت الثالث إلى الفكرة التي آمن بها عن الثياب جديدها وخلقها، وختم بيته الثالث بشطر مضيء الحاشية، قوي المتن، بديع المرمى، صادق القول، عند تدبره يظهر عمق الفكر فيه، وبعد مراميه: فمن لا يبدأ حياته في حدود إمكاناته، ويصبر على ملابسه وبِلاَها، حتى لا يجددها قبل أوان الأوان، وقبل قدرته على ذلك، وهو إذا لم يصبر، ويدبر في أول حياته، فإن حاله لن تتحسن، ولن يستطيع أن يحصل على الجديد، والعامة تقول: «من فات قديمه تاه».

هذا هو الجانب الجاد في أمر الثوب الخلق، والإخلاص له، وعدم إثارة غيرته بالجديد، ولكن في التراث

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٦٣.

جوانب باسمة في هذا الجانب، تجعل الثوب الخلق مادة للضحك، وهذه بعضها:

«قال الحمدوني في طيلسان خلق أهداه له محمد بن حرب:

كَمْ رَفَوْنَاهُ إِذْ تَمَزَّقَ حَتَّى
بَقِيَ الرَّفْوُ وَانْقَضَى الطَّيْلَسَانُ»[1]

في هذا البيت لمز لمحمد بن حرب لأنه لم يجدد الهبة، مما اضطر الحمدوني إلى رفو هذا الطيلسان رفواً غطى على الطيلسان نفسه، وهذا البيت يذكر بقصة طالبين سعوديين، كانا يدرسان في مصر، وصادف أن أحدهما جلس على كرسي فيه مسمار ناتئ أحدث تمزقاً في لِبَاسِهِ، فأخذ صديقه هذا اللباس، ورفاه، وجاء به قائلاً لقد رُفِي رفياً بديعا، سيغريك أن تمزق كل لباس عندك، وتجعله يرفا!

وهذا اللمز من الحمدوني لم يقف عند هذا البيت بل يقال أنه وجه أبياتاً غيره لابن حرب، تزيد قطعها

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ٢٣.

عن مئتي قطعة : [1]

ومن هذه القطع البيتان الآتيان :

«فِيْمَا كَسَانِيْهِ ابْنُ حَرْبٍ مُعْتَبَرْ
فَانْظُرْ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ إِحْدَى الكِبَرْ
قَدْ كَانَ أَبْيَضَ ثُمَّ مَا زِلْنَا بِهِ
نَرْفُوْهُ حَتَّى اسْوَدَّ من صَدَإِ الأَبَرْ»[2]

هذه المغالاة المغرقة في الشطر الثاني من البيت جعلت لهذين البيتين قيمة، لأن الفكرة مبتدعة، وترسم صورة معبرة، ورسما متقناً، لحالة هذا الكساء.

ولكن الحمدوني لا يقف عند هذا الحد من المغالاة، ورسم الصور البديعة، بل يذهب بعيداً في عمق حك هذا الإناء، وقد وقف كل جهده عليه، ولا يسوغ له أن يأتي بأفكار معتادة، ولا معاني مكرره، ولكن لكل قطعة لمعة إبداع، تحليها المغالاة، فيقول في فكرة أخرى مبتدعة :

---

(١) ربيع الأبرار : ٤/ ٢٤.
(٢) ربيع الأبرار : ٤/ ٢٣.

يَا ابْنَ حَرْبٍ أَطَلْتَ فَقْرِيْ بِرَفْوِي
طَيْلَسَاناً قَدْ كُنْتُ عَنْهُ غنِيَّاً
فَهوَ فِيْ الرَّفْوِ آلُ فِرْعَوْنِ فِي الْـ
عَرْضِ عَلَى النَّارِ بُكْرَةً وَعَشِيَّا[1]

لقد قفز قفزة بعيدة المدى، ورمى رمية تعدت الحسبان، فلم يعد يلوم ابن حرب على عدم إسعافه بجديد، أو يلمزه على ذلك، بل بدأ يحمله إثماً يحتاج إلى غرم بإهدائه هذا الطيلسان، الذي أصبح يقتضيه خسارة في المال، كان في غنى عنها، فابن حرب مطالب بأن يغرم مقابل معروفه.

ويحسن هنا أن نلتفت إلى بعض ما ورد عما كان يلبسه الرسول ﷺ، مما جاء في كتب الأدب، وهذا أحد النصوص في هذا:

«قال أنس: دخلت على رسول الله ﷺ وهو في عباءة له يهنأ بعيراً، (وقيل في مربد يسم غنماً)».

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ٢٣.

(يهنأ: يطلي بالهناء وهو القطران).[1]

وهذا يعني أن العباءة مما كان يلبس في ذلك الزمن، ويسمى بهذا الاسم، وأن الرسول ﷺ لبسها؛ وتحدد أنه لبسها، وهو في عمل بعينه، ولعل هذا كان في زمن الشتاء، إذ أن العباءة لا تساعد صاحبها لا في الطلاء ولا في الوسم، ولهذا روي عن أنس أنه رآه يسم الغنم في آذانها، فرآه مؤتزراً بكساء، وقد يكون هذا في فصل من السنة آخر.

والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لبس أنواعاً من اللباس، خاصة ما يهدى له من اليمن وغيره، وكان يلبسها ويهديها، وكانت متنوعة حسب النسج في البلاد التي أتت منها، وكان أغلبها من جنوب بلاد العرب، وقد تأتي من غيرها، والأخبار في هذا كثيرة، وهذا أحدها:

قال المبرد:

«كان رسول الله ﷺ يشرع الشيء على غير جهة

---

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ٧.

التلذذ، ولكن على جهة الإحلال والاستنان، ألا ترى أنه لبس حلة كسرى التي اشتراها له الأنصاري، فخطب فيها، ثم نزل، فوهبها لأسامة». [1]

هذا لباس طارئ، ولم يكن المعتاد، ولم يكن يناسب رسول الله ﷺ بحال من الأحوال، لهذا تخلص منه بعد أن استعمله لغرض يبين فيه حكم الشرع في لبسه. وهذا هو مبدأ ورود ألبسة من فارس والشام تختلف عما اعتاد أهل مكة والمدينة على لبسه، وإن كان بعضهم رآه في سفره، أو عندما أحضره من أحضره في فعل منقطع.

وأكثر ما كانوا يلبسون الإزار والرداء، وكثيراً ما كان يبلى على أجسامهم، فيرقعونه بما يتماشى معه، أو بما يتنافر معه، فقد يرقع القماش بالجلد عدة مرات، وقد روي عن عمر وترقيعه إزارهُ عدة روايات إحداها الآتية:

«عن علي ـ رضي الله عنه ـ رأيت عمر بن الخطاب

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ٩.

ـ رضي الله عنه ـ عليه إزار فيه إحدى وعشرون رقعة من أدم ورقعة من ثيابنا» .[1]

«وروى عن ابن عباس أنه قال :

رأيت عمر بن الخطاب يطوف بالبيت وإزاره مرقوع بأدم» .[2]

وقد يستغرب الرائي لهذا، فيتساءل عن ذلك، وكيف ترضى نفس مثل هؤلاء الرجال بمثل هذا، فيأتيهم الجواب من علي ـ رضي الله عنه ـ كاشفاً لهم عن السعادة التي يجدونها في هذا :

«رؤي علي، وعليه إزار خلق مرقوع، فقيل له . فقال : يخشع له القلب، وتذل به النفس» .[3]

هؤلاء أناس شبعوا عن مجد الدنيا بزاد الآخرة، فلم تعد هذه القشور تهمهم، وهي في نظرهم قشور، وقد ورد القشر في حديث أحدهم، ولكنه بمعنى مخالف لما ذكرناه، وهو ما قاله المنذر لابنه النعمان :

---

(١) ربيع الأبرار : ٤/ ٨ .
(٢) ربيع الأبرار : ١/ ٤١٤ .
(٣) ربيع الأبرار : ٤/ ٨ .

«قال المنذر لابنه النعمان:

إن لك لساناً وجمالاً، فألبس من القشر ما تزيد به من جمالك». [1]

إلا إذا كان المنذر يريده أن يتواضع في لباسه حتى يزيد فضل لسانه، وجمال طلعته بالمقارنة، ولا أظن المنذر يمكن أن يغوص على هذه الفضيلة.

وقول في الثياب، ونظرة جميلة إليها، تدل على كرم، وأصالة محتد، أتت من رجل عرف الدنيا، وسبر غورها، فأراد أن يعطي أبناءه ما تحصل له من التجارب فيها، وقوله نصيحة ثمينة، وحكمة بالغة، وهي كما يلي:

«قال المهلب بن أبي صفرة:

ما رأيت أحداً بين يدي قط إلا أحببت أن أرى ثيابي عليه، فاعلموا، يا بني، أن ثيابكم على غيركم أحسن منها عليكم». [2]

---

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ١٧.

(٢) ربيع الأبرار: ٤/ ١٠.

إن التبختر باللباس الحسن ومن حولك في رث الثياب يدل على الأثرة والبخل، ويملأ قلوب من حولك بالحقد والحسد؛ أما إذا فضلتهم على نفسك امتلأت عينك بمنظر فضلك عليهم، والمعروف الذي أسبغته عليهم، وكل يعرف أنك لم تلبس دون ذلك من عوز، ولكنك فضلت هؤلاء عليك.

ومظاهر التكرم على من حول المرء كثيرة، وتأتي بصور مختلفة، سجل منها التراث حوادث هنا وهناك، أحدها القصة الآتية:

«لبس ابن أبي دواد طيلسانا جديداً، فزال عن منكبه، فقال:

ما أُحْسِنُ أن ألبس الجديد.

فقال له أبو العلاء المهدي: إن كنت لا تُحسن أن تَلْبَسهُ فإنك تُحسن أن تُلْبِسَه.

فوهبه له». [1]

تُرى هل قال أحمد بن أبي دواد ما قال تمهيداً لإنهاء

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ١١.

الأمر بما انتهى إليه، وإنه بدلاً من أن يهبه له بدءاً أراد أن يعرف إن كان جليسه يرغب فيه! على كل حال، لقد فتح ابن أبي دواد على نفسه الباب، فخرج من هذا الباب طيلسانه، واستقر على كتف لا يزول عنه الطيلسان!

وإعطاء الثياب، وهبة اللباس، كانت تأخذ صورة ذات معنى منتظم في زمن مضى، فملوك الفرس، أو بعضهم، كانوا يهبون في وقت معين، وبمناسبة سعيدة ثياباً، يشرفون بها من يريدون بِرَّهُ، وهذا الخبر عن ملوك فارس:

«كان أزدشير، وبهرام جور، وأنوشروان، يأمرون بإخراج ما بخزائنهم من الثياب عن آخرها، فيكسونها في النيروز والمهرجان.

ولا يعلم أحد اقتفى أثرهم إلا عبدالله بن طاهر، فإنه كان لا يترك في هذين اليومين في خزائنه ثوباً واحداً إلا كساه». [1]

---

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ١٥.

إن في هذا التصرف لفتة ذكية، فبجانب أنه تشريف أن يعطي من هو في المقام الأعلى من هو دونه، فإنه يعطي مما سبق أن رضي عنه من الملابس، واختاره لنفسه، وهذا يعني أنه من نوع متميز، وبعضه خاصة أمثال الطيلسان لا يكاد يتبين عليه أثر اللبس، أو أي أثر للاستعمال. ويتيح هذا فرصة للمعطي أن يختار جديداً يكون فيه من الميزات ما قد يكون فاته في السابق، أو جد على طراز التراث. ولابد أن هؤلاء الملوك يجدون صعوبة فيما لو أبقوا ملابسهم القديمة، وهم من يُغَيِّر لباسه في اليوم عدة مرات.

وهناك نص آخر يعضد هذا النص جاء هكذا:

«كان الملوك لا يلبسون الشعار إلا لبسة واحدة، ثم لم يعودوا إلى لبسه، وكان يزدجرد، وأنوشروان، وقباذ، يغسل شعارهم ثلاث غسلات، ثم يخلعونها على قراباتهم». [1]

وهذا يتبين منه أن اللباس، والتعامل معه، كان

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ١٦.

شغل الملوك السابقين الشاغل، فلكل واحد منهم تصرف، وقد يتماثل تصرف الابن مع أبيه، وقد يختلف؛ وهذا النص يدل على أن ما لبسه الملك من الثياب يصبح تشريفاً يبر به أحد القرابة، والغسلات الثلاث لا تعطينا فكرة عن عمر اللباس، ولكن الغالب أن اللباس لا يلبس إلا يوماً واحداً، أو بعض يوم؛ وهذا يجعل للباس مؤونة باهظة في خزانة الملك.

والحالات التي يستوهب شخص من آخر لباساً كثيرة، وفي بعض الحالات تكون الحادثة طريفة، ولها ما أوجبها، وقد مر بنا ما حدث من أحمد بن دواد مع أبي العلاء المهدي، وكيف أن أبا العلاء استغل كلمة نطق بها أحمد بن دواد، فنقل الطيلسان من كتف أحدهما إلى كتف ا لآخر، ومن النصوص في استيهاب الكساء النص الآتي:

«استكسى الفضلَ بن العباس الهاشمي شاعرٌ، فوهب له قلنسوة، فقال:

كَسَاكَ فَضْل بْنِ عَبَّاسٍ قَلَنْسُوَةً
هَذَا السَّخَاءُ الَّذِيْ قَدْ شَاعَ فِي النَّاسِ
لوْ كَانَ ضَمَّ إِلَيْهَا الجَوْرَبَيْن مَعاً
كَفَى إِذًا كِسْوَةَ الرِّجْلَيْنِ وَالرَّاسِ»[1]

هذه القلنسوة التي وهبت تسببت في أن يقول الشاعر هذا البيتين الطريفين، وأن يرسم هذه الصورة الضاحكة.

وإذا كان أحمد بن أبي دواد في موقفه السابق هو الذي بدأ تحريك الأمر الذي انتهى بإهداء الطيلسان، فإن هناك من فعل فعلاً مغايراً، فالذي كسب الكساء هو من نصب الشباك، وأوقع اللحاف، والقصة هكذا:

«دخل أبو نخيلة (شاعر راجز) على هشام، وعليه لحاف سمور مظهر بخز، فرمقه أبو نخيلة، فقال:

ما بالك ترمقه ولست من أهله؟

قال: صدقت، يا أمير المؤمنين، ولكني من أهل الشرف والافتخار. فرمى به إليه». [2]

---

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ١٦.
(٢) ربيع الأبرار: ٤/ ٣٦.

من رأى فعل هشام، وسرعة تخلصه من هذا اللحاف الثمين، المصنوع من جلد السمور، وهو دويبة تعيش في بلاد الروس، ومبطن بمادة غالية الثمن، وهي الخز، مع تواضع الحكمة التي قالها أبو نخيلة، ظن أن هشام قد مل هذا اللحاف، وينتظر أحداً يعطيه إياه حجة للتخلص منه.

ولم تكن هذه الحيلة الوحيدة التي لجأ إليها أبو نخيلة، فله حيلة أخرى، أوحت بها نظرة له إلى جبة خز أخرى، وكانت على هشام أيضاً، والقصة كمايلي:

«ثم دخل عليه (على هشام) وعليه جبة خز، فقال:
يا أمير المؤمنين، لا أحسن أن أنظر إليك.
قال: ولِمَ؟
قال: أخاف أن تقول:
ومالك ترمق الجبة؟
قال: أوأعجبتك؟
فرمى بها إليه». [1]

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ٣٧.

اختلف الشباك، واختلف الأسلوب، والضحية واحدة والصائد واحد، والكسب مؤكد في كلا الجانبين، هذا بالعطاء وهذا بالمدح.

والمدح وسيلة من وسائل أبي نخيله لصيد الثياب من هشام، وهو ثمن بخس في نظره، وغال في نظر هشام، فالعطاء يذهب، والهبة تبلى، والمدح يبقى، والشعر يشيع، وهذا موقف من مواقف أبي نخيله، وهزه نخلة كرم هشام.

«دخل على هشام، وعليه رداء وشي أفواف (ضرب من برود اليمن)، فجعل ينكت بأصبعه على الأرض، ويقول:

كَسَوْتَنِيْهَا فَهِيَ كَالتَّجْفَافِ
كَأَنَّنِيْ فِيْهَا وَفِي اللِّحَافِ
مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ أَوْ عَبْدِ مَنَافِ
وَالخَزُّ مُشْتَاقٌ إِلَى الأَفْوافِ

فرمى بالرداء إليه». [1]

(التجفاف: ما جلل به الفرس، وقد يلبسه الإنسان).

---

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ٣٧.

وسنتحدث عن بعض الأمور المتفرقة عن اللباس، وما جاء عنه متصلاً ببعض الأمور غير المنتظمة، ومنها:

«كان عمر بن عبدالعزيز تشترى له الحلة بألف دينار، فيقول: ما أجودها لولا خشونة فيها.

فلما استخلف كان يُشترَى له الثوب بخمسة دراهم، فيقول: ما أجوده لولا لينه». [1]

عندما كان عمر بن عبدالعزيز ـ رضي الله عنه ـ في ريعان الشباب، والدنيا ترجح عنده أكثر من الآخرة، كان يميل إلى النعومة، ومع لين لباسه في تلك الفترة، إلا أنه بالمقارنة بما هو ألين منه يرى أنه خشن، وقد اختلفت الحال عندما كبر، وأقبل على عمل الآخرة، يدخر منه ما ينفعه فيها؛ حنيئذٍ اختلفت النظرة، وصار يرى الأمر بعين مبصرة للحق أكثر من السابق؛ فالخشن لا يرضيه، ويرى أنه ناعم إذا ما قورن بما هو أخشن منه.

ونظرات التقشف تجاه اللباس تتكرر من أولئك

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ٩.

الزاهدين في ترف الحياة، وتأتي بطرق مختلفة، وبعضها يدخل في العمل، وبعضها تدل عليه الأقوال، والقول الآتي أحدها:

«قال مسلم بن يسار:

إذا لبست ثوباً، فظننت أنك فيه أفضل مما في غيره، فبئس الثوب لك». [1]

والأصمعي، صاحب الأخبار الطريفة، والغريبة، يروي شيئاً يلمس اللباس، والقصة مع أعرابي، وهي كمايلي:

«قال الأصمعي:

لقيت أعرابياً، فاستنشدته، فأنشدني أبياتاً، وروى لي أخباراً، فتعجبت من جماله، وسوء حاله، فسكت سكتة، ثم قال:

أَأَخِـــي إِنَّ الَحـــادِثَـــاتِ
عَـــرَكْنَنِـــيْ عَـــرْكَ الأَدِيْـــم

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ١٠.

لاَ تُنْكِـــــرَنْ أَنْ قَـــــدْ رَأَيْـ
ـــتَ أَخَـاكَ فِـي طِمْـري عَـدِيْـم
إِنْ كُـــنَّ أَثْـــوَابِـــي يُلْبَسْـ
ـــنَ فَـإِنَّهُـنَّ عَلَـى كَـرِيْـم»[1]

والطرائف تترى، ويتوالى ورودها، ويؤتي بها لما فيها من تأثير، يوصل إلى الهدف من الفكرة التي تطرأ أحياناً في الذهن، فتصاغ على لسان إنسان متخيل، وهذه إحدى هذه الأفكار الطريفة، المبتدعة:

«نادى فقير على جبة، فلم تطلب بشيء، فقال:

ما علمت أني عريان إلا الساعة». [2]

ومن النصوص التي تؤكد أن الظاهر ليس مهماً، وإنما الباطن هو المهم، فإذا حَسُن هذا الباطن، فلا عبرة بالثوب غَلي ثمنه أو رخص، والنص التالي يؤكد أن الترف مع النية الحسنة غير منتقد، إذ قد مَثَّلَ هذه الحالة رجال اتخذهم المجتمع قدوة حسنة

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ١١.
(٢) ربيع الأبرار: ٤/ ١١.

له، والقصة كمايلي:

«كان ابن عباس يرتدي رداءًا قيمته ألف؛ واشترى تميم الداري حلة بألف، ليصلي فيها». [1]

ونسوق بعض النصوص التي يخالف أصحابها المجتمع في لباسهم، طلباً للمنطق، وكمال النفع؛ ورغم أنهم أقرب للصواب إلا أن النظرة إليهم تأتي نظرة تعجب، وإليك صورة من هذا:

«كان ببغداد رجل مجنون، يلبس فروته مقلوبة، ويقول: لو علم الله أن الصوف إلى داخل أجود جعل الصوف إلى داخل»[2]

فإذا كان هذا هو عمل المجنون، وهذا قوله، فالقول الآتي، والعمل الآتي، قول رجل من العلماء المعتبرين في مجتمعهم، وهو رجل عرفت عنه بعض الطرائف في أفعاله، وفي أقواله:

«كان الأعمش يلبس قميصه مقلوباً، ويقول:

---

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ١٢.
(٢) ربيع الأبرار: ٤/ ١٢.

الناس مجانين، يجعلون الخشن إلى نفوسهم، واللين إلى عيون الناس». [1]

وله موقف آخر، غريب على الناس، مما أوجب تسجيله، لطرافته، ولغرابته، وهو كمايلي:

«قال وكيع:

راح الأعمش إلى الجمعة، وقد قلبت فروته، وجعل على كتفه منديل الخوان مكان الرداء». [2]

والأعمش يعرف أن المرء مطالب بالتزين لصلاة الجمعة، لأنها صلاة جامعة، وقال الله عن مثل ذلك: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾. [3]

ومع هذا فهذا العالم الجليل قلب فروته، مما أصبح فيما عمل ملفتاً للنظر، مخالفاً لاعتبار المجتمع، ومشوهاً لصورة متفق عليها، وأكمل هذا بأن وضع على كتفيه غطاء السفرة، وهو شيء هيء لأمر مختلف.

---

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ١٢.
(٢) ربيع الأبرار: ٤/ ١٢، عيون الأخبار: ١/ ٤١٩.
(٣) سورة الأعراف: ٣١.

وقد نتساءل كيف كانوا يفعلون بثيابهم عندما يخلعونها، هل يعلقونها على مشجب، خارج الخزائن أو داخلها، أو أنهم يطوونها داخل صناديق؛ ويبدو أن الناس مختلفون في هذا، فبعضهم يضعها في صناديق، وبعضهم يضعها في خزائن، يعلقونها فيها تعليقاً؛ ولاشك أن بعضهم يعلقها على مشاجب أو أوتاد على الحيطان؛ ويبدو أن لمستوى عيش الإنسان دخل في تقرير الأمر، وبعض النصوص التي بين أيدينا تعطي صوراً عن بعض ذلك، وأحد هذه الأقوال التي ترسم صورة من هذه الصور النص الآتي:

«قال أيوب: يقول الثوب: اطوني أجملك»[1]

وهذا يدل على أن الثوب يطوى، والهدف المحافظة عليه في مظهره، فإذا لبسه الشخص مرة أخرى كان في حالة تجمل صاحبها، فلم يُترك مقذوفاً به، فتكون الثنيات فيه غير منتظمة، ويظهر للرائي عدم الاعتناء به، ولا يعلق على مشجب، فيعلوه الغبار، ويبهت

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ١٣.

ما قد يكون فيه من لون، نتيجة تعرضه للضوء، خاصة إذا عُلِّقَ فصلاً كاملاً، كأن يكون ثوب شتاء، عُلِّق حتى الشتاء القادم، أو ثوب صيف، عُلِّق طوال أيام الشتاء، حتى يحين لبسه في العام التالي.

ومن الأدلة على العناية بالثوب إذا نزع النص التالي:

«قال عمرو: يقول الثوب:

أكرمني داخلاً، أكرمك خارجاً.

وكان يقول: لكل شيء راحة، وراحة البيت كنسه، وراحة الثوب طيه». [1]

وفي النص الأول حث على الاعتناء بالثوب، إذا لم يكن في حالة استعمال، وزيادة في هذه العناية جُعِل الثوب نفسه يتحدث، ويَعِد بأنه إذا اعتني به في البيت، فإنه كفيل بأن يعتني بصاحبه خارج البيت، ويكرمه بأن يجمله أمام الناس؛ ولا يقلل من قدره، بل يرفع من مقامه، ويعلي من منزلته.

وفي النص التالي استعمل تعبير يجعل الثوب في

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ١٣.

منزلة الحي الذي يشعر، ومن جملة ما يشعر به تعباً وراحة المعاملة، وحددت الراحة في أن يعطى الثوب رغبته وهي طيه، وهذا غاية مناه.

وتزيد الصورة وضوحاً في نص يبين جوانب مهمة، وتأتي بطريقة حية، تكشف عن نظرة الناس إلى حالتين من حالات العناية باللباس عند نزعه، وعدم استعماله، والنص كمايلي:

«قال المتوكل لابن أبي قتن:

ثيابك يا أحمد في رزمة لا في تخت.

قال: كذلك هي، يا أمير المؤمنين.

قال: لا تفعل، إنها في التخت أبقى وأنقى، بَانَ لي ذلك في تكسرها». (١)

فراسة المتوكل، المُتَمِدَة على تفسير بعض الظواهر، أظهرت له قلة اعتناء أحد جلسائه بملابسه عندما ينزعها، فقد تكسرت الثياب، نتيجة وضعها في لفافة، تزيد في الطيات، مما يظهر فيها عيباً، لا يليق بمن

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ١٤.

هذا مستواه الاجتماعي، ودلت ملاحظة المتوكل على أنه ومَن في مستواه لهم تخوت (دواليب) يضعون فيها ثيابهم، أو صناديق واسعة، تسمح للثوب أن يوضع فيها بعد أن يطوى طية واحدة أو يطوى طيتين؛ وقد بين المتوكل فائدة هذه العناية التي اقترحها، فقال إنها تحفظه نظيفاً صافي اللون، وتطيل عمره، وتبعد عنه البِلَى.

ومظهر آخر من مظاهر دور الثياب، استفيد منه موعظة بالغة، أيقظت قلباً نائماً، وضميراً غافلاً، لم يكن ليفيد فيه القول المطلق، فكان لابد من شيء حسي مؤثر، يعطي هزة، يكون بها الاعتبار، وهذا ما أفادنا إياه النص التالي، وهو نص ثمين، لأنه جاء من رجل في منزل خطير:

«عرض للمتوكل، وهو يتنزه في حراقة، شيخ عليه مرقعة، فدعا به، وكساه ثياب خز، واستوهبه المرقعة، وقال:

يا كوثر (خادمه)، إذهب بها إلى أمي، وقل لها:

في الناس من يلبس مثلها، لتعلمي ما أنت فيه من النعمة». [1]

تُرى هل كانت والدة المتوكل قد طلبت منه شيئاً رأى أنه مغالىً فيه، فأحب أن ينزل رغبة والدته المفرطة من سمائها إلى أرض الواقع، ويقلم من أظفار تطلعها إلى ما قد يدخل في باب الإسراف، والإسراف يدخل في نطاق الحكمة القائلة «لا سرف إلا ومعه حق مضاع» فوجد أن الفرصة مواتية لينتزع الموعظة من هذا الموقف المحسوس، ويريها ما يبين الفرق بين ما تريده، وبين ما يجب أن تتدبره، وتتبصر به. وهذه موعظة بالغة، وُفِّق المتوكل إلى اقتناص سانح صيدها عندما مر بذهنه.

هذان قميصان صبغا بالحزن، ولونا بالفقد، وتشبعا بإحداث الألم والكآبة، وقِدْر الحزن لا يُجلس على اثنتين من الأثافي، ولابد من ثالثة حتى تستقر الجلسة، وثالثة الأثافي عادةً تكون أشدها وأعظمها،

---

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ١٨.

وأَحْرِ بقميص يوسف عليه السلام أن يكون كذلك .

وقميص يوسف عليه السلام سبق القميصين، المشار إليهما في حديثنا هذا، في الزمن، واختلف عنهما في الدم الذي حمله، فلم يكن الدم الذي على قميص يوسف دمه، وإنما أُوْهم أنه هو؛ وإخوة يوسف لم يتقنوا اللعبة، إذ عرف يعقوب بفراسته أنهم لم يكونوا صادقين، وأن ما فعلوه مكيدة، وقف أمامها عاجزاً، مسلّما أمره لله ـ سبحانه وتعالى ـ ويعقوب يعرف ما يكنه إخوة يوسف له من كره، وما قد يأتي منهم تجاهه من أذى وكيد؛ وقد رأى أن الدم على القميص أقل من أن يكون جاء من الفعل الذي وصفوه؛ ثم إن الذئب لا يصل إلى اللحم إلا بعد أن يمزق القميص إرباً، والقميص سليم من الأذى إلا من بقع دم طفيفة .

ثم هَبْ أن يوسف ليلعب قد خلع ملابسه ليتخفف للركض والجري، أَلَمْ يُبق الذئب شيئاً من عظامه يأتي بها إخوته ليدفنوها فيدفن والده، ووالدته حزنهما

معها؟ وقد بقي القميص مع يعقوب وأم يوسف، مثالاً للخيانة والغدر، وفيه ريح يوسف، لتبقى هذه الريح تذكر يعقوب بابنه، وقلبه يتلظى حزناً، ودمعه يسفح قهراً، حتى يأتي على نور عينيه، فيطفئه، لقد بيض الحزن سوادهما، وسود نور النهار أمامهما؛ ولم تزل الغشاوة، ويعود الضياء، ولم ينجل الحزن، ولم يبرق السعد، وتبتهج الدنيا، ويتسع الضيق، إلا عندما جاءت ريح قميص ثانية بعد سنوات وسنوات، ليجد فيها يعقوب بغيته، ووسيلة سعادته، وأداة نزع حزنه، ويحلف وهو يشم الريح من بعيد أنها ريح يوسف، مهما ظن فيه الظانون من الخرف، وبعد التصور.

وتنقلب الأمور فيبصر يعقوب، ويلعب القميص الثاني دوراً مغايراً لدور القميص الأول، ويشاء الله أن يأتي الشفاء التام، وتحدث المعجزة التي لا تأتي إلا ممن يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء؛ وكان هذا القميص أداة من أدوات الخير، وسبيلاً لجمع

الشمل بين متباعدِين وبرداً وسلاماً لقلوب كواها الحزن، وأحرقها اليأس.

وللخلفاء نظرات ذكية تتصل باللباس، ومثل الموقف الذي وقفه المتوكل مع الثياب السابقة، هناك موقف وقفه خليفة متبصر، والموقف مختلف، ولكن فيه من التدبر والتبصر، والوقوف للتفكير، والملاحظة الذكية ما يماثل الموقف السابق، والقصة كمايلي:

«دخل إبان بن صدقة بقباء جديد على المنصور، وعليه سوار خَلِق، فجعل ينظر إلى قبائه.

فغدا عليه من الغد، وعليه قباء خلق، فقال له المنصور: لِمَ غَيّرت؟

قال: كرهت أن يكون عليك خلق، وعلي جديد.

فقال له: أنت أحمق، ألبس أحسن ما عندك، فإن الناس يعلمون أني أقدر على ما أشاء من الثياب، وأنت إذا رأوك في ثوب خلق ظنوا أن ذلك من سخطي عليك، وأنك لا تقدر على شيء». [1]

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ١٨.

أبو جعفر المنصور، ثاني الخلفاء العباسيين، عالم نفسي، غاص على أعماق ما يدور داخل صدور الناس، باستقراء تصرفهم، فهدته تجاربه إلى أن يكون حكيماً في نظرته إلى الأمور، وما جهله جليسه أبان بن صدقة، الذي توهم أن الأدب يقتضيه أن لا تكسف شمس لباسه الساطعة قمر ثياب الخليفة الباهتة، فنبهه الخليفة، إلى ما كان غافلاً عنه؛ وأبو جعفر المنصور رجل مغلق، لا يُعرف ما يدور في صندوق صدره، فظن أبان أن نظرته تأنيب صامت على ظهوره بهذا المظهر الذي يبز به مظهر الخليفة، وأبو جعفر رجل مهيب لم يكن لأبان أن يسأله عن مرمى النظرة التي نظرها؛ ولهذا احتاط فأخذ جانب السلامة.

وفي هذا النص دليل على أن أبا جعفر لم تطغه الخلافة، فيتعلق منها بالقشور، بل فضل الاعتدال في ملبسه، ليكون قدوة، وليحد من تطلع من حوله من بني العباس، مما يكلف الدولة الحديثة ما لا تستطيعه في النفقات التي من السهل تفاديها، إذا هو أخذ

نفسه بخزمها عن طامح شهواتها .

وأبو جعفر المنصور من الخلفاء الذين شُوهت سيرتهم، واتخذ مما عرف عن حزمهم مدخلاً للطعن فيهم، ووصفهم بالقسوة، والظلم؛ وكان للشعوبية يد طولى في هذا انتقاماً من مقتل أبي مسلم الخراساني؛ ومقتل أبي مسلم له مبرره السياسي، فقد تبين أن من ساعد الدولة العباسية على الظهور على الأمويين هم العنصر الفارسي، أملاً في أن تصبغ الدولة العباسية بهذه الصبغة؛ وحاولوا أن ينقلوها في أول أمرها إلى السلسلة العلوية، وكان المنصور في شك من نية أبي مسلم، ورأى أن يتخلص منه قبل أن يستفحل أمره، فيصبح في موقف خطر يهدد بنسف الدولة الشابة .

ويدخل اللباس في التسلية، إن صحت الرواية، ولم تكن مؤلفة، وطرافتها توجب الشك فيها، والقصة هكذا :

«خاطر (راهن) الرشيد عيسى بن جعفر على مئة ألف أن يلبس ثوباً ليس له مثله، فلما لبسه قال له عيسى :

عندي فرش من هذا، فأحضره وأخذ المال.

ثم خاطره على مئة ألف أن يلبس جبة ليس له مثلها، فأحضر أحسن منها، وانصرف بمئتي ألف.

فاغتاظ الرشيد، فقال إبراهيم بن المهدي:

إن أحببت أن تسترجع المئتين، ومثلهما، فخاطره، وألبس البردة.

فدعا بِهِ فخاطره، فغلبه، وأخذ أربع مئة ألف وأعطاها إبراهيم». (١)

هذه القصة طريفة، ولكن يدخلها الشك من عدة نواح، أحدها طرافتها، مما يوحي بأن القصة ألحت على مؤلفها أن يخرجها بهذه الصورة، فأخرجها؛ وثانيها المراهن على مبالغ من المال تدخل في المبالغات المرفوضة من قبل دارسي أدب هذه الفترة؛ ثالثها أن المراهنة على ما يمكن أن يكون له مثيل، والبردة ليس لها مثيل يأتي به عيسى؛ والجزء المضيء في هذا هي البردة، وهي التي كان لبسها رسول الله ﷺ، ثم

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ٢٠.

وهبها لكعب بن زهير عندما اعتذر له ومدحه بقصيدته المشهورة:

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي اليَوْمَ مَتْبُولُ
مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

وقد اتخذها الخلفاء من جملة شعاراتهم، ولبسوها في بعض المناسبات الدينية. فكانت أثمن مما يلبسونه عادة من ثياب موشاة، ومطرزة بالذهب، ومرصعة بالمجوهرات.

وكانت الملابس المشهورة لعامة الناس تختلف باختلاف منازلهم، وقدرتهم على الشراء؛ والملابس تأتي من جهات عديدة، وكانت أحياناً تنسب إلى المكان الذي نسجت فيه، أو جاءت عن طريقه، وهذا نص يبين بعض تلك المواقع، وما نسب إليها من الثياب:

«يقال في الثياب المنسوبة:

برود اليمن، ووشي صنعاء، وريط الشام، وأردية مصر، وأكسية فارس، وديباج الروم، وحلل

البحرين، وعمائم الأبلّة، ومناديل دامغان، وتكك أرمينية، وجوارب قزوين». [1]

وللخرافة دور في أمر القماش واللباس، وهو يعطي صورة لاستعداد الناس لقبول الأمر الغريب، ولو كان منافياً للعقل، ومجافياً للمنطق، وهذا الخبر يدخل في هذا الباب من منفذ واسع، بل يستدعي ضحكة استهزاء تفتح الفم من الأذن إلى الأذن!

قال يزيد بن الخطيب:

بعثني الرشيد إلى ملك الروم، فأنس بي، وقال لي يوماً:

أريك شيئاً ما رأيتَ مثله قط!

فاستخرج إليّ ستر إبريسم، منسوجاً بالذهب، عرضه نيف وثمانون ذراعاً، في طول ذراع، ولم يتم بعد، في أعلاه مكتوب سطرين: «بسم الله الرحمن الرحيم، مما عمل لسام بن نوح». [2]

---

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ٢٢.
(٢) ربيع الأبرار: ٤/ ٢٩.

من الكاذب الملفق؟ أهو الراوي عن يزيد بن الخطيب؟ أم يزيد نفسه، أم ملك الروم، أو من روى عنه ملك الروم؟ ففي زمن سام بن نوح، لم تكن اللغة العربية ما يتكلمه سام، ولا قومه، ولا من عاصروه، وإن كانت اللغة العربية، فليست بهذه الصورة الحديثة، والبسملة صيغة إسلامية. إذاً ليس هناك ستر، وليس هناك كتابة، والقصة كاذبة، أما القصة التي ربما تكون صادقة، فهي الآتية، وهي تحمل صورة بهجة، ورسماً مضيئاً:

قرئ على ستر بالموصل:

هذا ستر حسن، وستر الله أحسن». [1]

وتشارك الملابس في مآسي الناس، وتصبح أحياناً هي البطل في الرواية، ويبهت ما حولها، وتبقى هي المتحدثة، وهي المُستَمَعُ لها؛ وإذا كان عليها نقطة دم، فقد تتسبب في برك من الدم طافحة، وهذا النص يري دور أحد الملابس المشهور

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ٢٩.

«قميص عثمان الذي قتل فيه مَثَلٌ فيما يهيج الحزن، ويجدد الحسرة، والبكاء.

وعن عمرو بن العاص أنه لما أحس من العسكر فتوراً أشار على معاوية بأن يبرز لهم قميص عثمان؛ فلما وقعت عيونهم عليه ارتفعت ضجتهم بالبكاء والنحيب، وجَدُّوا في الحرب، فعندها قال:

حرك لها حوارها تحن». (١)

وقميص آخر منعت بقع الدم التي فيه، ولو مؤقتاً، أن تتكرر المأساة، وقد اتخذه أحدهم في موقف مخالف لموقف عمرو، فعمرو اتخذ القميص وسيلة للتحريض، وسبباً للاثارة، أما المعتز، فاستفاد من قميص مماثل لتهدئة صولة، وإخماد نار أريد لها أن تتأجج، فتضيف إلى الدم دماً أكثر، والقصة كالآتي:

«لما قتلت الترك المتوكل، بمواطأة المنتصر، وأفضى الأمر بعده، وبعد المستعين، إلى المعتز، لم تزل أمه قبيحة تحرضه على الانتصار من قتلة أبيه، ويعلم أن

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ٣٢.

لا قوة به عليهم.

فلما طال به الانتظار أبرزت له قميص المتوكل، الذي قتل فيه؛ وجعلت تبكي وتضرع؛ فقال:

يا أماه، ارفعي القميص، وإلا صار قميصين. فعندها سكتت». [1]

وفي هذه المرحلة من الحديث يحسن أن نأتي بشيء عن أنواع اللباس، ووقته، ومن يلبسه من الناس، واختلاف فئة عن فئة في هذا، وتميز بعض المهن عن بعض في اللباس، وما يعنيه هذا الاختلاف، وما يدل عليه هذا التباين، وأول النصوص في هذا النص التالي:

«ولكل قوم زيّ، فللقضاة زيّ، ولأصحاب القضاة زيّ، وللشرط زيّ، وللكتاب زيّ، ولكتاب الجند زيّ». [2]

ومن المؤكد أن لغير هؤلاء من عامة الناس زيّ،

---

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ٣٣.

(٢) البيان والتبيين ٣/ ١١٤.

وقد يختلف التجار عن أصحاب الأملاك، وعن المزارعين وهكذا.

ونص آخر يتحدث عن أصحاب السلطان، وما يلبسونه، وكيف أن الأمر غير ملزم للبس نوع دون آخر مادام يتناسب مع مقام المجلس، والجالس فيه، وهو هكذا:

«وأصحاب السلطان، ومن داخل الدار، على مراتبهم؛ فمنهم من يلبس المبطنة، ومنهم من يلبس الدراعة، ومنهم من يلبس القباء، ومنهم من يلبس البازبكند (لباس على الكتف)». [1]

أما الشعراء فقد أورد الجاحظ عنهم نصاً اختصهم به، وهو كمايلي:

«وكانت الشعراء تلبس الوشي، والمقطعات، والأردية السود، وكل ثوب مشهّر.

ولعل هذا يعطيهم تميزاً يعرفون به، وعلى أساسه

---

(١) البيان والتبيين ٣/ ١١٤.

يعطون الاعتبار اللائق بهم، ولا يقبل الشعراء أن يشذ أحد عن الطريق الذي رسم لهم، وارتضوه، وإذا حاول أحد منهم الخروج عن القاعدة، تناولوه بسلاحهم الماضي، وهو الهجاء، وقد لا يكون هجاء قاسيا، أو لا يكون ليناً، هذا يتوقف على نوع المخالفة، ونوع الشاعر المخالف، وهذا مثل من أمثلة المخالفة، والالتفات الغاضب على صاحبها:

«قد كان عندنا، منذ نحو خمسين سنة، شاعر يتزيّا بزيّ الماضين، وكان له بُرْدٌ أسود، يلبسه في الصيف والشتاء، فهجاه بعض الطُّيَّاب (الفكهون المزّاحون) من الشعراء، فقال في قصيدة له:

بِعْ بُرْدَكَ الأَسْوَدَ قَبْلَ البَرْدِ
فِيْ قَرَّةٍ تأتيك صَمَّا صَرْدِ[1]

ومن بعض ما خالف به أحد الشعراء زملاءه مخالفة بَشَّارٍ لهم في طريقة تفصيل قميصه، إذ جاء فيه بما قد يكون مساعداً له على التخلص منه، وقد

(١) البيان والتبيين ٣/ ١١٥.

يكون أملى ذلك أنه مكفوف البصر، والخبر كما جاء به الجاحظ هكذا

«كان لِجُرّبان (جيب القميص) قميص بشار، وجبته لَبِنتان (رقعتان تعملان لموضع جيب القميص)، فكان إذا أراد نزع شيء منها أطلق الأزرار، فسقطت الثياب على الأرض، ولم ينزع قميصه من جهة رأسه قط». (١)

ويبدو أن القميص مهم، وهو في اللباس عندهم مثل عمل «الفنيلة» عندنا اليوم، بل لعله هي تماماً، ومع هذا فأحد الشعراء المرموقين، والبارزين المقدَّرين، لم يعط للمقيص أهمية، فلم يلبسه طوال حياته، ولا يبدو أن أحداً تعرض له بهجو، وهذا هو الخبر:

«وقَدوَيْه العدوي الشحّاجي، لم يلبس قط قميصاً، وهو اليوم حيّ، وهو شيخهم، وهو شيخ كبير». (٢)

وإذا كنا بدأنا حديثنا عن اللباس في مراحل

---

(١) البيان والتبيين ٣/ ١١٦.
(٢) البيان والتبيين ٣/ ١١٦.

الإنسان الأولى، وكيف كان اللباس متواضعاً، لا يزيد عن الاستجابة للحاجة، إما الوقاية من البرد، أو الحر، أو ستر العورة، وكما رأينا ما وصل إليه في عصور الحضارة، حتى أصبح يضرب برونقه أو نعومته المثل، ليتبين المقصود، أو ليضفي على الموصوف به بعض الضياء والبهرج، وهذا الجاحظ يعطينا نصاً في هذا، فيقول عن العرب:

«ووضعوا كلامهم في أشعارهم، فجعلوها كبرود العصب، وكالحلل، والمعاطف، والديباج، والوشي، وأشباه ذلك». [1]

لقد استعاروا المحسوس والملموس، ليقربوا الصورة الجميلة للغة العربية لتصور السامع، فنجحوا في هذا، وقد جاؤا بأبهى الحلل، وبأكثر الملابس سطعة ورواءًا، فالبسوها صورة اللغة العربية، فَزَهَا المنظر المتخيل، والصورة الذهنية.

وعندما أراد شاعر أن يرسم صورة للحمد لم يجد

(١) البيان والتبيين ١/ ٢٢٢.

أفضل من مادة زاهية ثمينة مفيدة محترمة وهي اللباس المهم، وهو الرداء يلبس فوق المئزر، فيقول عن الحمد:

«وَمَـنْ يَعْتَطِفْـهُ عَلَـى مِئْـزَرٍ
فَنِعْـمَ الـرِّداءُ عَلَـى المِئْـزَرِ»[1]

والشعر لأبي الجماهر جندب بن مدرك الهلالي.

وابن ميادة يسلك المسلك نفسه عندما أراد أن يرسم صورة الثناء والمدح، الذي أراد أن يوشي بهما سمعة ممدوحه، وهذا ما قاله:

«نَعَـمْ إِنَّنِـي مُهْـدٍ ثَنَـاءً وَمِـدْحَـةً
كَبُرْدِ اليَمَانِيّ يُرْبِحُ الْبَيْعَ تَاجِرُه»[2]

وشاعر آخر لا يختار ثوباً بعينه يصف به شعره، ولكنه يمثله باللباس كله، وبفائدته للابسه صيفاً أو شتاءاً.

وهذا ما قاله الشاعر:

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٢٢٢.
(٢) البيان والتبيين ١/ ٢٢٢.

«فَإِنْ أَهْلِكْ فَقَدْ أَبْقَيْتُ بَعْدِيْ
قَـوافِـيَ تُعْجِـبُ المُتَمَثِّلِيْنَـا
لَـذِيْـذَاتِ المَقَـاطِـعِ مُحْكَمَـاتٍ
لَوْ أَنَّ الشِّعْرَ يُلْبَسُ لارْتُدِيْنَا»[1]

ويكاد هذا الجانب من التشبيه يقتصر على الشعراء، ولعل هذا راجع إلى تميز الشعر بالرقة في الوصف، وجمال الصور. ومن أبيات قيلت في هذا الصدد، وشبه فيها القول بالثياب اليمنية الفاخرة، أبيات قالها أبو قرودة يرثي فيها ابن عمار قتيل النعمان ونديمه، ولهذا قصة، والبيت الذي يهمنا هو البيت الآتي:

يَا جَفْنَةً كَإِزَاءِ الحَوْضِ قَدْ هَدَمُوا
وَمَنْطِقاً مِثْلَ وَشْيِ الْيَمْنَةِ الحَبِرَهْ

(الإزاء: مصب الدلو في الحوض).[2]

عندما أراد أبو قرودة أن يرثي صديقه الذي قتله النعمان بعد أن أخذ منه السُّكْر مأخذه، لم يجد أن

(١) البيان والتبيين ١/ ٢٢٢.
(٢) البيان والتبيين ١/ ٢٢٣.

يصف حسن حديث ابن عمار، وفصاحته، وسحر قوله إلا بالحبر اليمنية الموشاة.

ووشي البرود يغري بالاستعارة لمدح الأقوال حتى أصبح كأنه قاعدة لازمة لذلك، فتمثيل الفصاحة، وسلاسة القول مثل وشي البرود في الأبيات الآتية:

«وقيل في مديح أحمد بن أبي دواد:

وَعَـوِيْـصٍ مِـنَ الأُمُـوْرِ بَهِيْـمٍ
غَامِضِ الشَّخْصِ مُظْلِمٍ مَسْتُور
قَـدْ تَسَهَّلْـتَ مَـا تَـوَعَّـرَ مِنْـهُ
بِلِسَـانٍ يَـزِيْنُـهُ التَّحْبِيْـر
مِثْلَ وَشْيِ البُرُوْدِ هَلْهَلَهُ النَّسْـ
ـجُ وَعِنْدَ الحِجَاجِ دُرٌّ نَثِيْر»[1]

وجميل بن معمر يدلي بدلوه في الدلاء في هذه الركية المخطوبة، فيجعل حبيبته نسجت على خشبتين، في حين أن غيرها من النساء نسجن على خشبة واحدة، ولهذا فهي أقوى منهن، لأنها مثل قوة الثوب الذي

(١) البيان والتبيين ١/ ٢٢٣.

له سديان . يقول جميل في هذا :

«نَمَتْ فِي الرَّوَابِيْ مِنْ مَعَدٍّ وَأَفْلَجَتْ
عَلَى الخَفِرَاتِ الغُرُّ وَهْيَ وَلِيْدُ
أَنَاةٌ عَلَى نَيِّرَيْنِ أَضْحَى لِدَاتُها
بَلِيْنَ بَلاَءَ الرَّيْطِ وَهْيَ جَدِيْدُ»(١)

والأيام في مرورها تسحب ذيلاً كما يسحب البشر ذيل الثوب، والأيام تبلى كما يبلى الثوب، ولكن قلبه يبقى جديداً رغم مرور الأيام، وانعدامها بالبلى، ويقول عن هذا أبو يعقوب الحريمي :

«تَمُرُّ بِهِ الأَيَّامُ تَسْحَبُ ذَيْلَهَا
فَتَبْلَى بِهِ الأَيَّامُ وَهُوَ جَدِيْدُ»(٢)

ووشي البرود اليمانية وَحِبَرُها إذا كانت تمدح لبهائها وهي جديدة، ولرونقها، وحسن نسجها، فإنها تمدح وهي قديمة، وقدمها لا يزيدها إلا قيمة عند مالكها، ولهذا شبه الشاعر حبيبته التي دلفت

(١) البيان والتبيين ١/ ٢٢٣ .
(٢) البيان والتبيين ١/ ٢٢٤ .

إلى الكبر، وأصبحت عجوزاً، إلا أنها لا تزال ملء السمع والبصر، ولهذا يقول

«أَبَى القَلْبُ إِلاَّ أُمَّ عَمْرٍو وَحُبَّها
وَمَنْ يَحْبِبْ عَجُوزاً يُفَنَّدِ
كَبُرْدِ اليَمَانِي قَدْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ
وَرُقْعَتُهُ مَا شِئْتَ فِي العَيْنِ وَالْيَدِ»[1]

هذه بعض المواقف التي أسعف القماش، ووافت الملابس الشاعر فيها بما يسد حاجته من الوصف، والملابس تكاد تأتي أينما اتجه نظر الإنسان، فهي مثلاً في عناوين الكتب القديمة، لجأ إليها الكتاب عندما أراد أحدهم أن يتفادى التعبير المباشر، وأحب أن يأتي بقول أفصح، ويلفت النظر، والعنوان مقال أو كتاب دوره الأول لفت النظر، وقد جاء عنوان أحد الكتب كمايلي:

«فضل (أو تفضيل) الكلاب على كثير ممن لبس الثياب». [2]

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٢٢٤.

(٢) لمحمد بن خلف المرزبان، مكتبة المعارف، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م؛ أو المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

ويبدو أن مادة «لبس» فيها جاذبية تجعل الناس لا يتركون ممكنا إلا لمسوه منها؛ فالعامة إذا اختل عقل أحد قالوا إن الجن قد لابسته، والحديث عن اللباس يكاد لا يخلو منه كتاب، لأنه ملازم للإنسان، والإنسان مادة الكتب، فعندما يريد حكيم أن يوازن بين العز والذل، ويعطي الإنسان الخيار في أحدهما، مبصراً له بفوائد هذا، ومضار ذاك، فإن اللباس يتسلل بهدوء إلى التعبير، مثل ما جاء في هذا النص:

«قال حبيب بن ثابت:

أن تعز في خَصَفَة خير لك من أن تذل في مطرف». (١)

وإذا لم يأت اللباس في حكمهم صريحاً، فهو يأتي ضمناً، أو تَلْمِيحاً، كما جاء في رواية للأصمعي عن النظافة، وهي هنا توحي بأن المقصود نظافة الملابس:

«ذكر لأيوب هؤلاء الذين يتقشفون، فقال:

ما علمت أن القذر من الدين». (٢)

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٤١٨.

(٢) عيون الأخبار: ١/ ٤٢٣.

هؤلاء يتقشفون فلا يلبسون إلا أرداً الثياب، وتبقى الثياب على أجسامهم مدة طويلة، فلا تغسل، ولا تغيّر حتى تبلى، أو تتمزق، ويبتعدون عن غسل أجسامهم كلما احتاج الجسم إلى ذلك، ظناً أن هذا يوفي لهم دينهم، وما دروا أنه ينقص الدين، فالنظافة من الإيمان، وصحة الدين.

وتقوم مناقشة طريفة، وحوار عميق، وجدل له مرام بعيدة، يأتي من رجل للمجتمع إليه نظرة احترام وتقدير، مما يجعل لكلمته وزناً، ولرأيه قيمة، وهذا ما جاء منه في هذا الصدد، معتذراً اعتذاراً متقناً مبتكراً عن هدية عرضت عليه:

«قال رجل لإبراهيم بن أدهم:

يا أبا اسحاق، أحب أن تقبل مني هذه الجبة كسوة.

قال إبراهيم: إن كنت غنياً قبلتها منك، وإن كنت فقيراً لم أقبلها.

قال: فإني غني.

قال: كم عندك؟

قال : ألفان .

قال : فيسرك أن تكون أربعة آلاف؟

قال : نعم .

قال : أنت فقير ، لا أقبلها» .[1]

إنه جدل مبتكر لرد الهبة ، ولعله لم يأت بَعْدَ إبراهيم ـ رحمه الله ـ من اتخذه قدوة في هذا ، لأن قبول الهدية منصوص عليه في الشرع .

وإذا كان اللباس دخل في أمور كثيرة مما يمس الإنسان ، فإن الألغاز كان لها نصيب منها ، والألغاز تلعب دوراً بارزاً في الحياة الفكرية عند الناس ، لأن فيها تحريك للذهن ، ودفع له أن يعمل بأقصى طاقته ، وبكل ما فيه من قدرة ، فإنّ كسب صاحبه ، إذا حل اللغز ، ثمين ، سواء كان مادياً أو معنوياً ، وهذا هو النص الذي يلمس هذا الجانب :

«قال أشعب لفقيه :

ما تقول في صلاة صليتها في ثوبين؟

(١) عيون الأخبار : ٢/ ٣٩١ .

قال: هي جائزة في ثوب، فكيف في ثوبين!
قال: هما جورب وقلنسوة». [1]

في هذا خدعة، وفيه مغالطة، ولو أراد الفقيه أن يسعى للنصر لوجده في تعريف «الثوب» فهل «الجورب» ثوب أو هل «القلنسوة» ثوب؟

والحديث عن اللباس، أو الرداء، أو الثياب، طويل، وهناك جوانب لم نتطرق إليها، مثل تطور الثياب، وتغير المسمى تبعاً لذلك، فهناك القباء والجبة والقفطان، والجوخة، والصاية، والزبون، وغيرها، فما هي إلا أسماء لشيء واحد، أو متقارب الشكل، متفق الاستعمال.

ولعل من خير ما نختم به حديثنا عن اللباس قول ابن عباس ـ رضي الله عنه:

«كل ما شئت، والبس ما شئت، إذا أخطأتك اثنتان: سرف أو مخيلة». [2]

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ١٠٦.
(٢) ربيع الأبرار: ٤/ ١٢.

أما لمن لا يستغنون عن الشيء فقول الشاعر :

خَـاطَ لِـيْ عَمْـرُو قُبَـاء لَيْـتَ عَيْنَيْـهِ سَـوَاء

ونقف هنا، خوفاً من أن نفتح باباً نجد أن وراءه منافذ، تؤدي بنا إلى مثلها، توصل إلى متسع متعدد من القول المتشعب، فيطول القول، وقد طال، والمقال لا يتحمل أكثر من ذلك؛ ونعتذر للباس، فهو غال، بالنسبة لنا، إذْ لا غِنى لنا عنه، صيفاً أو شتاءًا، ليلاً أو نهاراً، داخل المنازل أو خارجها، سفراً أو إقامة.

***

التربية والتعليم

تربية الأولاد وتأديبهم أمر عرفه الناس منذ أن عرف الآباء الأبناء، تدفع الأب عاطفته نحو ابنه، فيطمح أن يشب، ويصبح مفخرة له، وينفعه وينفع نفسه، وإن كان أحد يرجو لأحد أن يكون أحسن منه لكان الوالد تجاه ولده، في الأحوال المعتادة.

وهذه العاطفة المشبوبة تكون أحياناً سبباً في انتفاع الصبي من تربيته، وأحياناً تكون وبالاً عليه فتكون نفعاً إذا جاءت من بصير بالأمر، فأحسن تأديب ابنه، مقدراً سن الابن، وما يتناسب معه، فيكيل له ما يفيد عقله بمكيال موزون لا يزيد ولا ينقص. وتكون وبالاً عليه إذا تحمس الوالد تحمساً ينسيه مقدرة ابنهِ في ضوء سنه، وما حباه الله به من استعداد؛ فهذا الحماس، والرغبة غير المتبصرة، في أن يصبح الطفل أو الصبي في درجة يصعب عليه الوصول إليها، تجعل الوالد يضغط على ابنه، مدفوعاً بما يتصور أن

ابنه يجب أن يصل إليه من مستوى وتحصيل، فينقلب الأمر إلى خلاف ما أراد، فإما أن ينفجر الصبي، أو يحيد عن الطريق إلى ما يوصله إلى كره العلم والتوجيه.

ولكل زمان نوع من التأديب والتربية والتعليم، ولكل بيئة في القديم ما يناسبها من ذلك؛ ولابد أن أمور التربية والتأديب في الأزمان الغابرة مرت بأدوار متتالية من التشكل والتطوير فبعض المجتمعات كان الأمر يتركز فيها على إنشاء الطفل على ما يخدم الحروب، إن هجوماً وإن دفاعاً، إن أفراداً أو جماعة. وبعض المجتمعات يسيطر عليها حب المهن وخدمتها، لأن فيها كسب العيش، والمساعدة على مقابلة متطلبات الحياة؛ وبعضها ينشأ الصبي ليكون عارفاً بالبحر ورحلاته، وما يلزمه من فن للإجادة فيه وبعضها تكون التربية والتعليم فيه على تعلم العيش الناجح في مجتمع الغابات وما يحتاج إلى صيد، وحيل مختلفة لضمان البقاء، في مجتمع أهله عرضة لهجوم وحوش الحيوانات والإنسان.

وكان هذا مظهر التأديب في العصور القديمة، وفي المجتمعات غير المتمدنة ويتركز الأمر على معرفة أبسط أمور الحياة ثم تطور الأمر مع الحضارة، ومظاهرها المختلفة في أزمانها المتتابعة؛ فأصبح الأمر ذا طبيعة مختلفة؛ وأصبح لكل فئة من المجتمع نظرتها المختلفة لأبنائها، فتربية أبناء الملوك والأمراء، تختلف عن تأديب أبناء التجار، وهؤلاء يختلفون في تربية أبنائهم عن أصحاب المهن وغيرهم.

وسوف نسوق بعض أمثلة من تراثنا الإسلامي والعربي لتتبين لنا نظرة أهلنا في الماضي إلى ما يجب أن يكون عليه أبناؤهم، والوسيلة اللائقة التي عليهم أن يسلكوها، سواء هم أنفسهم، أو مما يرتضونه نائباً عنهم في تأديب أبنائهم، وتنشئتهم النشأة التي يعتقدون أنها أصلح لهم في مستقبلهم. وسننظر في بعض النصوص التي سوف ترينا جانباً من جوانب التأديب عندهم، ومراميها، وأهدافها، ومقاصدها، وما يكمن وراءها من فكر وفلسفة؛ ولعل هذا يعطي

فرصة للمقارنة بين نظرة آبائنا في ذلك الزمن، ونظرتنا اليوم.

قد نجد في تأديبهم أولادهم ما يدهشنا استحساناً أو عدمه، وقد نستغرب وصولهم إلى بعض النظريات الحديثة مما كنا نظن أننا السابقون إليه، في حين أنهم سبقونا إليه قبل أجيال وأجيال؛ وقد يكون ما سوف نذكره يري أن بعض التصرف كان مبنياً على قواعد ثابتة في المجتمع، رُضي بها أسساً للتربية والتعليم، أو هي اجتهاد فردي عمد إليه من هداه فكره إليه، ودلته فطرته إلى ما فيه من مزايا وفوائد.

فالحجاج كان في أول حياته معلم صبيان، والمتوقع منه أن يركز على هذا الجانب، ويحث عليه، ولكن الحجاج، وهو المفكر النابه، فكر في سلامة جسم الطفل قبل زيادة عقله، لأن الوسيلة للمحافظة على الجسم تحتاج إلى صغر السن، وتقل إجادتها إذا كبر، بل لعل الطفل إذا أصبح رجلاً قد لا يستطيع أن يستفيد من هذه الوسيلة، والوسيلة التي نرمي إليها،

وفائدتها لصحة البدن هي السباحة، والسباحة مهمة للمرء، لأنها بجانب متعة مزاولتها، لا يدري الإنسان متى يحتاج إليها حاجة تتوقف عليها حياته. فقد يجد نفسه في بحر عليه أن يقطع مسافة منه ليصل إلى بر النجاة، وقد يفاجئه سيل جارف يقضي على حياته إن لم يكن يجيد السباحة، أما العلم ففي نظر الحجاج أنه يأتي تالياً لتعلم السباحة؛ ولعل السباحة فيما بعد عندما يبدأ الصبي تعلم القرأة والكتابة تكون له بمثابة الإحماض، والراحة بعد التعب.

«قال الحجاج لمعلم ولده:

علّم ولدي السباحة قبل الكتابة، فإنهم يصيبون من يكتب عنهم، ولا يصيبون من يسبح عنهم». [1]

والحجاج يستقي رأيه هذا في تأديب أبنائه من المجتمع الذي هو فيه، فهو يتحدث عن خبرة فيه، ومعرفة أكيدة؛ والحجاج الذي كان يؤدب أبناء الناس، وأصبح الآن، بحكم مركزه، واعتلاء مقامه،

(١) البيان والتبيين: ٢/ ١٧٩، بهجة المجالس: ٢/ ٧٦٩، عيون الأخبار ٢/ ١٨٢.

يأتي بمن يؤدب أبناءه، ينطلق من تجربته السابقة، وتدبره في الحاضر.

وعتبة بن أبي سفيان، وهو يفكر في أنجح الوسائل لتربية أبنائه وتهذيبهم، يملي رأيه على مؤدبهم، فيركز في توجيهه على الجوانب النفسية التي قد لا يتنبه لها إلا قليل من الناس، وهي، في الحقيقة، تلعب دوراً رئيساً في حسن تأديب الصبيان؛ وهذا التوجيه يدل على أن عتبة أدار الفكر في ذهنه، وَقَلَّبه على جوانبه، فجاء برأي صائب، يدل على عقل مستنير، وفكر ثاقب، وهذا ما قاله لمؤدب ولده:

«ليكن إصلاحُك بَنيّ إصلاحَك نفسك، فإن عيونهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبيح ما استقبحت؛ وعلمهم سير الحكماء، وأخلاق الأدباء؛ وتهددهم بي، وأدبهم دوني، وكن لهم كالطبيب الذي لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء؛ ولا تتكلن على عذر مني، فإني قد اتكلت على كفاية منك». [1]

(١) عيون الأخبار ٢/ ١٨٢، ربيع الأبرار: ١/ ٥٢٣.

لقد لمس عتبة عدة أمور مهمة، وكانت واضحة في ذهنه، ويدرك تماماً أهميتها، وفائدتها للمؤدب وللأبناء، فهو يعرف مدى تأثير المؤدب على هؤلاء الصغار، ومدى ثقتهم به، فهو يريد أن يكون لهم القدوة، لا في أقواله فقط، وإنما في أفعاله؛ وعليه، على هذا، أن لا يأتي منه إلا الحسن؛ ثم ينتقل إلى جانب آخر من جوانب التربية، وهو العلم الذي يجب أن يسكبه في بلور عقولهم؛ وسير الحكماء فيها النفع ومثلها أخلاق الأدباء؛ ثم ينتقل إلى التأديب، وهو العنصر الثالث في هذه التربية، فيؤكد عليه أن يلوح لهم بغضب عتبة دون أن يستعين به عليهم، حتى لا تقل هيبة والدهم عندهم مع تكرار العقاب، الذي قد يكون ذنبه صغيراً. وإذا كان لابد من عقاب، فلا يتسرع فيه، فقد يغنيه عنه ما هو أقل منه، أو قد يكون دواؤه التغاضي والتسامح؛ ثم ختم هذا بأن على المؤدب الا يلتمس العذر في التأديب أو تركه على عتبة، لأن عتبة اعتمد على الله ثم كفاية

المؤدب، إن عتبة بهذا مَدْرَسة قائمة متكاملة؛ وإذا تبع المؤدب ما نصح به عتبةُ فأحْرِ بالأبناء أن يكونوا من خيرة من تعلم.

وعتبة في توجيهه لمؤدب ولده لم يتطرق إلى العلوم الأساس مثل قراءة القرآن والحديث، ومعرفة الكتابة، وإجادة الخط، لأن هذه أمور يتوقع أن لا يجهل منها المؤدب أي شيء؛ ولكنه نبهه إلى الأمور الإضافية التي يختارها كما يَحْتاج متعلم اليوم إلى بعض الأمور التي تكمل مواد التخصص في الجامعات؛ وركز عتبة على سير الحكماء، لأنها تحمل الحكمة التي يحتاجها أبناؤه لقطع طريق الحياة بنجاح، أما أخلاق الأدباء ففيها تهذيب للذوق، وبدونه تصبح الحياة جافة قاسية.

أما عبدالملك بن مروان فطلب من (الشعبي) مؤدب ولده أموراً فيها تفصيل أكثر، وهي تدلنا على ما كان يجري في محيط عبدالملك في ذلك الزمن مما كان مقبولاً أو مرفوضاً، وقد رسم عبدالملك صورة

واضحة لهذا؛ وعبدالملك لم يقتصر مثل عتبة على ثلاثة أمور أساس أو أربعة، وإنما تعداها إلى ما يبدو لنا طريفاً، وهذه هي الأمور التي تطرق إليها عبدالملك:

«علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن، وجنبهم السَّفِلة فإنهم أسوأ الناس رِعَة، وأقلهم أدبا، وجنبهم الحشم، فإنهم لهم مفسدة؛ واحفِ شعورهم تغلظ رقابهم، وأطعمهم اللحم يقووا؛ علمهم الشعر يمجدوا وينجدوا؛ ومرهم أن يستاكوا عَرْضاً، ويمصوا الماء مصاً، ولا يعبوه عبا؛ وإذا احتجت إلى أن تتناولهم بأدب فليكن ذلك في ستر، لا يعلم به أحد من الحاشية، فيهونوا عليه». [1]

بدأ عبدالملك بما رأى أنه يحتل المكان الأول والأوفى في ذهنه، وهو الصدق، ولا أحد يجهل أهمية الصدق للإنسان، ولهذا قرن تعليمه والتعود عليه بتعليم القرآن الذي لا يعدل أهميته وقيمته في تربية النشء شيء؛ وإذا كان الصدق المطلوب له هذه الهالة من

(١) عيون الأخبار ٢/ ١٨٢، ربيع الأبرار: ١/ ٥٢٤.

الضياء فإن خلافه وهو الكذب عليه طبقات من الظلمة ترعب وتخيف؛ ولا يعدل عيب الكذب عيب، فالكذب يمحو الثقة، ويجعل المرء ورأيه منبوذاً من مجتمعه، ومرفوضاً من محيطه.

ثم انتقل إلى من يجب ألا يجالسهم أبناؤه فيبين أن أسوأ الناس في الورع، ورعاية الحقوق، والوفاء بالعهود، هم سواقط الناس وسفِلتهم، لأنهم تعودوا على أخلاق متدنية، لا يرون فيها حرجاً، ومخالطة من لم ينضج لهم تجعله يتعوّد عاداتهم، ولا يرى فيها حرجاً، وهي تتسلل إلى نفسه، بحكم العادة، دون أن يدري، فيألفها، وقد يرى فيها ما يتناسب مع طبائع الشّر فيه، وهي الطبائع التي لم تهذب بعد، والتي أحد أهداف التأديب تتجه نحوها، مثل القسوة على الحيوان، والتلفظ، دون تحفظ، بألفاظ الفسق، وقلة الاعتبار للنظافة، وهكذا كل أمر يقدم عليه هؤلاء يرى فيه المتعلم المهذب تدنيا في الخلق، وسفالة في التصرف.

ونرى في مجتمعنا شيئاً من هذا، نرى الفرق بين من تعلم، وعاش في محيط مهذب، ونرى آخر لم يتعلم، وعاش في محيط تسيطر عليه السفالة والانحطاط، وما التربية والتعليم اليوم، وهو واجب ترى الدول أنه من أول واجباتها، إلا سَعْي لرفع مستوى المجتمعات، والابتعاد بها عن الانحطاط الخلقي، وإضاءة أفكار الناشئة بالعلم الذي يهديهم الله بسببه إلى مواطن الرقي والتقدم، ليكونوا أعضاء نافعين في مجتمعهم؛ وهي مهمة صعبة، وتأخذ من الدول جهداً ومالاً، ولكن الجهد والمال يهون عند معرفة النتيجة التي تأتي من هذا الإلتزام.

وقد حدد عبدالملك أحد المحيطات التي يرى أنها لا تناسب أبناءه، وتوشك أن تجذبهم إلى منحدر لا يليق بهم، وهو محيط الخدم والحشم؛ لأن طموح هؤلاء لا يرقى إلا إلى مهنهم، وما فيها من التحاسد، والمكائد، وضحالة النظرة والفكر؛ فالجلوس معهم، والاختلاط بهم يجعل الصبي يؤخذ ببعض المقدرة

على الأعمال المهنية التي يبهره منها اتقان الخادم لها، مما يجعل له منزلة في النفس تتعدى المنزلة الحقيقية، فينال من الاحترام والاقتداء ما لا يجوز أن يحدث؛ ولهذا أبرز عبدالملك هذا الجانب، وحذر منه.

وما يلفت النظر هو قول عبدالملك: «واحْفِ شعورهم تغلظ رقابهم»، ويبدو أن أمر شعر رؤوس الصبيان كان شاغلاً للناس في كل زمان، وليس في زماننا فقط؛ ففي زماننا، لو تتبعنا ما مر بمجتمعنا، لرأينا عجباً، ففي زمن مضى كان ترك الشعر يطول حتى يعمل منه «جدائل»، تنوس على جانبي الكتفين هو المقبول؛ ثم تلاه زمان مثل هذا يوجب الالتفات والانتقاد؛ وأصبح المقبول هو أن يحلق الشعر بالموس كل شهر أو ما يقرب منه، ثم جاء وقت أصبحت حلاقة الرأس على قاعدة «التواليت» هي رغبة الشباب، ونفور الشيوخ؛ ثم لما زاد اتصال الناس بالعالم، وسهل هذا الأمر، أصبح الشاب في ظرف سنة أو سنتين يتبنى عدداً من قصات الشعر؛ وبقي أمر

الشعر، وأهميته للشاب، شغله الشاغل، والسبب أن الشعر جزء من جمال الشاب، وهو حريص الا يقل، لأن الجنس الآخر مهم عنده، والجنس الآخر يهمه مثل هذا الأمر.

ولكن عبدالملك عندما يأمر بحف الشعر وقصّه يعطي تعليلاً عجيباً؛ وهو أن هذا يجعل الرقبة تغلظ، ولعل الغلظة تكون في الجلد، لتعرضه للشمس والريح؛ وهذا يبعد الصبي عن الترف، ويجعله خشناً ليقابل الحياة، وما فيها من خشونة.

ولأن عبدالملك يهمه أن يكون أبناؤه أقوياء حث مؤدبهم أن يزيد لهم في أكل اللحم؛ وهذا أمر مقبول، وفيه بناء لجسم الشاب، لما فيه من البروتينات التي يحتاجها الناشئ؛ وما يلفت النظر هو أن يكون هذا الأمر موكولاً للمؤدب؛ مع أن المؤدب ينصرف الذهن عند التفكير في عمله إلى أنه مختص بتربية العقل والروح والذوق، ولا دخل له بالبدن في تلك الأيام، ولكن هذه الفكرة في ضوء هذه الجملة، قد

تكون خاطئة، وأن الحقيقة أن مؤدب الأمس مثل معلم اليوم الذي يختص بالجسم في التمارين الرياضية، والأشراف على المقصف المدرسي.

وجانب تربية البدن، والاهتمام بالغذاء، جاءا في ذهن المربي القديم عرضاً، ولم يكونا ثابتين حينئذٍ عند كل الناس؛ أما اليوم فالرياضة تأخذ حيزاً رئيساً وواسعاً من النهج اليومي للطالب، ومثل ذلك التغذية؛ ومن زيادة الاهتمام بالنشاط الرياضي أنه أحيانا يُبدأ به اليوم الدراسي للطالب، ثم يَتْبع حصة أخرى في وسط الدروس، أو قرب نهايتها؛ وكثيراً ما لجأ مديرو المدارس عند غياب مدرس إلى تكليف مدرس الرياضة بأن يحل محله، وهذا أمر محبب من الطلاب، ومن مدرسي الطلاب من جيلنا الحالي.

والتغذية عنصر مهم في حياة الإنسان، وإذا كان من وقفوا في العصور الماضية وقفاً خيريا على التعليم، فمنهم أيضاً من أضاف سكنا وتغذية، لمعرفتهم

بأهمية الراحة الذهنية للمتعلم، وصحة الجسد؛ ومربوا اليوم عرفوا قيمة التغذية للطالب، فأدخلوا نظام المقاصف، ليفيد من لم يمونه أهله بما يساعده على تحمل الجوع في فترة الدراسة، بعد أن تباعدت المسافة بين البيت والمدرسة، ولم يعد بإمكان الطالب أن يذهب إلى البيت للغداء، والعودة إلى المدرسة؛ وتطورت المقاصف المدرسية ولا تزال تتطور، ولن تزال.

ثم انتقل عبدالملك إلى مادة أخرى من مواد الدراسة التي اختارها لولده، فقال: «علمهم الشعر يمجدوا وينجدوا» والشعر ديوان العرب، وكل الصيد في جوف الفرا؛ تاريخ العرب فيه، وأمجادهم فيه؛ فيه صور حياتهم، ومناظراتهم؛ ينتقل ابن الجيل الدارس إلى عصر الجاهلية، وأول عصر الإسلام، فيرى بعينه خيالاً ما سمعه، ويلمس بأصابعه عن قرب، وبلغة راقصة فصيحة، ما فاته من هذا الأمر. ويمجد الأبناء باستيعاب مجد آبائهم، وينجدوا ويرتفعوا

بما لهم من تراث، ويكون التوازن بين هذا وبين ما طغى على المجتمع الإسلامي من أخبار الأمم الداخلة في الإسلام، مضمونا؛ وبين هذه الأمم الأعجمي المتعصب عصبية عمياء، ولا يكفيه انحيازه لأمجاد أمته، ولكنه يجعل هذا على حساب أمجاد العرب؛ فيقلل من قيمة التراث العربي، ويشوه صورته، ويدس فيه، وعليه؛ ولهذا رأى عبدالملك، بثاقب بصيرته، أن يعطي أبناءه المناعة تجاه هذا الأمر، ويعطيهم الملكة لتذوق فن متميز من فنون أمتهم، حتى لا يكونو اليد الدنيا أمام من يقف أمامهم غداً من المحكومين، فيتطاولوا عليهم بما كان بإمكان والدهم تداركهُ لهم، وفيهم، وقد علل عبدالملك هذا الحرص على هذه الوصية بأنها السبيل إلى نيل المجد والرفعة، وهي بحق كذلك.

وكان من نتيجة مثل هذه الوصية من حفظ الشعر، وتعلمه، والغوص على معانيه، ومعرفة كنه مراميه، أن أصبح هناك خلفاء شجعوا هذا الفن، وأجازوا

عليه الجوائز الطائلة، مما دفع حامليه إلى الإتقان والتطوير حتى تكون منه ثروة لا تقدر بثمن؛ وقد لا توجد أمة على وجه الأرض عندها هذه الحصيلة من الشعر بفنونه المختلفة، والسير في سلم التطور، وسلوك مختلف السبل الممكنة، لجعله يصبح بهذا المنظر المنفرد في عالم الأدب، ومن تابع في كتب الأدب الجوائز التي كانت تعطى على الإجادة فيه، يرى إلى أي مدى كان تأثير الشعر على السامع.

ويدهشنا حقاً أن يقول عبدالملك لمؤدب ولده: ومرهم أن يستاكوا عرضاً؛ وهذا أمر انفرد به أهل ذلك الزمن، أو لعل عبدالملك هو الوحيد في زمنه الذي أدخل أمر السواك في حصص التربية، ووَكل بها مؤدب أولاده؛ وهو أمر لم يصل إليه أهل زمننا، وأقرب ما اقتربوا منه لهذا مراقبة الأظافر، وقص الشعر؛ أما الأسنان فتحميها الشفتان، خاصة وأن التلميذ أمام معلمه لا يفتر ثغره في الغالب عن ابتسامة!

والطب الحديث حتى اليوم يختلف مع عبدالملك،

فهو ينصح بالسواك طولاً، وينهي عن السواك عرضاً، وله في هذا حجته، ويقدم أمام قوله تبريره، ويجمع الأطباء على هذا، ولكن كفة رأي عبدالملك ترجح، لأن الناس يصيخون بأسماعهم لعبدالملك، ولا يسمعون لرأي الطب الحديث، رغم ثقتهم بأنه مبني على أسس من المنطق سليمة؛ ولكن رأي عبدالملك يتماشى مع طبيعة حركة اليد، وتكوين الأسنان، مما يجعل الحركة عرضاً أسهل من الحركة طولاً، وقد أضاف أحد أنصار رأي عبدالملك في عصرنا الحديث، أن السواك طولاً قد يدخل الفضلات بين السن واللثة، وفي هذا من الأذى ما فيه، أما السواك عرضاً فإنه أشبه بالكنس يأخذ السطح ثم يتعمق إلى ما بعده، دون أن يجازف بحشر شيء بين اللثة والسن إلا عند استعمال المسواك فإن السواك طولاً للثنايا أسهل.

أما مص الماء، وشربه على دفعات، فأمر حث عليه التأدب سابقاً، والصحة لاحقاً؛ ومظهره يدل

على قلة النهم؛ وفيه من مظاهر الرزانة ما فيه؛ على أن يتم هذا دون صوت، فإن صحبه صوت قضى على كل ركن جمال فيه، وأصبح مزعجاً.

ولابد أن عبدالملك انطلق باهتمامه بهذا الجانب الفرعي من أمر أهمه كثيراً، مما قد يكون شائعا في مجتمعه، مما حدا به أن يفرد له جملة قائمة في هذه النصيحة القيمة، فقد تكون هناك ظاهرة عب الماء عبا، وهو أمر تتجنبه حتى الحيوانات السائمة.

ثم ينتقل إلى أمر مهم جداً، وهو التأديب على الخطأ، أو الإهمال، أو التهاون، أو قلة الالتفات والاكتراث، وهي أمور متوقعة من المتأدب في سن مبكرة؛ والمدارس الفكرية فيها تختلف قديما وحديثا، بعضها يحبذ الضرب، وبعضها يكره الإقدام عليه؛ وبعضها يوجبه علنا، وعلى رؤوس الأشهاد من الطلبة، وبعضها يرى أن لا يكون مشهوداً؛ ويبدو أن عبدالملك رجح عنده هذا، فهو يقول لمؤدب ولده: «وإذا احتجت إلى أن تتناولهم

بأدب، فليكن ذلك في ستر، لا يعلم به أحد من الغاشية، فيهونوا عليهم». وعبدالملك لم يختر هذا ـ كما رأينا ـ جزافاً، وإنما بناه على جانب نفسي واضح، وهو أن هذا يزيل هيبة من حول أولاده من الخدم والحشم، وهو يريد أن يبقي هذه الهيبة لهم؛ أما التأديب أمامهم فيكسرها؛ لأنها تثبت نقصهم، كما تنقص من قدر من أدبه السلطان في السوق أمام العامة، مما يجعل له اعتباراً متدنياً في المجتمع، فلا تقبل شهادته مثلاً؛ وقد يتجنب من فئة من المجتمع في الإلتصاق بها، والاختلاط شرف يأتي للفرد بفائدة عظمى؛ فإذا لم يحصل على هذا الشرف فإنه يعاني كثيراً، مما ينغص عليه حياته، وقد يتعدى هذا في الغالب إلى عائلته.

وعبدالملك نص على الغاشية من الخدم والحشم، لأن أبناءه يدرسون في البيت، وليسوا في مدرسة فيها طلاب آخرون، وإلا فربما أكد على تأديبهم بخفية من زملائهم، إلا إذا كان أمر التلاميذ في نظره يختلف

عن أمر الحشم، لأن التلاميذ عرضة للخطأ والعقاب، وفي هذا ردع للبقية قبل مزاولة الخطأ؛ هذا أمر لا ندري عنه، فعبدالملك لم يتطرق له، ولكن تطرق له أصحاب مدارس الفكر التربوية في العصور الحديثة، وصالوا فيه وجالوا، واختلفوا واتفقوا؛ وسوف يبقى هذا الاختلاف مادامت النظرة للأمر من زوايا مختلفة.

ومادمنا بصدد العقاب فلعله يجمل بنا أن نقف أمام نص طريف، فيه تسلية، وفيه صورة عما يراه بعض الآدباء في تربية أولادهم، وعقابهم مقابل ذنب ارتكبوه، وتبدو فيه مظاهر تضارب العقل مع العاطفة؛ والنص قاله قاض بارز، له مقامه في مجتمعه، وفي مركزه، وهو شريح؛ ورأيه كما نرى جاء به في صورة شعر بديع، يخاطب به مؤدب ابنه:

تَرَكَ الصَّلاةَ لأَكْلُبٍ يَسْعَى بِهَا
طَلَبَ الهَرِاشِ مَعَ الغُوَاةِ الرُّجَّسِ
فَـإِذَا خَلَـوْتَ فَعُضَّـهُ بِمَـلاَمَـةٍ
وَعِظْهُ وَعْظَكَ لِلأَرِيْبِ الكَيِّسِ

وَإِذَا هَمَمْتَ بِضَرْبِهِ فَبِدِرَّةٍ
وَإِذَا بَلَغْتَ بِهَا ثَلاَثاً فَاحْبِسِ
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ مَا فَعَلْتَ فَنَفْسُهُ
مَعَ مَا يُجَرِّعُنِي أَعزُّ الأَنْفُسِ»[1]

لقد جرع ابن شريح شريحاً غصصاً بلهوه مع الكلاب النجسة، الملهية عن الدرس، فحرك عليه مؤدبه ليعضّه عضّاً يحمل روح اللوم والعتاب لمن ينفع فيه مثل هذا، لإدراكه وفهمه؛ وإن أحوج الأمر إلى التأديب بالضرب فهذا مقبول على أن يكون بدرة، وأن لا يزيد عن ثلاث ضربات، وقد لبس شريح بهذا ثوب القاضي، وقرر أقل حدود التعزير؛ ولم ينس أن يذكر المعلم أن لا يزيد في الأمر، لأن المؤدب أعز عليه من نفسه، لأنه فلذة كبده.

والكلاب في بعض المجتمعات ملهاة للصبيان عن الدراسة، ولأنها مطاردة داخل المدن، فهي تتواجد خارجها على حافة الضواحي، وقرب البساتين، إذ

(١) عيون الأخبار ٢/ ١٨٣.

تجد المأوى نهاراً في ظل شجر الأثل وغيره، ويربيها بعض الشباب، ويعارك بها، وهي مقر فخر بينهم؛ يعطونها أبهج الأسماء، ويطعمونها بما يقتطعونه من زادهم، بخفية من أهلهم؛ ولكن الأمر لابد أن ينكشف، ويتضح المخفي، ويتبين المستور.

ومن القواعد في تربية الناشئ أن يكون العقاب من جنس العمل، ومتساوياً معه في الشدة أو اللين؛ لأن الاختلاف في أحد الأمرين يؤدي إلى المحذور؛ وليس كل عمل لا يقبل من الصغير يعاقب عليه؛ وقبل العقاب يجعل المؤدب نفسه في مكان المخطئ، فقد يجد أن ما أوجبه يحول دون عقابه؛ بل إن بعض الأخطاء من شراسة وأمثالها عند بعض الناس لا تخلو من فائدة، وقد روي عن ابن عباس أنه روى عن النبي ﷺ قوله:

«عرامة الصبي في صغره زيادة في عقله إذا كبر». (١)

فإذا صح هذا عن النبي ﷺ فهو قاعدة يمكن أن

---

(١) محاضرات الأدباء: ٢٤.

يُنطلق منها إلى تفسير بعض المظاهر، فالعرامة لا تأتي إلا من جرأة، والجرأة مطلوبة، وقد تبلغ قمتها عندما يحمل هذا الصبي، إذا كبر، السلاح، ويكون في المقدمة؛ لأن روحه لم تحطم بالعقاب وهو صغير؛ ولكن هذا لا يعني أن يترك دون تهذيب أو تشذيب، ولكن يسبق العقاب الموزون التبصير والتأنيب؛ وهذا يلزم معه الصبر والتحمل، فلا يعمد المرء إلى الكي من أول آهة.

وننتقل إلى توجيه آخر لمؤدب آخر، أخذ الأمر من زاوية جديدة، تلمس جانباً مهماً في تربية النشء، وتُري أن بعض هموم التربية اليوم ما هي إلا صدى لما كان قائماً في أذهان المربين في العصور السابقة والنص هكذا:

«وقال آخر لمؤدب ولده:

لا تخرجهم من علم إلى علم حتى يحكموه، فإنّ اصطكاك العلم بالسمع، وازدحامه في الوهم، مضلة للفهم». [1]

(١) عيون الأخبار ٢/ ١٨٣، ربيع الأبرار: ١/ ٥٢٤.

وهذا أمر يتنافى مع ما عليه عامة مدارس العصر الحديث، من تعليم الناشئ علوماً متعددة، يأخذ الطالب درساً في ساعة، ويأخذ آخر في ساعة أخرى، وقد ينتقل من القرآن ودراسته إلى الحساب ومعالجته، ثم إلى الجغرافيا، والإرتواء منها، ثم إلى التاريخ والاستزادة من عذب مياهه؛ فإن رأى السابق أن هذا اصطكاكاً للعمل بالسمع رأيناه إحماضاً، وهروباً من الملل، وإراحة لجانب من جوانب التفكير، والخروج إلى زاوية أخرى، تلهي المرءَ فائدتها عن الوهم المشار إليه في النص.

ولعلهم بحكم طريقتهم في التدريس، والمقدرة على إحضار المدرس إلى البيت، ليعلم طفلاً أو طفلين، قادرون على تطبيق ما يدعون إليه من درس علم حتى إتقانه، والانتقال إلى آخر؛ مع أنه عرف في زمنهم تنقل المريد من حلقة إلى حلقة، وفي كل حلقة تخصص مختلف عن آخر؛ إلا إذا كانوا يتسامحون في هذا لمن شب عن الطوق، وأصبح ذهنه بمنأى عن الوهم المذكور.

ونعود إلى أمر التأديب بالضرب، والنظرة إليه في العصور الأولى، والإيمان بفائدته، فنجد أحدهم يقول عنه:

«قال أبو الحسن العُكلي عن عبدالله بن بكر بن عبدالله المزني عن أبيه: قال لقمان:

«ضرب الوالد ولده كالسماد للزرع». [1]

وهو قول مغالىً فيه حتى لو أضفنا إليه «عند الخطأ»، والعارفون من العامة يقولون اليوم: إن الضرب يميت القلب؛ أي يقضي على الإحساس، ويجلب التبلد. وخطورة الضرب أنه قد يصبح عادة، فيُضرب الطفل على أدنى هفوة، ويصفع على أتفه خطأ، ويجلد على أقل زلة.

وخطورته أيضاً أنه يأتي وقت الحنق على الطفل، وهذا قد يدخله مرحلة التشفي والانتقام، فيتعدى كثيراً ضرب التعزير، وقد يحدث عاهة، تبقى طوال العمر، فتكون مصدر ندامة دائمة، وتأنيب ضمير

(١) عيون الأخبار ٢/ ١٨٤.

متصل؛ هذا يراها بألم، وهذا يشعر بها بأسى.

وكثير من الصغار تركوا الدراسة، وتشردوا في حياتهم بسبب العقاب البدني الشديد، أو المتواصل، ومع حرمانهم من التعليم بهذا السبب عانوا في كسبب المعيشة، إذْ قابلوا الحياة بدون سلاح، أو بسلاح غير ضارب؛ والسبب جهل والد، أو تعنت مدرس، والتعليم على هذا لا يقوم بأوده خير قيام إلا من هيأه الله لذلك، وأعطاه سعة الصدر، وشدة التحمل، مع حزم يختلط بالرأفة، وتقدير الأمور حق قدرها؛ وفي وزارة المعارف أحد الأمور المقلقة للمسؤولين هو أمر الضرب، وقد مَنَعَتْهُ، وأكدت على هذا، وقام في وجهها اعتراض من بعض المدرسين، لأنهم يرون أن هذا يفقد المدرس سلطته وهيبته، والوزارة ترى أن الهيبة في محبة الطلاب لمدرسهم، واجتذابه لهم، لا بإخافتهم وإرهابهم.

وقد منعت الوزارة حمل العصا، فلجؤا إلى المساطر والعُقل؛ وكثر عقاب المدرسين على الضرب، خاصة

وأنه وجد أن معظمه نتيجة استفزاز من المدرس، في موقف كان بالإمكان تفاديه، وقلب أمر العصيان إلى طاعة وود؛ والوزارة لم تلغ الضرب كلية، ولكنها نظمته، فتركته في يد المدير، أو هيئة من المدرسة، حتى تضمن أن يمر فترة بين الخطأ والعقاب، وتبرد حرارة الغضب لدى المدرس؛ ويكون المعاقب غير الحانق، وهذا أقرب إلى السلامة، وإلى أن يأتي العقاب بالفائدة المرجوة منه؛ ولا يزال الأمر مصدر قلق، لأن جهة ترى أمراً، وجهة أخرى ترى خلافه؛ وكم مرة انقلب العقاب على المدرس عقاباً صارماً، لأن الأمر تعدى الحدود، وانتهى بنتيجة مؤلمة للطالب، لم يستطع المدرس عند التحقيق الدفاع عن فعله.

ونأتي إلى رأي أحد المربين البارزين، وهو الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وما وجه به تجاه تنشئة الصبيان، وما يحتاجون إليه في ذلك؛ وقد أخذه ـ رضي الله عنه ـ من حاجة مجتمعه، وما يُتطلع إليه في شباب ذلك الجيل. والرواية كالآتي:

«حدث محمد بن عبيد عن معاوية بن عمرو عن إسحاق عن ابن المبارك عن أسامة بن زيد عن مكحول، قال:

كتب عمر إلى أهل الشام:

علموا أولادكم السباحة والرمي والفروسية». (١)

وكل واحد من هذه الأمور له أهمية، وتقوم عليه الطمأنينة في الحياة، لأن هذه الوسائل من الوسائل الموصلة للأمن، والوقوف أمام مخاطر تتفق مع طبيعة هذا المبدأ الرئيس؛ فالإنسان في هذه الحياة يحتاج إلى أن يتزود أمام حوادث الغرق، التي تأتي من وجود الإنسان في البحر، أو النهر، أو التعرض لسيل جارف؛ والرماية فيها دفاع عن النفس، وهجوم عند اللزوم؛ ومثلها الفروسية وهي مظهر من مظاهر الرجولة، ووسيلة من وسائل الحرب، وإتقانها وقاء بإذن الله.

وهذه الأمور عند العرب مهمة في ذلك الزمن،

---

(١) عيون الأخبار ٢/ ١٨٤، الكامل للمبرد: وفيه اختلاف، وزيادة: «ورووهم ما يجمل من الشعر»: ١/ ٣٤٤.

وبقيت مهمة اليوم، وإن تغير مظهر الرمي ووسيلته، وكذلك الفروسية أصبحت بركوب الطائرات الحربية، والدبابات، وغيرها من الوسائل الحربية الحديثة؛ وبينها ما يحتاج إلى تعلم وإتقان، وتدريب متناه.

والعرب تنظر إلى السباحة والرمي والكتابة ورواية الشعر نظرة عالية، لأثر كل واحدة منها على من يتعلمها، لأهميتها في هذه الحياة، فإذا سعى إنسان إلى تعلمها، ونجح في أن تجتمع فيه، حصل بين قومه على أعلى درجات الاعتبار والإكبار والتقدير، ولهذا:

«كانت العرب تسمي الرجل، إذا كان يكتب، ويحسن الرمي، ويحسن العوم (وهي السباحة)، ويقول الشعر، الكامل». (١)

والتأديب في التربية يأخذ حيزاً من ذهن الوالد، وذهن المؤدب، في كل الأمم، وما سجل في هذا المجال يأخذ أحياناً طابع الرمز، أملاً في قبول فكرة أحد التربويين، التي تبناها بعد فكر وتمعن، وقد

(١) عيون الأخبار ٢/ ١٨٤.

تكون القصة الآتية عن أنوشروان ومعلمه صحيحة، وقد تكون رمزاً وضع ليؤدي الغرض الذي أُلِّفت القصة من أجله، والقصة طريفة، وهي كمايلي:

«كان معلم أنوشروان يضربه بلا ذنب، ويأخذه بأن يمسك الثلج في يده، حتى تكاد كفه تسقط، فآلى: لئن ملكت لأقتلنه؛ فلما ملك هرب، فأمّنه، فأتاه، فسأله عن الضرب ظلما، فقال:

لتعرف حقد المظلوم إذا ظلمته.

قال: أحسنت، فالثلج الذي كنت تعذبني به؟

قال: ستعرف ذلك.

فغزا، فأصبحوا في غداة باردة، فلم يقدروا على توتير قسيّهم، فوترها لهم، فقاتل وظفر، فعرف مراد مؤدبه». (١)

ويحتار المرء عندما يرى الخير والنية الحسنة يأتي منهما مشقة كان بالإمكان تفاديها، ويكاد الإنسان لا يصدق ما حدث لغرابته، ولكنه أمر غير مستحيل

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٥١٢.

مع أولئك الذين تسيطر عليهم فكرة واحدة، فلا يلتفتون إلى غيرها من جوانب الأمر، مما قد يكون ضياء يهدي إلى نفع أكثر مما بدا في الرأي الأول؛ والقصة الآتية خير مثل لهذا:

«كان لعامر بن عبدالله بن الزبير ابن لم يكن يرضى سيرته، فحبسه، وقال:

لا أخرجك حتى تحفظ كتاب الله.

فأرسل إليه:

يا أبت، قد حفظت كتاب الله، فأخرجني.

فأرسل إليه:

لا بيت خير لك من بيت جمعت فيه كتاب الله، فأقم.

فما أخرج إلا لجنازة عامر. ولقد دخل شاباً، وأخرج شيخاً». [1]

ويلوح بين النصوص التي تلمس التربية نص مضيء، يري فضيلة التريث والصبر عند المربي المدرك،

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٥٢٦.

تجاه تلميذ وقع في عيب خَلْقِي، أخل بتحصيله للعلم، وربما أثر على نفسه. جاء هذا المدرب بالعلاج الشافي؛ وكان علاجاً يحتاج إلى وقت طويل؛ ويحتاج إلى سعة بال؛ والجميل في هذا العمل، الذي تم بانجاز كامل، أن صاحبه تطوع ليقوم به؛ ولم يكن مستأجراً؛ وكان الرجل واثقاً من نفسه، ومؤمناً بدوائه، والقصة هكذا:

«حدث أبو الفتح أحمد بن علي بن هارون بن يحيى ابن المنجم، قال:

كنت، وأنا صبي، لا أقيم الراء في كلامي، وأجعلها غيناً، وكانت سني إذا ذاك أربع سنين ـ أو أقل أو أكثر.

فدخل أبو طالب المفضل بن سلمة ـ أو أبو بكر الدمشقي ـ شك أبو الفتح ـ إلى أبي، وأنا بحضرته، فتكلمت بشيء فيه راء، فلثغت فيها، فقال له الرجل:

يا سيدي، لِمَ تدع أبا الحسن يتكلم هكذا؟

فقال له: ومَا أصنع، وهو ألثغ؟

فقال له: وأنا أسمع، وأحصل ما يجرى وأضبطه: إن اللثغة لا تصح مع سلامة الجارحة، وإنما هي عادة سوء تسبق إلى الصبي أول ما يتكلم بتحقيق الألفاظ، أو سماعه شيئاً يجتذبه، فإن ترك على ما يستصحبه من ذلك مرن عليه، فصار له طبعاً، لا يمكنه التحول منه، وإن أخذ بتركه في أول نشوئه استقام لسانه، وزال عنه؛ وأنا أزيل هذا عن أبي الحسن، ولا أرضى فيه بتركك له عليه.

ثم قال: أخرج لسانك؛ فأخرجته فتأمله فقال:

الجارحة صحيحة، قل يا بُني: راء، واجعل لسانك في سقف حلقك.

ففعلت، فلم يستوِ لي، فمازال يرفق بي مرة، ويخشن علي أخرى؛ وينقل لساني إلى موضع موضع من فمي، ويأمرني أن أقول الراء فيه، فإذا لم يستو نقل لساني إلى موضع آخر دفعات كثيرة، في زمان طويل، حتى قلت راء صحيحة في بعض تلك المواضع التي نقل إليها لساني، فطالبني بإعادتها،

وألزمني ذلك حتى استقام لساني، وذهبت اللثغة، فأمر أن أطالب بهذا أبداً، ويُتقدم به إلى معلمي، ومن يحفظني، وأُوخذ بالكلام به، ولا يتسمح لي بالغلط فيه، فَفُعِل ذلك، ومرنت عليه، وما لثغت إلى الآن». [1]

والاجتهادات الفردية، التي تأتي من شخص عنده تبصر وتدبر، ويحسن الاستفادة من الأناة في الفكر، تأتي بنتائج باهرة، في أي زمن، سواء كان ذلك في عصور التراث، أو في العصور الحديثة، كما حدث لمعالج اللاثغ بالراء؛ وكما جاء من رأي سديد أبداه الشيخ طاهر الجزائري، ورواه عنه الشيخ علي الطنطاوي:

«روى الشيخ على الطنطاوي عن الشيخ طاهر الجزائري، قوله:

إن جاءكم من يريد تعلم النحو في ثلاثة أيام، فلا تقولوا له: إن هذا مستحيل، بل علموه، فلعل

---

(١) تاريخ بغداد: ١٢/ ١١٩.

اشتغاله هذه الأيام بالنحو تحببه إليه، فيقبل عليه». [1]

هنا يظهر الاحساس التربوي، وتطل الحكمة، وتحكم التجربة؛ فالشيخ طاهر رأى ببصيرة واعية أن يدخل طالب النحو داخل سور العلم، ورجا أن يطيب له المقام، وفي دخوله أمل، يجب أن يقوى مع كل خطوة يخطوها؛ أما صدّه بإعطائه الحقيقة جافة فسوف يبقيه خارج الحيّز، ومادام في الخارج فهو بعيد عن التذوق، والأمل قطع من أول وهلة؛ وكم من تلميذ اقتيد بالحكمة والسياسة، وحسن التصرف والكياسة، إلى أمر لم يكن ليقبله لو لم يُقْتَدْ بهذا الرسن الخيّر، بما يكمن خلفه من نية سامية، وهدف نبيل؛ والله سبحانه يعين بقدرته ورحمته صاحب النية الحسنة، لعامل الخير الذي يدفئ نفسهَ بالعاطفة السمحة.

والابن يبقى ابناً لوالده مهما بلغ في السن، ونصائح الأب التربوية تلاحقه مادام والده حيّاً، لأن عاطفة الأبوة في العادة لا تموت، ولا تضعف،

(١) رجال من التاريخ ٣٦٩.

بل قد يزيدها الزمن قوة، ويشحذ حدها، ويصقل جوانبها؛ وقد جاءت نصيحة الخليفة العباسي المنصور لابنه المهدي مؤكدة لذلك، ومؤكدة أهمية إعمال الفكر في الأمور التي تواجه المرء في حياته، وتحريك العقل في الاتجاهات المختلفة، حتى تُستوعب جميع أوجه التدبر والتبصر، فلا يبقى جانب من الجوانب، التي يمكن أن تؤخذ في الاعتبار، إلا اعطيت الالتفاتة اللائقة بها، وهذا نص النصيحة، ومظهر التعليم والتأديب:

«قال أمير المؤمنين المنصور لابنه المهدي:

يا أبا عبدالله، لا تبرمنّ أمراً حتى تفكّر فيه، فإن فكرة العاقل مرآة تريه قبيحه وحسنه». [1]

فالفكر جوهرة ثمينة، لإنها أداة قادرة على معالجة كل أمر يمر بالإنسان، وإذا أعطيت الوقت للاستيعاب، والإناة للتبصر، جاء فيها الرأي السديد؛ فهي بهذا أداة ثمينة، وإعطاؤها حقها في التدبر يأتي في إتاحة

---

(١) مجالس ثعلب: ١/ ١٨٧.

الفرصة لها لتقوم بعملها على الوجه الأكمل؛ فإذا تم لها هذا جاءت بما يؤكد أصالة جوهرها، وارتفاع قيمتها.

والأولاد في مرحلة التأديب شغل آبائهم الشاغل، ولهذا فالآباء يقلبون النظريات طلباً لما يجدون فيه الإقناع ليسلكوا المسلك الحسن في تأديب أبنائهم؛ وليس الأمر سهلاً، فمن الأمور التي عادة يجد الآباء أنها محيرة، جانب الصرف على أولادهم، خاصة في زمننا هذا؛ هل يوفرون لهم جميع ما يطلبونه، حتى لا يحتاجون إلى طلب ذلك من غيرهم، ممن قد يضع على الأبناء التزامات غير خلقية تودي بمستقبلهم، وتعرضهم للفشل؛ أو هل يقسطون عليهم ولا يعطونهم إلا الكفاف، حتى يشعروا بقيمة المال، فيحافظوا عليه عندما يكونون في وضع المؤتمن عليه عندما يكبرون؟ وقد ورد في أقوال الأولين ما يدل على أن أمراً مثل هذا قد أهمهم، وأقلق مضجعهم؛ وبين هؤلاء من قرر في هذا الأمر، وتبنى رأياً من

الرأيين؛ يقول أحد الآباء في هذا:

«من حق الولد على والده أن يوسع عليه حاله كي لا يفسق». [1]

والأمر بالغ الصعوبة في زمننا لكثرة المغريات، وتوفر الامكانات، وتطلع الشباب إلى التمتع بها، ومباهاة بعضهم بعضاً بما يحصل عليه أحدهم نتيجة إعطاء والده له كل ما يطلب، رغبة منه في أن لا يحوجه التطلع إلى ما يشتهي أن يطلبه ممن يشترط شروطاً مهينة له، فيسخره لما قد يكون فيه فسق وفساد وانحراف؛ وبهذا أصبحت التربية في هذا الزمن صعبة، ويحتاج المرء إلى أن يكون يقظاً تجاه أبنائه في مراحل نموهم المختلفة، وأن تكون عينه عليهم، لمعاجة الخلل من أول ظهوره، والقضاء على بذرته قبل أن يستفحل، فتتعذر معالجة الداء، وتنعدم فائدة الدواء.

والأبناء في تحصيلهم، وقبولهم لما يلقى إليهم،

---

(١) المستطرف: ٢/ ٢١.

يختلفون، فهناك الأذكياء، والمتابعون ممن اعتنى ذووهم بهم، ودأبوا على تقصي تحصيلهم، فجاؤا عند حسن ظن أهلهم، الذين لم يضع تعبهم عليهم سدى؛ وهناك من ينقصه الذكاء؛ أو تنقصه من والديه العناية، فيخونه عقله، ويتخلى عنه ذكاؤه؛ فيأتي منه ما يخيب الظن، ويقطع الرجاء، كما في القصة الآتية:

«قال رجل لولده، وهو في المكتب:
في أي سورة أنت؟
قال: لا أقسم بهذا البلد، ووالدي بلا ولد.
فقال: لعمري من كنت أنت ولده، فهو بلا ولد». (١)

وهذه القصة، ولها أشباه وأنداد في زمننا، لا تقل عنها في طرافتها وغرابتها، قد تكون مقولة لم تحدث وإنما تخيلها قائلها.

وتعليم الصبيان ليس بالأمر السهل إذا كانوا مجتمعين، فهم طاقة طاغية لا يستطيع إلا القليل من

(١) المستطرف: ٢/ ٢٥٠.

المعلمين السيطرة التامة عليها؛ ويعتقد بعض الكتاب القدامى مثل الجاحظ أن عقل المعلم يتدهور بمزامنة الصبيان، وقد حمل الجاحظ حملة شعواء على المعلمين، واتهمهم بالغباء، وأقل ما قال: إن من أمثال العامة عنهم:

«أحمق من معلم».[1]

ولا يخلو الجاحظ من تحامل على معلمي الصبيان، وقد يكون بعض ما ساقه عنهم مؤلفاً ومتخيلاً، لما فيه من طرافة تكاد تخرج عما يتحمله الواقع، وهذه إحدى القصص التي ذكر فيها ما جرى بينه وبين أحد معلمي الصبيان:

«ألفت كتاباً في نوادر المعلمين، وما هم عليه من التغفل؛ ثم رجعت عن ذلك، وعزمت على تقطيع ذلك؛ فدخلت يوماً مدينة، فوجدت فيها معلماً في هيئة حسنة، فسلمت عليه، فرد علي أحسن رد، ورحب بي، فجلست عنده؛ وباحثته في القرآن، فإذا

(١) البيان والتبيين: ١/ ١٤٨.

هو ماهر فيه، ثم فاتحته في الفقه والنحو، وعلم المعقول، وأشعار العرب، فإذا هو كامل الآداب؛ فقلت هذا والله مما يقوي عزمي على تقطيع الكتاب.

قال: فكنت اختلف إليه وأزوره، فجئت يوماً لزيارته، فإذا بالكتّاب مغلق، ولم أجده، فسألت عنه: فقيل: مات (له ميت)، فحزن عليه، وجلس في بيته للعزاء.

فذهبت إلى بيته، وطرقت الباب، فخرجت إلي جارية وقالت: ما تريد؟

قلت: سيدك.

فدخلت، وخرجت وقالت:

باسم الله.

فدخلت إليه، وإذا هو جالس، فقلت:

عظم الله أجرك، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة؛ كل نفس ذائقة الموت؛ فعليك بالصبر.

ثم قلت له: هذا الذي تُوُفِّيَ ولدك؟

قال: لا.

قلت : فوالدك؟

قال : لا .

قلت : فأخاك؟

قال : لا .

قلت : فزوجتك؟

قال : لا .

فقلت : وما هو منك؟

قال : حبيبتي .

قلت في نفسي : هذه أول المناحس .

فقلت : سبحان الله! النساء كثير، وستجد غيرها .

فقال : أتظن أني رأيتها؟

قلت : وهذه منحسة ثانية .

ثم قلت : وكيف عشقت من لم تر؟

فقال : اعلم إني كنت جالساً في هذا المكان، وأنا أنظر من الطاق، إذ رأيت رجلاً عليه برد، وهو يقول :

يَا أُمَّ عَمْرٍو جَزَاكِ اللهُ مَكْرُمَةً
رُدِّي عَلَيَّ فُؤَادِي أَيْنَمَا كَانَا

لاَ تَأْخُذِيْنَ فُؤَادِيْ تَلْعَبِيْنَ بِهِ
فَكَيْفَ يَلْعَبُ بِالإِنْسَانِ إِنْسَانَا

فقلت في نفسي: لولا أن أم عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر؛ فعشقتها.

فلما كان منذ يومين مر ذلك الرجل بعينه، وهو يقول:

لَقَدْ ذَهَبَ الحِمَارُ بِأُمِّ عَمْرٍو
فَلاَ رَجَعَتْ وَلاَ رَجَعَ الحِمَار

فعلمت أنها ماتت، فحزنت عليها، وأغلقت المكتب، وجلست في الدار.

فقلت: يا هذا، إني كنت ألفت كتاباً في نوادركم معشر المعلمين، وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه؛ والآن قد قويت عزمي على إبقائه، وأول ما أبدأ بك، إن شاء الله تعالى». [1]

هذه قصة الجاحظ التى تعطي فكرة عما يرسم

(١) المستطرف: ٢/ ٥٥١.

للمعلمين في ذهنه، وقد ألفها، كما يتبين من بعض ما جاء فيها، ومن سياقها ومن طبيعتها؛ فقد ذكر أنه ذهب إلى مدينة، ولم يبين تلك المدينة، ولو فعل لعرف الناس أنه لا معلم كتاب في بلدتهم، يتصف بهذه الصفة، ونسي الجاحظ أنه قال في أول حديثه عن هذا المعلم أنه وجده كاملاً في الأدب والشعر؛ والكامل فيهما لا يجهل مأتى البيتين ولا مرمى البيت الثالث؛ هذا في تنافر الألفاظ مع المعاني على الأقل.

أما المردود حقاً فهو أن يعشق رجل امرأة لم يرها، ولم يسمع عنها إلا بيتين، فيهيم بها إلى درجة الحداد عليها عندما يذهب بها الحمار، ويقفز ذهنه إلى أن هذا الذهاب هو الموت، في حين أن البيت عندما يعرف الشعر ومراميه لا يعني الموت، وإنما ذهاب الحمار بها، والتخلص منها.

وليست هذه القصة الوحيدة الملفقة على المعلمين، أرقص فيها الجاحظ قلمه، وسن شفرات فكره، ولكنه جاء بعدد منها، نقلها صاحب المستطرف،

تحت ذكر نوادر المعلمين، نسوق بعضها لطرافتها، ولتكشف عن روح الجاحظ، ومقدرته عندما يتصدى لفئة من أصحاب الحرف، أو الذين يتصفون ببعض الصفات المنتقصة، مثل البخلاء والنوكى والبلهاء؛ وتتجلى روح الفكاهة في مثل هذه المجالات، وهي إحدى الجواذب إلى أدبه، والمميزة لما يكتب.

وإليك قصة هيأ لها الجاحظ المسرح، ووفر لها الأدوات، وقدم الممثلين، وهي صورة متحركة:

«مررت بمعلم صبيان، وعنده عصا طويلة، وعصا قصيرة، وصولجان، وكرة، وطبل، وبوق.

فقلت: ما هذه؟

فقال: عندي صغار أوباش، فأقول لأحدهم: اقرأ لوحك، فيصفِّر لي بضرطة، فأضربه بالعصا القصيرة، فيتأخر، فأضربه بالعصا الطويلة، فيفر من بين يدي، فأضع الكرة في الصولجان، وأضربه فأشجه؛ فتقوم إلي الصغار كلهم بالألواح، فأجعل الطبل في عنقي، والبوق في فمي، وأضرب الطبل،

وأنفخ في البوق، فيسمع أهل الدرب ذلك، فيسارعون إليّ، ويخلصوني منهم». [1]

لا يريد الجاحظ لأحد أن يتدبر هذه القصة، فينقض غزلها، ويهدم بنيانها، هو يريد رسم الصورة والطرافة، وإلا فكيف يداوم المعلم على هذا العمل وهو يعرف عقباه؛ وكيف يقره أهل الدرب أو الحي على ذلك؛ ويصبرون على تكراره؛ ولكنه الجاحظ ينام عن شواردها، ويسهر الخلق جراها ويختصموا، ويزاحم المتنبي في هذا!

وقصة ثالثة فيها طرافة، وفيها أساس لناحية نفسية استغلها الجاحظ لتنطلق منها قصته، ومن فوائدها أنها تكشف معاناة المعلمين في ذلك الزمن من تهرب الأولاد من المدارس؛ وطرق جذبهم إليها من قبل المعلمين، ولكن الجاحظ ينسى مرة أخرى أن صور التكرار التي يأتي بها غير مقبولة، وفي هذه القصة صورة مكررة أيضاً، وهي أن المعلم يعيد

(١) المستطرف: ٢/ ٥٢٠.

النباح مما يتوقع معه أن يعرف الصبي الحيلة، فلا يقع في الشرك مرة أخرى، والقصة كمايلي:

«حكى الجاحظ أيضاً، قال:

مررت على خربة، فإذا بها معلم، وهو ينبح نبح الكلاب، فوقفت أنظر إليه، وإذا بصبي قد خرج من دار، فقبض عليه المعلم، وجعل يلطمه ويسبه؛ فقلت:

عرفني خبره؟

فقال: هذا صبي لئيم، يكره التعليم، ويهرب، ويدخل الدار، ولا يخرج، وله كلب يلعب به، فإذا سمع صوتي ظن أنه صوت الكلب، فيخرج، فأمسكه». [1]

وهذه قصة أقرب من الأخرى إلى الواقع لولا أن الجاحظ أعطى لاختباء المدرس ونباحه، وخروج الصبي على ذلك صفة الدوام، مما يجعلنا نشك فيها، لأن ذكاء الطفل لا ينزل إلى هذا التدني الذي يجعله

(١) المستطرف: ٢/ ٥٢٠.

لا يفرق بين صوت الكلب الحقيق، وصوت الإنسان المقلد له.

ويلي هذه القصة قصة يعف القلم عن نقلها لما فيها من جرح للخلق، ابتدعها الجاحظ، وهي بلاشك قصة لم تقع إلا في خيال الجاحظ؛ وليس فيها إلا طرافتها، وروح الفكاهة فيها، وهي بعيدة عما نعرفه عن الجاحظ في عفة أسلوبه في الغالب؛ وهي عن امرأة أتت بابنها ليؤدبه المعلم، فهدده بأمر غير خلقي إن هو عاد، وأمه حثت المدرس عليه، وعيب الفعل عليها لا على الصبي.

وقصة أخرى لا ندري مدى صحتها يأتي بها الجاحظ هكذا مؤكداً ما قاله عن غباء المعلمين:

«رأيت معلماً في الكتاب وحده، فسألته: (عنهم).

فقال: الصغار داخل الدرب يتصارعون.

فقلت: أحب أن أراهم.

فقال: لا أشير عليك بذلك.

فقلت: لابد.

قال: فإذا جئت إلى رأس الدرب اكشف رأسك لئلا يعتقدوك المعلم، فيصفعونك حتى تعمى». [1]

الضعف في هذه القصة في أن الجاحظ يريد أن يرى الأولاد، ولم يكتف بما قاله المعلم، ولم تبد لنا الحكمة في رغبته أن يراهم، ثم لما انتهى الجاحظ إلى ما يخدم غرضه، ويظهر غباء المدرس، وعادة تعرضه للصفع، وقفت القصة، فهل ذهب الجاحظ، ورآهم؟ ثم هل سلم من الصفع إن كان ذهب؟

وعادة الصبيان عندما يستوجب الأمر أن يتصارعوا، نتيجة مسابّة جرت في المدرسة أو شجار، فإنهم يتفقون على أن يكون ذلك بعد الانتهاء من الدراسة، وهي عادة كانت سائدة إلى وقت قريب، ولا أراها انقطعت، وقد تكون اتخذت وجهاً آخر، وتأتي بطريقة تختلف عما كانت عليه؛ وكانت هذه العادة سائدة، وفي بعض المدارس كان العراك يأخذ مجراه كل يوم عند الخروج من المدرسة، وينقسم التلاميذ

(١) المستطرف: ٢/ ٥٢٠.

تجاهه قسمين، كل قسم يعضد متعاركاً من المتعاركين، وقد تتطور هذه المبارزة إلى اصطدام فريق مع فريق؛ واليوم الذي لا يكون فيه مشادة هو يوم لا يحسب من أيام الحياة عندهم.

وتستمر طرائف الجاحظ يَسرد فيها نوادر المعلمين، وكل قصة تصور صورة من صور الحمق والغفلة، وهو ما يريده الجاحظ لتكمل الصورة العامة عن المعلمين، كما أرادها لهم، وقد أجاد رسم المواقف التي تخيلها، أو تكون ذات أساس، غيّر فيه الجاحظ، وزاد ونقّص، وحوّر وحرّف، ومن هذه القصص القصة الآتية:

«وقال بعضهم:

رأيت معلماً وقد جاء صغيران يتماسكان فقال أحدهما:

هذا عض أذني.

فقال الآخر: لا والله، يا سيدنا، هو الذي عض أذن نفسه.

فقال المعلم: يا ابن (الفاعلة) هو كان جمل يعض إذن نفسه». [1]

هذه قصة متقنة، تري كيف أن مستوى ذكاء المعلم لم يكن بعيداً عن أحمق طالب يدرس عنده.

والقصة الآتية تطرق باباً آخر، وتُري وجها مختلفاً، ولكنها مثل سابقاتها تضيف لوناً من ألوان الحمق والغباء، وتري جانباً من جوانب تصرف النوكى والمغفلين، وهي أمور وجد الجاحظ في أصحابها مرعى خصباً، ومرتعاً واسعاً، لقلمه المجيد، يقول الجاحظ:

«قال بعضهم: رأيت معلماً، وهو يصلي العصر، فلما ركع أدخل رأسه بين رجليه، ونظر إلى الصغار، وهم يلعبون، وقال:

يا ابن البقال، قد رأيت الذي عملت، وسوف أكافئك إذا فرغت من الصلاة». [2]

وليس كل الصبيان يدخلون فيما رسمه الجاحظ

---

(١) المستطرف: ٢/ ٥٢٠.

(٢) المستطرف: ٢/ ٥٢٠.

لبعض الأطفال، من الغباء، والبله، بل إن في التراث ما يدل على ذكاء منقطع النظير، وفي القصة الآتية مظهر ذكاء لصبي غلب معلمه، مما يثلج صدر الجاحظ أن الرجحان أصبح مع الطالب، ولم يبيض صفحة المعلم التي حرص الجاحظ أن يطغى عليها شيء من لون السواد، حتى يتم له ما يريد في الصور التي يحتاجها لكتابه الذي قام على تأليفه، كما ذكر:

«قال إياس بن معاوية:

كنت في مكتب في الشام، وكنت صبياً، فاجتمع النصارى يضحكون من المسلمين، وقالوا:

إنهم يزعمون أنه لا يكون ثفل للطعام في الجنة.

قال: قلت: يا معلم، أليس تزعم أن أكثر الطعام يذهب في البدن؟

فقال: بلىٰ.

قال: فقلت: فما تنكر أن يكون الباقي يذهبه الله في البدن كله؟ فقال: أنت شيطان». [1]

---

(١) مجالس ثعلب ١/ ١٠.

لا يستغرب هذا الذكاء من إياس، فقد عرف به، وضرب به المثل في ذلك، وما يروى عنه من قصص تدل فعلاً على ذكاء منقطع النظير، وهو يستحق أن يكتب عنه كتابة منفردة، وإياس المسلم يدرس عند معلم مسيحي، وهذا يلفت النظر، ولكن عند تدبر ما دار بين إياس ومعلمه من حديث يتصل بالطعام وسيره في البدن نستشف أن إياساً كان يدرس شيئاً من الطب، وهذا يزيل الغموض، ويبين السبب، فالطب أغلبه في تلك الفترة في يد غير المسلمين؛ بل إن بعض الأطباء المسلمين يشعرون بكساد عملهم لأنهم مسلمون، فالصيت في تلك الأيام كان لغيرهم؛ لأن بعض كتب الطب كانت بلغات لم يتعلمها إلا قليل من المسلمين، فكانت أقرب متناولاً وفهماً لغير المسلمين، وهذا مما ثبّت السمعة لهم.

وطلب العلم والتأدب من الكبار يأخذ منحى آخر، يجعل المعلم والتعلم في درجة الرجحان من قبل الدارس، ويكون دوره مضيئاً، وفي المثل الآتي

صورة لأمر من هذا القبيل:

«قال ثعلب: حدثني الفضل بن سعد بن سالم قال:

كان رجل يطلب العلم فلا يقدر عليه، فعزم على تركه، فمر بماء ينحدر من رأس جبل على صخرة قد أثر فيها، فقال:

الماء على لطافته قد أثر في صخرة على كثافتها، والله لأطلبنَّ. فطلب، فأدرك». [1]

مثل هذه الاستفادة تأتي عادة من المعلم، الذي يعرف أن المداومة على معاسرة الشيء تيسره، وأن الطرق المستمر على الباب يفتحه، وأن ما تستصعبه اليوم، وتصر على تطويعه يأتي طوع إرادتك في آخر الأمر، وما تديم عسفه وتدريبه تصل في نهاية الأمر معه إلى بغيتك؛ ولكن هذا الطالب لم يجد من ينبهه إلى هذه الحقيقة، أو يرشده إلى الطريق السوي في التغلب على ما نفره من الدراسة حتى كاد أن يتركها. وقد هداه الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى ما وجده بعد تبصر

(١) مجالس ثعلب ١/ ١٤١.

وتمعن في مظهر من مظاهر الطبيعة، وضعه الله في طريقه، وشع نور العقل لتأتي المقارنة، ثم الاستفادة.

والمثابرة على طلب العلم، وبذل الجهد فيه، وعدم الراحة في كسبه، أمور لا يدرك العلم إلا بها؛ فمن تعب على شيء ناله، ومن لم يتعب فاتته الفائدة، ولهذا ورد فيما أورده ثعلب القول الآتي:

«لا يدرك العلم براحة الجسد». (١)

والأصمعي له تجربة مر بها، وقارنها بما مرّ به منها أصحابه:

«قيل للأصمعي: كيف حفظت ونسي أصحابك؟
قال: درست وتركوا». (٢)

هذه ملامح عن تعليم الأبناء، وتأديبهم في زمن مضى، والنصوص كثيرة ومبعثرة في أمهات الكتب وغيرها، وما هذه إلا شذرات رسمت بعض جوانب الصورة، وملامح الفن.

---

(١) مجالس ثعلب ١/ ١٤١.
(٢) مجالس ثعلب ١/ ١٤١، ٢٥٨.

العصا وموقعها من الناس

العصا أداة لعلها صاحبت الإنسان منذ عقل، ولم يزاحمها إلا الحجر، وكلاهما سلاح أمين منذ بدأ الإنسان يدب على هذه الأرض، ويتوقع ضرراً من عدو، إنساناً كان أو حيواناً؛ وكلا الأداتين متاحتان له، قريبتان منه، وفي متناول يده؛ ولكن العصا كانت أكثر ملازمة له، لطبعها، ولسهولة حملها، ولإمكان اختيار ما هو جيد منها، وما يصلح للغرض الذي اختيرت من أجله.

نتصور أن حظّ الكرة الأرضية في الأزمنة الأولى كان أوفر كثيراً منه اليوم، لكثرة الأشجار، والغابات، ومقدرة الإنسان إلى التنقل فيها من موقع إلى موقع، ومن مقر إلى مقر؛ وكل أرض لها نبتها، فهذا جيد، وهذا أجود، وهذا صالح، وهذا أصلح، وهكذا مما لا يحصى من التنوع والاختلاف.

هذه الرفقة المتقدمة بين الإنسان والعصا، وهذه

الصحبة الوثيقة، وهذه الفائدة المتعددة الشعب، جعلت حب العصا، والحرص على اقتنائها، وعدم مفارقتها، أشبه بالغريزة لدى الإنسان، ولا يزال، إلى يومنا هذا، هذا المظهر محافظ عليه في بعض البلدان، خاصة في الخليج، متمسك به تمسك الناس بمظهر اللباس التقليدي، وهو بقية لزمن قريب عهدناه، كان ترك العصا يوجب الطعن في المروءة، وكان حملها مظهراً من مظاهر الرجولة، ولا يزال مَنْ مِنَّا عاصر تلك الحقبة، يشعر ببهجة عندما يرى العصا محمولة، بالطريقة التي كنا نألفها، ولم تكن العصا تترك إلا إذا شغلت اليد بالسيف أو ما يماثله؛ وإلا فهي خِدن لا يُفارق، وصاحب لا يُهمل.

واختفت العصا في هذا الزمن الذي كثرت فيه الوسائل الحديثة التي تقوم مقام العصا، مما هو معمول من مواد بعضها تدخل فيه الكهرباء والإلكترون، وما إلى ذلك؛ بل أكثر من هذا فبعض الأسلحة الخفيفة زاحمت العصا، فالمسدس كانت العصا

تقوم مقامه في بعض الأحيان، تجاه الإنسان أو الحيوان، والمُخَدّر الرشاش اليوم، عند المهاجمة يحل محل العصا، وبه يتغلب على المجرمين، وقد يكون المجرم هو المستفيد في هذه الأداة، والعصا المكهربة، والبلستيكية كلها مما زاحم العصا، وأبعدها عن مكانها، فانزوت في ركن مظلم في أفريقيا، أو في بلاد لا تزال تعيش في الغابات وحياتها.

ولعل شاب اليوم لا يتصور الدور الذي كانت تلعبه العصا، ولا مدى التصاقها بالناس في أزمان مضت، ولا ما قيل فيها، أو قيل عنها، ولا عن مدى التقدير الذي كانت تحاط به، ولا مدى تغلغلها في حياة الناس، حتى دخلت أقوالهم، وأشعارهم وأمثالهم وحكمهم، شبهوها بما يماثلها في دقتها ولينها، وصلابتها، وطولها ونحولها، وشبهوا بها؛ وأدخلوها في الاستعارة والتشبيه، وأنواع القول الرامي إلى الفصاحة والبلاغة، فهي مثل قد الفتاة، وقد الفتاة مثلها، وهي تتثنى تثني الفتاة، والفتاة

تتثنى مثلها؛ واعتدالها مثل اعتدال الغادة، واعتدال الغادة مثلها؛ لم يتركوا منحى لم يسيروا فيه، رغبةً في ذكر العصا، أو لفت النظر لها.

والتراث مليء بالأقوال عنها، والأوصاف التي تبجلها، وتشيد بدورها، وتعدد فوائدها، ومصدر نموها؛ ولقد كتب الجاحظ عنها صفحات عديدة في كتابه البيان والتبيين، جاء في هذه الصفحات بما لا يخطر على ذهن أحد؛ لقد استقصى، كعادته، ما جاء عن العصا في كل مأتًى من مآتي الحياة، بل إنه في بعض الأحيان يأتي بأقوال يحوم الشك حولها في وضعها ونحلها؛ وهي تهمة سريعة إلى الجاحظ في بعض أمور تعرف عنه، ولهذا فهي تستظرف منه، ولا ترفض، وغالباً ما تكون نتيجة خيال جامح، يرمي من ورائه إلى إيفاء الأمر حقه، عندما يشعر أن غيره قصر، أو إذا أراد أن يستملح مع بعض من يشعر بأنهم مجال للتبكيت من أصحابه، وأحياناً على أناس لا يذكر أسماءهم، ولكن يذكر طوائفهم

أو أجناسهم.

والعصا لا يكاد يخلو كتاب من ذكرها بطريقة أو أخرى؛ لأنها لازمة من لوازم الناس في تلك الأزمان، ولهذا قال الجاحظ عنها، وعن أهميتها، وكثرة ما قيل فيها:

«أما العصا فلو شئت أن أشغل مجلسي كله بخصالها لفعلت». (١)

وينطلق القول في العصا من الآية الكريمة: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾. (٢)

ويعدد يونس بن حبيب ما يظنه يدخل تحت هذه المآرب، فيقول:

«لست أحيط بجميع مآرب موسى - ﷺ - ولكني سأنبئكم جُملاً تدخل في باب الحاجة إلى العصا.

من ذلك أنها تُحمل للحية، والعقرب، وللذئب،

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٤٤.
(٢) سورة طه، الآية: ١٨.

وللفحل الهائج، ولعير العانة في زمن هيج الفحول، وكذا فحول الحجور (إناث الخيل) في المروج؛ ويتوكأ عليها الكبير الدالف، والسقيم المدُنف، والأقطع الرِّجل، والأعرج، فإنها تقوم مقام رجل أخرى». [1]

وهذه صور من مجتمعهم، وحاجة الناس إلى العصا من أجلها، وأغلب ما تصور حياة الصحراء، وما يعيش عليها، وما يدب على أرضها، مما يهدد الإنسان بخطر لا ينفع معه إلا السلاح؛ والعصا في هذه الأمور هي السلاح.

ومن الصور المكملة لما مرّ في حياة الناس، وابن البادية على الأخص، القول الآتي؛ وهو يبين ما تستعمل له العصا:

«ولخبط الشجر، وللفيج (الساعي يحمل الأخبار) وللمكاري، فإنهما يتخذان المخاصر، فإذا طال الشوط، وبعدت الغاية، استعانا في حُضْرِهما وهرولتهما،

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٦٧.

في أضْعَاف ذلك بالاعتماد على وجه الأرض». [1]

ويغوص الجاحظ على بعض ما تصلح له العصا، ولا يستغني الناس عنها فيه، فيدخل إلى أعماق المجتمع، فيتبع بعض الأفراد في حل ما يقابلهم من أمور بالعصا، والقول الآتي في ذلك:

«والعُصي تنوب للأعمى عن قائده؛ وهي للقصّار، والفاشكار (المزارع) والدباغ؛ ومنها المفأة لِلْمَلَّةِ، (تحريك الرماد، والجمر)، والمحرك للتنور». [2]

ويستمر الجاحظ في تعداد فوائد العصا، ومن يعتمد عليها، ولا يستغني عنها، فيقول:

«وهي تعدّل من ميل المفلوج، وتقيم من ارتعاش المبرسم (المصاب بداء الرئة)؛ ويتخذها الراعي لغنمه، وكل راكب لمركبهِ، ويدخل عصاه في عروة المزود، ويمسك بيده الطرف الآخر، وربما كان أحد طرفيها بيد رجل، والطرف الآخر بيد صاحبه،

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٦٨.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ٦٧.

وعليها حمل ثقيل» .[1]

وهذه الصور ليست غريبة على جيلنا، فقد رأيناها، وقام بعضنا بهذا العمل على هذه الصفة التي جاء بها الجاحظ، ولعل بعضنا قد رأى صوراً ومناظر لبعض المجتمعات البدائية، ورأى كيف يحمل اثنين حملاً ثقيلاً على عصا قد أمسكا طرفيها.

ومن الصور التي ذكرها الجاحظ هذه الصورة التي لم يُرد أن يأتي بها دون أن يُطَعِّمَهَا ببيت شعر يكشف استعمالاً مضافاً لفائدة العصا:

«وهي لدق الجصّ، والجبسين، والسمسم.

وقال الشماخ بن ضرار:

وَأَشْعَثَ قَدْ قَدَّ السِّفَارُ قَمِيْصَهُ

يَجُرُّ شِواءً بِالعَصَا غَيْرَ مُنْضَجِ»[2]

ومن استعمالات العصا مما لا يفيد به غيره هذه الأمور:

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٦٨.

(٢) البيان والتبيين: ٣/ ٦٨.

«وتكون (العصا) إن شئت وتِداً في حائط، وإن شئت ركزتها في الفضاء، وجعلتها قبلة، وإن شئت جعلتها مظلة، وإن جعلت فيها زُجًّا كانت عنزة، وإن زدت فيها شيئاً كانت عكازاً، وإن زدت فيها شيئاً كانت مِطرداً (يطرد بها الوحش)، وإن زدت فيها شيئاً كانت رمحاً». (١)

بعض هذه الصور من الصعب على شباب اليوم أن يتخيلوها، لأن بيئتها تغيرت، فالوتد لجدار الطين؛ ومما يلفت النظر سعة اللغة العربية، فهذه المترادفات في الأسماء كلها لعصا زيد فيها شبر، أو شبرين، أو ثلاثة، ومع كل زيادة تُعطَى إسماً مختلفاً.

ويُلْحفُ الجاحظ في تتبع عمل العصا، ويستقصي فائدتها، ويغوص في أعماق عالمها، فلا يدع أمراً إلا ذكره، وقد أضاف إلى ما سبق ما يأتي:

«ثم من العُصيّ نصب المساحي، والمرور (اسم للمسحاة) والقُدُم، والفؤوس، والمعاول، والمناجل،

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٦٩.

والطبرزينات (الفؤوس)؛ ثم يكون من ذلك نصب السكاكين، والسيوف، والشامل (سيف قصير)». [1]

وبعد هذه الحقائق المجردة التي ساقها الجاحظ عن العصا، وفائدتها، وطريقة انتفاع الناس بها، وتحريه كل ما يتصل بهذا الجانب، انتقل إلى بعض القصص التي تخدم هذا الغرض، وتري بطريقة طريفة فائدة العصا؛ وقد لا تكون القصة صحيحة، وقد يكون الجاحظ مؤلفها، أو أن هناك غيره قد نحلها، وجاء بما جاء به من طرائف عنها، والجاحظ يحرص على مثل هذه القصص، لأنها تبعد الملل عن قرائه، ولا تخلو من فائدة، وهي في الغالب يؤتى بها لتعضد رأياً، أو لتؤكد حقيقة سبق أن وضعت أمام القارئ.

والقصة هي كمايلي:

«قال الشرقي:

خرجت من الموصل، وأنا أريد الرقة مستخفيا،

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٩٣.

وأنا شاب خفيف الحاذ (قليل المال والعيال)، فصحبني من أهل الجزيرة فتى، ما رأيت بعده مثله؛ فذكر أنه تغلبي، من ولد عمرو بن كلثوم، ومعه مزود، وركوة، وعصا، فرأيته لا يفارقها، وطالت ملازمته لها، فكدت من الغيظ أرمي بها في بعض الأودية، فكنا نمشي، فإذا أصبنا دواب ركبناها، وإن لم نصب الدواب مشينا، فقلت له في شأن عصاه، فقال لي: إن موسى بن عمران ـ ﷺ ـ حين آنس من جانب الطور ناراً، وأراد الاقتباس لأهله منها، لم يأت النار في مقدار تلك المسافة القليلة إلا ومعه عصاه، فلما صار بالوادي المقدس، من البقعة المباركة، قيل له: ألق عصاك، واخلع نعليك، فرمى بنعليه راغباً عنها، حين نزه الله ذلك الموضع عن الجلد غير الذكي، وجعل الله جماع أمره من أعاجيبه، وبرهاناته، في عصاه.

قال الشرقي:

إنه ليكثر من ذلك، وإني لأضحك متهاونا بما

يقول، فلما برزنا على حمارينا تخلّف المُكاري، فكان حماره يمشي، فإذا تلكأ أكرهه بالعصا، وكان حماري لا ينساق، وعلم أنه ليس في يدي شيء يُكرهه، فسبقني الفتى إلى المنزل، فاستراح، وأراح، ولم أقدر على البراح، حتى وافاني المكاري، فقلت: هذه واحدة.

فلما أردنا الخروج من الغد لم نقدر على شيء نركبه، فكنا نمشي، فإذا أعيا توكأ على العصا، وربما أحضر (ركض)، ووضع طرف العصا على وجه الأرض، فاعتمد عليها، ومرّ كأنه سهم زالج، حتى انتهينا إلى المنزل، وقد تفسختُ من الكلال، وإذا فيه فضل كثير، فقلت: هذه ثانية.

فلما كان في اليوم الثالث، ونحن نمشي في أرض ذات أخاقيق (شقوق) وصدوع، إذ هجمنا على حية منكرة، فساورتنا، فلم تكن عندي حيلة إلا خِذْلانَه واسلامَهُ إليها، والهرب منها، فضربها بالعصا، فثقلت، فلما بهشت (أقبلت) له، ورفعت صدرها،

ثم ضربها حتى وقذها، ثم ضربها حتى قتلها، فقلت: هذه ثالثة.

فلما خرجنا في اليوم الرابع، وقد والله قرمت إلى اللحم، وأنا هارب معدم، إذا أرنب قد اعترضت، فحذفها بالعصا، فما شعرت إلا وهي معلقة، وأدركنا ذكاتها، فقلت: هذه رابعة.

وأقبلت عليه، وقلت: لو أن عندنا ناراً لما أخرتُ أكلها إلى المنزل. قال:

فإن عندك ناراً.

فأخرج عويداً من مزوده، ثم حكه بالعصا، فأورت إيراءً، المَرْخُ والعَفَار[1] عنده لا شيء، ثم جمع ما قدر عليه من الغثاء والحشيش، فأوقد ناره، وألقى الأرنب في جوفه، فأخرجناها وقد لزق بها من الرماد والتراب، ما بغضها إلي، فعلّقها بيده اليسرى، ثم ضرب بالعصا على جُنوبها، وأعراضها،

(١) «المرخ»: شجر كثير الوري سريعةُ، وهو من العضاه، ينفرش ويطول وليس له ورق ولا شوك. و «العفار»: شجر مثله يتخذ منه الزناد، وهو شجر خوار.

ضرباً رقيقاً، حتى انتشر كل شيء عليها، فأكلناها، وسكن القرم، وطابت النفس، فقلت: هذه خامسة.

ثم إنا نزلنا بعض الخانات، وإذا البيوت ملاءٌ روثا وترابا؛ ونزلنا بعقب جند، وخرابٍ متقدم، فلم نجد موضعاً نظلّ فيه، فنظر إلى حديدةِ مسحاة مطروحة في الدار، فأخذها، فجعل العصا نِصاباً لها، ثم قام فجرف جميع ذلك التراب والروث، وجرد الأرض بها جرداً، حتى ظهر بياضها، وطابت ريحها، فقلت: هذه سادسة.

وعلى أي حال لم تطب نفسي أن أضع طعامي وثيابي على الأرض، فنزع والله العصا من حديدة المسحاة، فوتدها في الحائط، وعلّق ثيابي عليها، فقلت: هذه سابعة.

فلما صرت إلى مفرق الطرق، وأردت مفارقتها، قال لي:

لو عدلت، فبت عندي، كنت قد قضيت حق الصحبة؛ والمنزل قريب.

فعدلت معه، فأدخلني في منزل يتصل ببيعة، قال: فمازال يحدثني، ويطرفني، ويلطفني الليل كله؛ فلما كان السحر أخذ خشيبة، ثم أخرج تلك العصا بعينها، فقرعها بها، فإذا ناقوس ليس في الدنيا مثله، وإذا هو أحذق الناس بضربه.

قلت: ويلك، أما أنت مسلم، وأنت رجل من العرب، من ولد عمرو بن كلثوم؟

قال: بلى.

قلت: فلِمَ تضرب الناقوس؟

قال: جعلت فداك! إن أبي نصراني، وهو صاحب البيعة، وهو شيخ ضعيف، فإذا شهدتُ بررته بالكفاية.

فإذا هو شيطان مارد، وأظرف الناس كِلّهم، وأكثرهم أدباً وطلبا؛ فخبرّته بالذي أحصيت من خصال العصا، بعد أن كنت هممت أن أرميَ بها. فقال:

والله لو حدثتك عن مناقب العصا إلى الصبح لما

استنفذتُها» .[1]

هذه القصة جمعت من فوائد العصا أكثر من سبع فَوَائد، جاءت تترى في هذه الرحلة العجيبة؛ ويتعمق الجاحظ في حديثه عن العصا، وما يمكن أن تشتق منه، أو يشتق منها، فينتهز فرصة الحديث عن تفاريق العصا التي جاءت عرضاً في قصة أخرى فيعدد هذه التفاريق، فيقول:

«قيل لأعرابي: ما تفاريق العصا؟

قال: العصا تقطع ساجوراً (الخشبة توضع في عنق الكلب)، وتقطع عصا الساجور، فتصير أوتاداً، ويفرق الوتد، فيصير كل قطعة شِظاظاً (العود يدخل في عروة الجوالق)، فإذا كان رأس الشظاظ كالفلكة صار للبختي مهاراً، وهو العود الذي يدخل في أنف البختي، وإذا فرق المهار جاءت منه توادٍ (خشبات تصر بها أخلاف الناقة لئلا يرضعها الفصيل)» .[2]

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٤٥ .

(٢) البيان والتبيين: ٣/ ٤٩ .

هذه بعض التفاصيل، وهي ما يغرم به الجاحظ عندما يجد سبيلاً إلى ذلك، فهو إذا وضع يده على أمر، استقصى جوانبه، وجاء عنه بكل ما يمكن أن يفكر فيه الإنسان، فلا يدعه إلى غيره، ويطيل حتى لا يبقى في القوس منزع؛ ثم تأخذ كلمة ذات اليمين، أو ذات اليسار، فيسير معها يستقصى أمرها، ويبعد عما كان فيه، ويَزْوَرُّ عنه، ثم يعود إليه بعد أن يكون الاستطراد أخذ منه كل مأخذ؛ وهذه حاله فهو يستقصى جانباً من جوانبها، ثم يخرج إلى جانب آخر، ويبعد فيه، حتى لتظنه لن يعود، ولكنه يعود بانحراف حاد؛ ولعله يقصد هذا حتى لا يمل قارؤه؛ فهو يعمد إلى التنويع، عن طريق الاستطراد، فيجد أن هذا فيه إحماض يزيل الكلل.

ومن الحوادث التي تروى عن فائدة العصا، ووجودها بجانب الإنسان، معدة لأي حادث يطرأ، القصة الآتية:

«ساورت حية أعرابياً، فضربها بعصاه، وسلم

منها، فقال:

لَـوْلاَ الهَـرَاوَةُ والكَفَّـانِ أَنْهَلَنـي
حَوْضَ المَنِيَّةِ قَتَّالٌ لِمَنْ عَلِقَا
أَصَـمُّ مَنْهَـرِتُ الشِّـدْقَيْـنِ مُلْتَبِـدٌ
لَمْ يُغْذَ إلاَّ للمَنَايَا مُذْ لَدُنْ خُلِقَا
كَأَنَّ عَيْنَيْهِ مِسْمَارانِ مِنْ ذَهَبٍ
جَلاَهُمَا مِدْوَسُ الأَلاَّنِ فَأتَلَقَا»[1]

والعصا سلاح، يهاجم به، وبه يدافع، ويفضل في بعض المواقف على السيف، وطالما لعب دوراً رئيساً في معارك بعضها صغير، وبعضها كبير، واستعمله أفراد، واحتمى خلفه، أو هاجم به مجموعة من الناس، حتى الصبيَان في صغرنا كان لهم حرب بين صبيان الأحياء، حرب منظمة لها أصول، ولها قواعد، لا يخرج أحد الفريقين عما يتفق عليه، ومن حاد عن الجادة لحقه عيب لا يمحى؛ كانوا يجتمعون في النهار، ويرسلون من يتفاوض مع أصحاب الحي

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٦٠.

الآخر، المراد محاربته، ومن جملة ما يتفاوضون عليه السلاح، فيتقرر أن يكون الحصى، أو العُصِيّ، أو الأيدي والأرجل؛ وفي الليل تبدأ المعركة، وقد يكون لها ضحايا أكبر مما كان متوقعا، وقد يفقد شخص عيناً، وقد يشج رأس أحدهم، وقد يصاب شخص بارتجاج في المخ، ولكن هؤلاء الفتيان لا يأخذون عبرة، ومن لا يتشوه من جراء الجدري، أو الحصباء، يتشوه من هذه الحرب الضروس!

وممن عرفوا بتفضيل العصا في العراك، والقتال، الزنج؛ وهم لكثرتهم، وحسن تدريبهم على العُصي، يصلون إلى درجات من النجاح باهرة؛ يقول الجاحظ عنهم في هذا الصدد:

«وناس كثير لا يستعملون في قتالهم إلا العُصي، منهم الزنج: قنبلة ولنجويه، والنمل، والكلاب، وتكفو وتنبو.[1] على ذلك يعتمدون في حروبهم.

ومنهم النبط، ولهم بها ثقافة، وشدة، وغلبة،

(١) هذه أسماء قبائلهم، وفروعها.

وأثقف ما تكون الأكراد إذا قاتلت بالعصي» .[1]

ولعل السبب في هذا أنهم كانوا في مجتمع لا يحمل السلاح فيه إلا رجال السلطان، ولو حمله فرد من الناس لعوجل جزاؤه، ولهذا كان الزنوج عندما يثورون في مجتمعات بغداد، وأطراف المدن في العراق، كانوا يتسلحون بالعصي، وهذا قد يكسبهم سيوفاً فيما بعد، يأخذونها من الشرط في الثورات الكبرى التي قاموا بها، ودوخت الخلافة، ولم تقض عليها إلا بعد جهد.

وقال جندل الطهوري يفخر بالعصا، وقتالهم بها:

«حَتَّى إِذَا دَارَتْ رَحًى لاَ تَجْرِي
صَاحَتْ عِصِيٌّ مِنْ قَنًا وَسِدْرِ»[2]

ويقول آخر:

دَعَـا ابْـنُ مُطِيْـعٍ لِلْبَيَـاعِ فَجِئْتُـهُ
إِلَـى بَيْعَـةٍ قَلْبِـيْ لَهَـا غَيْـرُ آلِـفِ

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٥١.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ١٥.

فَنَاوَلَنِي خَشْنَاءَ لَمَّا لَمَسْتُهَا
بِكَفِّي لَيْسَتْ مِنْ أَكُفِّ الخَلائِفِ
مِنَ الشِّثَنَاتِ الكُزْمِ أَنْكَرْتُ مَسَّهَا
وَلَيْسَتْ مِنَ البِيْضِ الرِّقَّاقِ اللَّطَائِفِ

ومن القصص التي تدل على أنه يمكن أن يُكتفى بالعصا سلاحاً القصة الآتية :

«دخل عمير بن سعد على عمر بن الخطاب، حين رجع إليه من عمل حمص، وليس معه إلا جراب، وإداوة، وقصعة، وعصا.

فقال له عمر : ما الذي أرى بك من سوء الحال، أو تصنع؟

قال : وما الذي ترى بي؟ ألستُ صحيح البدن، معى الدنيا بحذافيرها؟

قال : وما معك من الدنيا؟

قال : معي جرابي، أحمل فيه زادي، ومعي قصعتي أغسل فيها ثوبي، ومعي إداوتي، أحمل فيها مائي لشرابي، ومعي عصاي إن لقيت عدواً قاتلته، وإن

لقيت حية قتلتها، وما بقي من الدنيا فهو تبع لما معي». [1]

والجاحظ نصب نفسه مدافعاً عن العرب أمام الشعوبية، وما يتلمسونه من أسباب لثلب العرب، وقلب الحسن في أمرهم إلى قبيح؛ وجاء فيما رواه عن الشعوبيين وتهجمهم على العرب ما يدل على أنهم كانوا يعيبون على العرب حمل العصا، والقتال بها، وهذا ما جاء به:

«ولكنكم كنتم رعاة الإبل والغنم، فحملتم القنافي الحضر بفضل عادتكم لحملها في السفر، وحملتموها في المدر بفضل عادتكم لحملها في الوبر، وحملتموها في السلم بفضل عادتكم لحملها في الحرب، ولطول اعتيادكم لمخاطبة الإبل، جفا كلامكم، وغلظت مخارج أصواتكم، حتى كأنكم إذا كلمتم الجلساء إنما تخاطبون الصُّمّان. وإنما جُلُّ قتالكم بالعصي، ولذلك فخر الأعشى على سائر العرب فقال:

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٤٣.

لَسْنَا نُقَاتِلُ بِالعِصِيّ
وَلاَ نُرَامِي بِالحِجَارة»[1]

وكثيراً ما تذكر العصا مع الإبل، فهي الأداة الأولى لحكمها، توجهها الوجهة المبتغاة، وتردها عما لا يراد لها أن تذهب إليه؛ ويكاد ما قيل في هذا المجال يغلب ما قيل عن العصا في أي مجال.

ولا غرو فالجمل هو الحيوان الذي قليلاً ما يقهر باليد، خاصة إذا جاء مندفعاً، سواء كان ذلك لِلضِّراب، أو لورد الماء، وهما الحالتان اللتان لابد للعصا منهما، لاندفاع الجمل، وإصراره.

«وتضرب عند الهرب، وعند الخلاط، وعند الحوض، أشد الضرب». [2]

ومن الأقوال في ذلك:

«وَمَا صَادِيَاتٌ حِمْنَ يَوْماً وَلَيْلَةً
عَلَى المَاءِ يَغْشَيْنَ العِصِيّ حَوَانِ[3]

(١) البيان والتبيين: ٣/ ١٤.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ٥٥.
(٣) حواني: جمع حانية، وهي التي تحن إلى ولدها.

لَـوَائِـبُ لاَ يَصْـدُرْنَ عَنْـهُ لِـوِجْهَـةٍ
وَلاَ هُنَّ مِنْ بَرْدِ الحِيَاضِ دَوَانِ
يَرَيْنَ حَبَابَ المَاءِ وَالمَوْتُ دُوْنَهُ
فَهُـنَّ لإِصْـوَاتِ السِّقَـاة رَوَانِ[1]
بِأَوْجَعَ مِنِّي جَهْدَ شَوْقٍ وَغَلَّةٍ
إِلَيْكِ وَلَكِنَّ العَدُوَّ عَدَانِي»[2]

تحجز الإبل عن الماء لأسباب عدة، منها أن هناك إبلاً لآخرين قد سبقت إلى الورد، فتضرب الإبل في وجهها قرعاً، ولكنها في كثير من الأحيان لما تعانيه من العطش تغمض عينيها، وتقتحم الضارب، وترد رغماً عنه.

وقد استغل الشاعر هذا الحال فشبه حاله مع محبوبته وشوقه إليها، وتعطشه لرؤيتها بحالة الإبل الظمأى، ردّت عن موردها؛ وهو مثلها قد شغله عدوه عنها، كما شغل سائق الإبل وراعيها إبله عن الماء.

---

(١) وراني: ناظرات.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ٥٤.

ويبدو أن هذه الصورة محببة عند العاشقين، فهي تتكرر في أشعارهم، ومن ذلك قول أحدهم:

«فَمَا وَجْدُ مِلْوَاحٍ[1] مِنَ الهِيْمِ حُلِّئَتْ[2]
عَنِ المَاءِ حَتَّى جَوْفُهَا يَتَصَلْصَلُ
تَحُومُ وَتَغْشَاهَا العِصِيُّ وَحَوْلَهَا
أَقَاطِيْعُ أَنْعَامٍ تُعَلُّ وَتَنْهَلُ
بِأَعْظَمَ مِنِّيْ غَلَّةً وَتَعَطُّفاً
إِلَى الوِرْدِ إِلاَّ أَنَّنِي أَتَحَمَّلُ»[3]

ويضرب المثل بشدة ضرب الإبل عند الماء؛ حتى إنهم ليشبهون الضرب بالسيف في الحرب، إذا كان شديداً، بضرب الإبل عند حياض الماء، يقول أحدهم.

بِضَرْبٍ يُزِيْلُ الهَامَ عَنْ سَكَنَاتِهِ
كَمَا ذِيْدَ عَنْ مَاءِ الحِيَاضِ الغَرَائِبُ[4]

ويقال:

---

(١) ملوح: عطشى.
(٢) حلئت: منعت.
(٣) البيان والتبيين: ٣/ ٥٥.
(٤) البيان والتبيين: ٣/ ٥٥.

«ضرب فلان ضرب غرائب[1] الإبل». [2]

ومما قيل في تشبيه شدة الضرب بالسيف في الحرب بضرب الإبل المندفعة لموارد المياه، وذلك لتوالي الضرب، وقوته، والإلحاح فيه، والجهد الذي يبذل في ذلك، قول الشاعر:

«لِلْهَامِ ضَرَّابُوْنَ بِالمِنَاصِلِ
ضَرْبَ المُذِيْدِ غُرُبَ النَّواهِلِ»[3]

ويستعار المعنى لغرض آخر، ويشبه بذياد الإبل عن أحواض الماء، دليل الشدة والإصرار؛ فيقول الأصمعي منشداً:

يُذَدْنَ وَقَدْ أُلْقِيْتُ فِيْ قَعْرِ حُفْرَةٍ
كَمَا ذِيْدَ عَنْ حَوْضِ العِرَاكِ غَرَائِبُهْ

وقال العباس بن مرداس، مشبهاً اجتهادهم في

(١) وقد استفاد الحجاج من هذا التعبير في خطبته التي هدد بها أهل العراق، فقال: «ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل»، وقيل إنه قالها لأنس بن مالك: البيان والتبيين: ٣/ ٦٠.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ٥٥.
(٣) البيان والتبيين: ٣/ ٥٥.

حماية أحسابهم بذياد الإبل :

نُقَاتِلُ عَنْ أَحْسَابِنَا بِرِمَاحِنَا
فَنَضْرِبُهُمْ ضَرْبَ المُذِيْدِ الخَوامِسَا[1]

وهم يضربون الرؤوس بالسيوف مثل ضرب الذائد للإبل عن ورود حياض الماء، وكلمة «ضرابون» في البيت السابق، توحي بالموالاة في الضرب، والتتابع، والشدة، والجهد، والقوة؛ وهذا هو ما يحدث عندما تتابع الإبل، وترمي نفسها، غير هائبة، ولا محتفية بالضرب، فهي تغمض عينيها، وتندفع؛ وقد تحطم من أمامها إذا لم يكن خبيراً بالأمر، وقوياً، ومتنبهاً لجهات الضغط من هذه الإبل العطشى المندفعة، المتعاركة.

ويقول الشجعان إن وجه السيف كريه، أي أنه مخيف عندما يهوي به الضارب، فصفحته وجهه، وهي كالحة، ومثله العصا، عندما يهوي بها الضارب، ولهذا فالإبل التي ترد عن الماء بقمع وجوهها

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٦١.

بالعصي، تشعر الشعور نفسه تماماً، فتغمض عينيها، وترمي نفسها رمياً إلى الأمام؛ فَتَحَمُّلُ الضرب عندها أهون من منظر وجه العصا وهو مقبل؛ لأن الألم حينئذ يأتي مضاعفاً، والمنظر قد يوحي بضربة قوية قد لا تأتي كذلك، ولكن أثرها حدث، وأخذ مكانه من نفس البعير. وفي هذا يذكر الجاحظ مايلي:

«وقالوا في تغميض الناقة عينها، كي تركب العصا إلى الحوض، وهو في معنى قول أبي النجم:

«تَغَشَّى العَصَا وَالزَّجْرَ إِنْ قِيْلَ حَلِ
يُرْسِلُهَا التَّغْمِيْضُ إِنْ لَمْ تُرْسَلِ»[1]

والعصا أداة مهمة لراعي الإبل، ووسيلة لا يستغنى عنها لراكبها، فهي تحث البعير على السير، وهي توجهه، وهي تصده، ولهذا رمزوا إلى القحط والجدب بإلقاء العصا كما جاء في النص الآتي:

«أجدبت الأرض على عهد عمر ـ رحمه الله ـ حتى ألقت الرعاء العصي، وعُطلت النَّعَم، وكسر

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٥٨.

العظم». [1]

وكما نرى من النص بدئ بالعُصي أولاً في هذا النص، وهي إشارة إلى أن لازمها قد ارتفع، فلا سوق للإبل من أرض إلى أرض، ولا رد لها عن أحواض الماء، ولا ضرب على الضراب، فالأمر أكبر من أن يشغل بهذا.

وإلقاء عصا التسيار[2] استعير من مثل هذا الموقف، ليكون دليلاً على الاستقرار، ورمزاً للدعة، وإشارة إلى وضع الأحمال، والركون إلى الراحة بعد التعب والسفر؛ وقد ورد كثيراً بهذا المعنى في النثر والشعر، ومن ذلك قول أحدهم:

«أَلاَ أَيُّهَا الرَّكْبُ المُخِبُّوْنَ هَلْ لَكُمْ
بِأُخْتِ بَنِي هِنْدٍ عُتَيْبَةَ مِنْ عَهْدِ
أَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى
بِأَرْضِ بَنِيْ قَابُوْسَ أَمْ ظَعَنَتْ بَعْدِي»[3]

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٥٩.

(٢) ويقابل عصا الاستقرار هذه عصا البين، كما قال الفرزدق بن غالب:
ذكرت وقد كادت عصا البين تنشطي حبالك من سلمى وذو اللب ذاكر
البيان والتبيين: ٣/ ٦١.

(٣) البيان والتبيين: ٣/ ٦٣.

ويرسم مضرس الأسدي صورة للاستقرار بعد السفر في البيت الآتي، ويكمله بما يدل على الراحة التامة، فيقول:

«فَأَلْقَتْ عَصَا التَّسْيَارِ عَنْهَا وَخَيَّمَتْ
بِأَرْجَاءِ عَذْبِ المَاءِ بِيْضٌ مَحَافِرُهُ

وقال أيضاً في هذا المعنى، وهذا البيت مشهور، وكثيراً ما تمثل به:

فَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى
كَمَا قَرَّ عَيْناً بِالإِيَابِ المُسَافِرُ»[1]

ويقول الجاحظ في هذا المعنى:

«ويقولون للمستوطن في البلد، والمستطيب للمكان: قد ألقى عصا التسيار.

وقال زهير بن أبي سلمى:

«فَلَمَّا وَرَدْنَ المَاءَ زُرْقاً جِمَامُهُ
وَضَعْنَ عِصِيَّ الحَاضِرِ المُتَخَيِّمِ»[2]

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٤٠.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ١٢٤.

ويقول الجاحظ في هذا، مبعداً قليلاً في الاستفادة من هذا القول:

«ويقولون للرجل، إذا أثرى، وأفاد، وكثرت نعمته:

ضع عصاك»، و «قد وضع عصاه».[1]

«قال أبو الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل:

تجَـرُّ الأَذْيَـالَ فِـيْ نِعْمَـةٍ زَوْ
لٍ تَقُولاَنِ ضَعْ عَصَاكَ الدَّهْرَ»[2]

وتبقى صورة ذود الإبل حية في أذهان الشعراء، فيأتون بها في شعرهم، تكمل صورة مهمة في قولهم كما جاء في قول الشاعر مسكين الدارمي:

«تَسْمُـو بِـأَعْنَـاقٍ وَتَحْبِسُهَـا
عَنَّـا عِصِـيٌّ الـذَّادَةِ العُجُـر»[3]

وأحياناً يتعمدون اختيار كلمة «يقرع» لضرب

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ١٢٤.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ١٢٤.
(٣) البيان والتبيين: ٣/ ٨١.

أنف البعير، وتتكرر في تعبيرهم معنىً، مباشرة أو استعارة، حتى كادت تصبح لازمة لضرب وجه الفحل من الإبل، ولعل اختيار الأنف قد أقدموا عليه بعد دراسة وتجربة لتأثيره البالغ، لقربه من النظر، وتأثر الأنف لرقته، أكثر من صفحة العنق أو جنب البعير، وفي هذا يقول الجاحظ:

«وتقول العرب في مديح الرجل الجلد، الذي لا يفتات عليه بالرأي: «ذلك الفحل لا يقرع أنفه، وهذا كلام يقال للمخاطب إذا كان على هذه الصفة، ولأن الفحل اللئيم إذا أراد الضراب ضربوا أنفه بالعصا». (١)

العرب يختارون للناقة والفرس الفحل الكريم، فإذا هاج جمل غير كريم، وأراد ضراب ناقة كريمة، صدوه عنها بكل ما يملكون من قوة؛ والأمر ليس سهلاً، ولكن عزائم الرجال تغلب؛ ويبقى بعد أن ينجحوا في إبعاده، حاقداً على من أبعده، ويتربص

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٤٤.

به الدوائر، ولا ينسى، وقد يقضي عليه في وحدته؛ ولهذا يعمدون إلى القناع أو اللثام يخفون وجوههم تحته، حتى لا يعرفهم، فيضمر الشر لهم، والقصص في انتقام فحول الجمال ممن أبعدهم عن الضراب لا تكاد تحصى، وبعضها حقيقة، وبعضها خيال، ولكن تواترها يدل على صحة حقد الجمل، وحرصه على الانتقام.

ومن الاستعارات التي وردت في أخبار العرب، عن قرع أنف الجمل، القصة الآتية:

«قال أبو سفيان بن حرب بن أمية، عندما بلغه من تزوّج النبي ﷺ بأم حبيبة، وقيل له: مثلك تنكح نساؤه بغير إذنه؟

فقال: ذلك الفحل لا يقرع أنفه». (١)

إن هذا الثوب المستعار من قرع أنف الجمل الحقيقي أسعف أبا سفيان في الجواب على هذه الاستثارة الكبرى، وأطفأ ناراً أريد لها أن تتأجج،

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٤٤.

وكانت هذه الكلمة برداً وسلاماً لابد أنه خيب أمل المستثير، وأعاده خاسئاً وهو حسير.

ويؤكد ما قاله أبو سفيان ما رواه الجاحظ حين قال:

«ويقال للخاطب، إذا كان مرغوباً فيه، كريماً: «ذاك الفحل الذي لا يقرع أنفه».

لأن الفحل اللئيم، إذا هب على الناقة الكريمة، ضربوا وجهه بالعصا». (١)

ورغم أن الضرب يدل على الشدة والقوة، إلا أن كلمة قرع تبدو في هذا السياق أشد، لأن قرع الجمل وصده ليس بالأمر الهين، ولهذا استفيد منها في تأديب غير الحر، وكثر هذا في شعرهم وفي ذلك قول يزيد بن مفرغ:

«العَبْدُ يُقْرَعُ بِالعَصَا وَالْحرُّ تَكْفِيْهِ المَلاَمَة

وقيل إنه أخذه من الفلتان الفهمي حيث يقول:

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٨٤.

العَبْـدُ يُقْـرَعُ بِـالعَصَـا والحُرُّ تكْفِيْهِ الإِشَارَة»

ويبدو أنه معنى مطلوب، ويأتي على اللسان بسهولة، لأنه يحمل حكمة، فهذا مالك بن الريب يقول:

العَبْـدُ يُقْـرَعُ بِـالعَصَـا وَالحُرُّ يَكْفِيْهِ الوَعِيْد

وبَشَّار أدلى بدلوه مع القوم في هذا، فقال:

الحُرُّ يُلْحَى وَالعَصَا لِلْعَبْدِ وَلَيْسَ لِلْمُلْحِفِ مِثْلُ الرَّدِّ

وقال أبو داود، يعاتب امرأته في سماحته بماله:

فَاحْتَلْتُ حِيْنَ صَرَمْتِنِي وَالْمَرْءُ يَعْجِزُ لاَ مَحَالَهْ
وَالدَّهْرُ يَلْعَبُ بِالْفَتَى وَالدَّهْرُ أَرْوَغُ مِنْ ثُعَالَهْ
وَالْمَـرْءُ يَكْسِـبُ مَـالَـهُ بِالشُّحِّ يُوْرِثُهُ الْكَلالَهْ
وَالْعَبْـدُ يُقْـرَعُ بِـالعصَـا وَالحُرَّ تكْفِيْهِ المَقَالَهْ»[1]

والاختلاف بين أغلب هذه الأبيات جاء بحكم القافية، وما توجبه من مطابقة؛ ومع استقراء هذه الأبيات نجد أن المقارنة بين معاملة الحر والعبد هي في تصغير عامل الزجر عند الحر، وقوته وكبره

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٣٧.

عند العبد. ومع هذا فقد لا يعني القرع شدة الضرب، لأنه ورد ما يؤكد أن مجرد اللمس يعبر عنه بالقرع كما في القصة الآتية:

«ومما يدخل في باب الانتفاع بالعصا أن عامر بن الظرب العدواني، حكم العرب في الجاهلية، لما أسن، واعتراه النسيان، أمر بنته أن تقرع بالعصا إذا هو فَهَّ عن الحكم، وجار عن القصد؛ وكانت من حكيمات بنات العرب، حتى جاوزت في ذلك مقدار صُحْرٍ بنت لقمان، وهند بنت الخسّ، وجمعة بنت حابس ابن مليل الأياديين.

وكان يقال لعامر: ذو الحلم، ولذلك قال الحارث ابن وعلة:

وَزَعَمْتُـــم أَنْ لاَ حُلُـــوْم لَنَـــا
إِنَّ العَصَا قُرِعَتْ لِذِي الحِلْمِ

وقال المتلمس في ذلك:

لِذِي الحِلْمِ قَبْلَ اليَوْمِ مَا تُقْرَعُ العَصَا
وَمَـا عُلِّـمَ الإِنْسَـانُ إِلاّ لِيَعْلَمـا

وقال الفرزدق بن غالب :

فَإِنْ كُنْتُ أَسْتَأْنِي حُلُوْمَ مُجَاشِعٍ
فَإِنَّ العَصَا كَانَتْ لِذِي الحِلْمِ تُقْرَعُ[1]

وتأتي قصة أخرى قد يجدها بعض المستقصين تدخل في باب الخيال، لغرابتها، وقد يقبلها آخرون، لما قد يكون بين الأخوين من اتفاق على لغة قرع، تفاهما عليها، واتفقا، تفيدهما عندما يكونان بين قوم لا يريدانهما أن يعرفوا ما يدور بينهما، والقصة جيء بها لتبين أن القرع قد يكون خفيفاً، وهي كمايلي :

«ومن ذلك حديث سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة : ، واعتزام الملك على قتل أخيه، إن لم يصب ضميره، فقال له سعد :

أبيت اللعن أتدعني حتى أقرع بهذه العصا أختها؟

فقال له الملك : وما علمه بما تقول العصا؟

فقرع بها مرة، وأشار بها مرة، ثم رفعها، ثم وضعها .

(١) البيان والتبيين : ٣/ ٣٨ .

ففهم المعنى، فأخبره، ونجا من القتل». [1]

هذا بعض ما قيل عن قوة القرع بالعصا، وهناك ما هو خلاف هذا، وهو ضعف الضرب بالعصا، مما يتصل بالإبل، وهذا أمر متوقع فما دام هناك قوة، وهناك شدة[2]، فهناك ضعف، وقد يكون فيه مدح؛ ؛ ويقال على هذا للراعي: «إنه لضعيف العصا»، إذا كان قليل الضرب بها للإبل، شديد الإشفاق عليها، وقال الراعي:

ضَعِيْفُ العَصَا بَادِيْ العُرُوْقِ تَرَى لَهُ
عَلَيْهَا إِذَا مَا أَجْدَبَ النَّاسُ إِصْبُعاً

وقال غيره:

«لاَ تَضْرِبَاهَا واشْهَرَا العَصَا»[3]

رأفة بها، وشفقة عليها، لأنها كرائم، يكفيها رفع العصا في وجهها، أو لمسة لجنبها، أو صفحة

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٣٩.
(٢) إذا كان الراعي جلداً قوياً على الإبل قالوا: «صلب العصا» وقال الراجز: «صَلْبُ العصا باقٍ على أذاتها»، البيان والتبيين: ٣/ ٥٢.
(٣) البيان والتبيين: ٣/ ٥٢.

رقبتها، فالضرب ليس غاية، وإنما هو وسيلة، لا يلجأ إليها إلا عند الحاجة، وعندما تقتضي الضرورة.

ومما جاء عن ضعف العصا، أو لينها، دالاً على الخيبة، وذهاب المقصود، ما ذكره الجاحظ فيمايلي:

«يقولون: قد أقبل فلان، ولانت عصاه، إذا أصابه السُّواف (الموت في الناس والمال)، فرجع وليس معه إلا عصاه، لأنه لا يفارقها كانت له إبل، أم لم تكن».(١)

وضعف العصا وصف لها إذا كان حاملها لا يستعملها، وقد أشير إلى هذا بقول الجاحظ:

«يقولون: فلان ضعيف العصا، إذا كان لا يستعمل عصاه، ولذلك قال الشاعر:

وَأَنْتَ بِذَاتِ السِّدْرِ مِنْ أُمِّ سَالِمٍ
ضَعِيْفُ العَصَا مُسْتَضْعَفٌ مُتَهَضَّمُ»(٢)

وقوة العصا من قوة صاحبها، وقد ورد فيها

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٥٢.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ٥٤.

بعض النصوص، مما لم يكن متصلاً «بالقرع» الذي سبقت الإشارة إلى ما جاء فيه من أقوال، وقد يشار إلى قوة الضرب بالعصا، وقوة صاحبها، بكلمة «جلد» كما ورد في الرجز الآتي خاصاً بالإبل:

وَقَـائِـدٍ جَلْـدِ العَصَـا دَلَهْمَـسِ
إِنْ قِيْلَ قُمْ قَامَ وَإِنْ قِيْلَ اجْلِسِ[1]

وتأتي صورة متكاملة لشدة الضرب بالعصا، وذب الإبل عن الماء البارد، وهي مندفعة عطشى؛ وحلف أحدهم الا تجوز بحوضه، فقيل تحلل من هذا اليمين، فإن آخر لا يردها، وتكمل الصورة كمايلي:

«قال بشامة بن حزن النهشلي:

فِـدًى لِـرِعَـاءٍ بِـالنَّحِيْـرَةِ ذَبَّبُـوا
بِأَعْصِيهِمْ وَالمَاءُ بَرْدُ المَشَارِبِ
تَـأَلَّى نُعَيْـمٌ لاَ تُجِـوزُ بِحَـوضِـهِ
فَقُلْتُ تَحَلَّلْ يَا نُعَيْمُ بنِ قَارِبِ

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٥٣.

فَـإِنَّ زِيَـاداً لَـمْ يَكُـنْ لِيَـرُدَّهَـا
وَسَبْرَةَ عَنْ مَاءِ النَّضِيْحِ المُقَارِبِ
أَغَرَّكَ أَنْ جَاءَتْ ظِمَاءً وَبَاشَرَتْ
بِأَعْنَاقِهَا بَرْدَ النِّصَابِ الصُّبَاصِبِ
تَنَاوَلْنَ مَا فِي الحَوْضِ ثُمَّ امْتَرَيْنَهُ
بِجَرْعٍ وَأَعْنَاقٍ طِوَالِ الذَّوَائِبِ»[1]

وهناك أقوال متفرقة في العصا منها ما يضاف إلى غير العصا، ومنها ما استفيد منه لاستعارة العصا لمعنى هي ذات صلة به، ولهذا فهم يأتون بها لتجري ـ كما يقول الجاحظ ـ في معان كثيرة، ومن تلك المعاني قولهم:

«العصا من تلك العصية». [2]

وهو مثل يضرب للشيء الكبير يكون بدؤه صغيراً، فالعصا كانت غصنا صغيراً في بدئها.

ويشيرون إلى تفرق الأمر، سواء كانوا أناساً،

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٥٤.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ٣٩.

أو كان رأيا، بقولهم:

«طارت عصا فلان شِقَقَا».

وقال الأسدي:

عِصِيَّ الشَّمْلِ مِنْ أَسَدٍ أَرَاهَا
قَدْ انْصَدَعَتْ كَمَا انْصَدَعَ الزُّجَاجُ

ويقال: «فلان شق عصا المسلمين».[1]

ومثل ما يقال: «شق عصا المسلمين»، يقال: «شق عصا الدين»، أو خلافه، ضم يده على الدين، كما قال العبَّابي يمدح أحد الخلفاء:

«إِمَامٌ لَهُ كَفٌّ يَضُمُّ بَنَانَهَا
عَصَا الدِّيْنِ مَمْنُوعاً مِنَ البَرْيِ عُوْدُهَا»[2]

وفي هذا المعنى يقول الشماخ بن ضرار من أبيات له:

«تَصَدَّعَ شَعْبُ الحَيِّ وانْشَقَّتِ العَصَا
كَذَاكَ النَّوَى بَيْنَ الخَلِيْطِ شَقُوقُ

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٣٩.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ٤٠.

وقال علي بن الغدير :

وَإِذَا رَأَيْتَ المَرْءَ يَشْعَبُ أَمْرَهُ
شَعْبَ العَصَا وَيَلِجُّ فِي العِصْيَانِ
فَاعْمِدْ لِمَا تَعْلُو فَمَا لَكَ بالَّتِي
لاَ تَسْتَطِيْعَ مِنْ الأُمُوْرِ يَدَانِ»[1]

ومما يضاف للعصا استعارتها للاسترقاق، دليل التسلط من جانب، والخنوع من الجانب الآخر، ومن ذلك قول أمرئ القيس :

قُــوْلاَ لِــدُوْدَانَ عَبِيْــدِ العَصَــا
مَــا غَــرَّكُــم بِــالأَسَــدِ البــاسـل

ويقال لبني أسد : «عبيد العصا» يعني أنهم كانوا ينقادون لكل من حالفوا من الرؤساء .

وقال بشر بن أبي خازم :

«عَبِيْدُ العَصَا لَمْ يَتَّقُوْكَ بِذِمَّةٍ
سِوَى سَيْبِ سُعْدَي إِن سَيْبَك وَاسِعُ»[2]

---

(١) البيان والتبيين : ٣/ ٨٠ .
(٢) البيان والتبيين : ٣/ ٤٠ .

ويضيفون الرأس للعصا ليدلوا على صغر الرأس، ويستفيدون من ذلك للذم، ومن هؤلاء عمر بن هبيرة، وكان صغير الرأس، فقال فيه سويد بن الحارث:

مَنْ مُبْلِغٌ رَأْسَ العَصَا أَنَّ بَيْنَنَا
ضَغَائِنَ لاَ تُنْسَى وَإِنْ قَدُمَ الدَّهْرُ

وقال آخر:

فَمَنْ مُبْلِغٌ رَأْسَ العَصَا أَنَّ بَيْنَنَا
ضَغَائِنَ لاَ تُنسَى وَإِنْ قِيْلَ سُلَّتِ

وكان والبة صغير الرأس، فقال أبو العتاهية في رأس والبة، ورؤوس قومه:

«رُؤُوْسُ عِصِيٍّ كُنَّ مِنْ عُوْدِ أَثْلَةٍ
لَهَا قَادِحٌ يَبْرِيْ وَآخَرُ مُخْرِبُ»[1]

حتى أُبْنَةَ العصا، وهي العقدة التي تأتي فيه، وقد تكون من بين أخريات، يستفاد منها للتعبير، ويضرب بها المثل فيقال:

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٤١.

«ما هو إلا أُبنة عصا، وعقدة رشا». [1]

وليس هذا مدحاً، لأن الأبنة في العصا تشينه، والعقدة في الرشا تعوق العمل به، وقد تؤذي يد الماتح، إلا إذا كانت ابنة عصا على العدو.

ويعثر صالح بن عبدالقدوس على حكمة يقتبسها من العصا ولحائها، فيقول بحق:

لاَ تَـدْخُلَـنْ بِنَمِيْمَـةٍ بَيْنَ العَصَا وَلِحَائِهَا[2]

وتوحي طبيعة اللحاء لشبل بن معبد البجلي بمعنى صادق على حالته، إذ يقول:

«بَرَتْنِي صُرُوفُ الدَّهْرِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
كَمَا يُبْتَرَى دُوْنَ اللِّحَاءِ عَسِيْبُ»[3]

ويأتي حميد بن ثور الهلالي بالعصا رمزاً للقوة، فيقول:

«الْيَـوْمَ تُنْتَـزَعُ العَصَـا مِـنْ رَبِّهَـا
وَيَلُوكُ ثِنْيَ لِسَانِهِ المِنْطِيْقُ»[4]

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٥١، ١٢١.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ٧١.
(٣) البيان والتبيين: ٣/ ٧١.
(٤) البيان والتبيين: ٣/ ٥٩.

ويقول شاعر، ملمزاً إلى القدرة على التقويم في حالة، وعدم القدرة على ذلك إذا فات الأوان، وهذا معنى يستعار للحث على تقويم الصغير قبل أن يكبر، ومعالجة الأمر في بدئه؛ والبيت الآتي لا يخلو من إشارة إلى ذلك:

«نُقِيْمُ العَصَا مَا كَانَ فِيْهَا لُدُوْنَةٌ
وَتَأْبَى العَصَا فِي يُبْسِهَا أَنْ تُقَوَّمَا»(١)

ولعل من المناسب في هذا المقام أن نذكر أن العصا في وقت من الأوقات، وفي ظرف بعينه، كانت مهمة للدولة، لأنها رمز شرف، تفخر به الدولة، وتحافظ عليه؛ فالعصا هو ما تفخر به الدولة العباسية، لأنها من الأشياء التي تركها الرسول ﷺ، وحرص على اقتنائها الخلفاء من بعده، ومعها رداؤه، والقعب والقضيب، كما جاء في قول الشاعر إسحاق بن سويد:

---

(١) ومن الأبيات المشهورة في هذا المعنى قول الشاعر:
إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولا تلين إذا قومتها الخشب
البيان والتبيين: ٣/ ٨٣

«فِـيْ رِدَاءِ النَّبِـيِّ أَقْـوَى دَلِيْـلٍ
ثُمَّ فِيْ الْقَعْبِ وَالعَصَا وَالقَضِيْبِ»(١)

القعب: القدح الصغير.

والبيت الذي جاءت الإشارة السياسية فيه هو قول أبي الشيص الأعمى في هارون الرشيد:

«يَا بَنِيْ هَاشِمٍ أَفِيْقُوا فَإِنَّ الْـ
ـمُلْكَ مِنْكُم حَيْثُ العَصَا وَالرِّدَاءُ
مَـا لِهَـارُوْنَ فِـي قُـرَيْـشٍ كَفِـيٌّ
وَقُـرَيْـشٌ لَيْسَـتْ لَهُـمْ أَكْفَـاءُ»(٢)

والشيب والعصا رفيقان قلّ أن يفترقا، خاصة عندما يبلغ المرء سنا متقدمة، ويبدأ بالشكوى من مفاصل رجليه، وعظام فخذيه وساقيه؛ وتبدأ الرجل تئن تحت حمل الجسم، والقدم تتعب من جهد السير؛ حينئذ يشعر الإنسان بأن قدميه لا تكفيان للسير، ولحمل الجسم، ولابد من رجل ثالثة، تساعد على

(١) البيان والتبيين: ٣/ ١٢٣.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ١٢٣.

الحمل، وتعين على السير، وحينئذ تكون العصا هي المستجيب للنجدة، وهي المغيث للصرخة؛ تأتي فتسند، وتتهيأ لتساعد، فتكون جزءاً من الإنسان، يتبعه أينما اتجه، ويُرافقه أينما قعد؛ إن مشى فالعصا في يده، وإن قعد فهي بجانبه، وإن نام فهي مسامقة له، وإن صلى فهي معه، قياماً وسجوداً؛ يزيد عبؤها، وتظهر أهميتها، عند صعود الدرج، أو نزوله؛ تطول وتقصر بطول الإنسان وقصره، وتقوى وتضعف بقدر قوته وضعفه، وبقدر ثقل جسمه، أو خفته؛ تختار اختياراً دقيقاً إذا كان المرء موسراً، وقد يكون لديه منها أنواع، وأنواع، وتأتي ساذجة إذا لم تسمح إمكانات الإنسان المادية بالتشرط والانتقاء، فقد يكفي غصن من شجرة يقطع، فيهذب، ثم يدخل في الخدمة على أوسع نطاق.

وفي التراث أقول كثيرة عن العصا وصلتها بالرجل الكبير، أو المرأة المسنة، جاء بعض القول نثراً، وجاء بعضه شعراً.

وهذا عروة بن الورد يصف حاله عند الكبر، ويستعير العصا للتعبير عن الكبر فيقول:

أَلَيْسَ وَرَائِي أَنْ أَدِبَّ عَلَى العَصَا
فَيَأْمَنَ أَعْدَائِيْ وَيَسْأَمَنِي أَهْلِي[1]

وقال لبيد واصفاً حالة ضعفه عندما تقدمت به السن، ودب إليه المشيب:

أَلَيْسَ وَرَائِيْ إِنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي
لُزُوْمُ العَصَا تُحْنَى عَلَيْهَا الأَصَابِعُ»[2]

ويأتي أعشى بني ربيعة بمعنى بديع، وقول مبتكر، فيصور بيعاً وشراءًا، والمباع هو الشباب، والمشترى هو الشيب، وتحمل الصورة معنى الممانعة في البيع، ولكن أمر الله غالب، وهذا هو يقول:

فَإِمَّا تَرَيْنِي حَلِيْفَ العَصَا
فَمَا كُنْتُ مِنْ رَثْيَةٍ خَامِعَا

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٨٣.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ٨٣.

فَسَاوَمَنِي الدَّهْرُ حَتَّى اشْتَرَى
شَبَابِي وَكُنْتُ لَهُ مَانِعَاً[1]

ويُعَبَّرُ عن الكبر بالدبيب على العصا في قول ليلى الأخيلية:

«نَحْنُ الأَخَايِلُ لاَ يَزَالُ غُلاَمُنَا
حَتَّى يَدِبَّ عَلَى العَصَا، مَذْكُورَا»[2]

وكثير من الشعر قيل في المشيب، وفيما جاء به للإنسان من فقد ميزات، وجلب أضرار، ولا يكاد يخلو شيء منه دون إشارة إلى الغيد، ونفرتهن من المسن، وأسى المسن لذلك، ومما جاء في هذا الصدد ما رواه الأصمعي عن أحد الأعراب:

«أَلاَ قَالَتِ الخَنْسَاءُ يَوْمَ لَقِيْتُهَا
كَبِرْتَ وَلَمْ تَجْزَعْ مِنَ الشَّيْبِ مَجْزَعَا

(١) قال الشاعر مشيراً إلى تحول الشباب إلى المشيب، مشيراً إلى العصا لازمةً له:
إذا دببت على المنساة من كبر فقد تباعد منها اللهو والغزل
البيان والتبيين: ٣/ ٣١، والبيان والتبيين: ٣/ ٨٧.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ٨٩.

رَأَتْ ذَا عَصًا يَمْشِي عَلَيْهَا وَشَيْبَةٍ
تَقَنَّعَ مِنْهَا رَأْسُهُ مَا تَقَنَّعَا
فَقُلْتُ لَهَا لاَ تَهْزَئِي بي فَقَلَّمَا
يَسُوْدُ الفَتَى حَتَّى يَشِيْبَ وَيَصْلَعَا
وَلِلْقَارِحُ اليَعْبُوْبُ خَيْرُ عُلالَةٍ
مِنَ الجَذَعِ المُجْرَى وأَبْعَدُ مَنْزَعَا»[1]

وقد يستعان بالعصا لعجز غير الشيب، وغير كبر السن، كأن يستفاد منها للتغلب على عيب العرج، وقد جاء الشعر بأبيات بديعة في هذا، فيها صور جميلة، أغرت بنقلها، وتداولها بين الناس، خاصة وأن بعضها يجد الأعرج فيها تعزية، ويجد في الاستدلال بها راحة، ومثل الأعرج الأعمى، وحاجته، ففيها له فائدة جلّى، ومنفعة متناهية النفع..

وتدخل العصا في الأمثال عن الأعرج، مصورة الحاجة، وعدم الاستغناء، فيقال:

«أقرب من عصا الأعرج».[2]

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ١٢٣.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ١٢٠.

ويضرب المثل بعصا النهدي، ويبدو أن عصا النهدي كما قيل، إملاسَّت من طول استعمالها، لأن صاحبها عمر، والشاعر في البيت الآتي يصف فرسه بدقة أعْضائها، ونحفها، فهي كشوكة النخلة، ومثل عصا النهدي في الملاسة، وقد وصف ما تُعلق به من نوى تمر قران، فيقول:

سُلاَّءَةٌ كَعَصَا النَّهْدِيِّ غَلَّ لَهَا
مُنَظَّمٌ مِنْ نَوَى قُرَّانَ مَعْجُومُ[1]

ويدخل شاعر المرأة في أمر رجله المحتاجة إلى أن تسند بعصا، وأن تقام بمعضد، فيقول، وهو رجل من بني عجل:

«وَشَى بِيَ وَاشٍ عِنْدَ لَيْلَى سَفَاهَةً
فَقَالَتْ لَهُ لَيْلَى مَقَالَةَ ذِيْ عَقْلِ
وَخَبَّرهَا أَنِّي عَرَجْتُ فَلَمْ تَكُنْ
كَوَرْهَاءَ تَجْتَرُّ المَلاَمَةَ لِلْبَعْلِ

(١) البيان والتبيين: ٣/ ١٢٠.

وَمَا بيَ مِنْ عَيْبِ الفتَى غَيْرَ أَنَّنِيْ
جعلْتُ العَصَا رِجْلاً أُقِيْمُ بِهَا رِجْلِي»[1]

ويطلق أبو ضبّة الشكوى مما برجله من الضعف نتيجة الكبر، فيقول:

«وَقَدْ جَعَلْتُ إِذَا مَا نمتُ أَوْجَعَنِي
ظَهْرِيْ وَقُمْتُ قِيَامَ الشَّارِف الظَّهِرِ[2]
وَكُنْتُ أَمْشِيْ عَلَى رِجْلَيْنِ مُعْتَدِلاً
فصِرتُ أَمْشِي عَلَى رِجْلٍ مِنَ الشَّجَرِ»[3]

وقال أعرابي من بني تميم في هذا المعنى:

وَمَا بِيَ مِنْ عَيْبٍ غَيْرَ أَنَّنِي
أَلِفْتُ قَنَاتِي حِيْنَ أَوْجَعَنِي ظَهْرِي[4]

وقد استغل أحد الشعراء العرج، فجعل منه مادة لهجو، وقد ساعده الحال في هذا، فقد كان هو

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٧٦.
(٢) الشارف من الإبل: : المسن، والظهر: الذي يشتكى صدره. وقيل إن البيت ينتهي بالشارب السكر.
(٣) البيان والتبيين: ٣/ ٧٦.
(٤) البيان والتبيين: ٣/ ٧٦.

أعرج، وكان الأمير أعرجَ، وصاحب شُرَطه كذلك، وهذا ما قاله الحكم بن عبدل الأسدي، وقد دخل على عبدالحميد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب، وهو أمير الكوفة، وهو أعرج، وكان صاحب شُرَطه أعرج، فقال:

أَلْقِ العَصَا وَدَعِ التَّخَامُعَ وَالْتَمِسْ
عَمَلاً فَهٰذِي دَوْلَةُ العُرْجَانِ
لِأَمِيْرِنَا وَأَمِيْرِ شُرْطَتِنَا مَعًا
لِكِلَيْهِمَا يَا قَوْمَنَا رِجْلاَنِ
فَإِذَا يَكُونُ أَمِيْرُنَا وَوَزِيْرُنَا
وَأَنَا فَإِنَّ الرَّابِعَ الشَّيْطَانُ»[1]

وابن عبدل نفعه هجاؤه، وأفادته سلاطة لسانه، إذ خافه الناس خوفاً شديداً، ورهبوا كلمته، وتوقوا شره بالعطاء الجزيل، والمن عليه أكثر مما يتوقع؛ وقد ظهر للناس هذا، فتضايق بعض المنافسين له، إذا أن عصاه أصبحت تهاب هيبةَ قبعةِ دانلوب في

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٧٦.

مصر، وهو مفتش انجليزي، كان يذهب للتفتيش في مدرسة، ويرسل قبعته إلى مدرسة أخرى، فتعلق، فيظن أنه موجود، ويتصرف الموظفون في ضوء ذلك.

وهذا ما ورد عن ابن عبدل في التراث:

«قالوا: ولما شاع هجاء الحكم بن عبدل الأسدي لمحمد بن حسان بن سعد، وغيره من الولاة، والوجوه، هابه أهل الكوفة، واتقى لسانه الكبير والصغير، وكان الحكم أعرج، لا تفارقه عصاه، فترك الوقوف بأبوابهم، وصار يكتب على عصاه حاجته، ويبعث بها مع رسوله، فلا يحبس له رسول، ولا يؤخر عنه لقراءة الكتاب، ثم تأتيه الحاجة على أكثر مما قدر، وأوفرَ مما أمّل، فقال يحيى بن نوفل:

«عَصَا حَكَمٍ فِي الدَّارِ أَوَّلُ دَاخِلٍ
وَنَحْنُ عَنِ الأَبْوَابِ نُقْصَى وَنُحْجَبُ»[1]

---

(١) وزاد بعدها في الأغاني:

وكانت عصا موسى لفرعون آية ... وهذي لعمر الله أدعى وأعجب
تطاع فلا تعصى ويحذر سخطها ... ويرغب في المرضاة منها ويرهب

البيان والتبيين: ٣/ ٧٥.

وقال أحد العرجان، ويقال إنه عمرو بن أحمر الباهلي؛ وقد جعل المرأة في ذهنه، وهو يتحدث عن رجله الثالثة، وهي العصا:

«مَا لِلْكَوَاعِبِ يَا دَهْمَاءُ قَدْ جَعَلَتْ
تَزْوَرُّ عَنِّي وَتُطْوَى دُوْنِيَ الحُجَرُ
لاَ أَسْمَعُ الصَّوْتَ حَتَّى أَسْتَدِيْرَ لَهُ
لَيْلاً طَوِيْلاً يُنَاغِيْنِي لَهُ القَمَرُ
وَكُنْتُ أَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ مُعْتَدِلاً
فَصِرْتُ أَمْشِي عَلَى رِجْلٍ مِنَ الشَّجَرِ»[1]

ونأتي إلى أسماء العصا، وما يقوم مقامها، وما جاء في ذلك في الأدب العربي، وقد أحاط الجاحظ بشيء كثير من ذلك، جاء مفرقاً بين صفحات كتبه، والرئيس منها في ذلك البيان والتبيين.

فمن أسمائها العصا، والمنسأة، والمخصرة، والقضيب، والقناة، والهراوة، والعجراء، والدبوس، والخيزرانة، والمحجن، والعكازة، والعنزة، والدرة.

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٧٥.

وقد مر بنا كثير مما قيل في العصا بمسماها هذا.

أما المنسأة فقد وردت في القرآن الكريم وصفاً لعصا سليمان بن داود عليه السلام، وكيف أنه مات متكئاً عليها، وبقي كذلك حتى أكلت الأرضة العصا، وسقط، فعلمت الجن أنه قد مات.

وقد مر بنا بيت فيه ذكر المنسأة في الهامش، يقول فيه الشاعر:

«إِذَا دَبَبْتُ عَلَى المِنْسَاة مِنْ كِبَرٍ
فَقَدْ تَبَاعَدَ مِنْهَا اللَّهْوُ وَالْغَزَلُ»[1]

أما المِخْصَرَة، فيبدو أنها عصا صغيرة، أقرب ما تكون إلى الدرة، وهي أقرب طولاً إلى المهشة، التي يهش بها الذباب، ولعلهم كانوا يعتنون بها، فيختارونها من خشب ثمين، ويهتمون بمظهرها، لأنها لا تكاد تفارق اليد، ويمكن أن تمسك باليد، ويؤشر بها، وتوضع تحت الإبط، ومنظرها يذكر بعصا المارشالية في زمننا هذا؛ وهي تَرِد ملازمة

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٣١.

للخلفاء، والخطباء، وعمال الخليفة، وكبار القوم.

ومما يدل على صغر المخصرة قول الجاحظ:

«وتكون العصا محراثاً، وتكون مخصرة، وتكون المخصرة قضيب حنيرة (القوس بلا وتر) وعود ساجور، ثم توديه (خشيبة تُصَرُّ بها أخلاف الناقة).

كل هذه الأوصاف تدل على صغرها، ويجزي منها أصغر حجم يمكن أن يتوقع، ولعل لها من اسمها نصيب، فهي اختصار للعصا، وتصغير له، أو لعها تُشبَّه بالخصر النحيل!! أو لعلها إذا طالت لا تتعدى الخصر.

وقد عرف عن الرسول ﷺ أنه حمل المخصرة، وفيما روي عنه أنه جاء إلى البقيع، ومعهُ مخصرة، فجلس، ونكت بها الأرض، ثم رفع رأسه، فقال:

«ما من نفس منفوسة، إلا وقد كتب مكانها من الجنة والنار». [1]

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ١١.

ويقول الجاحظ فيما يخص مخصرةً للنبي ﷺ:

«ومما يدلك على استحسانهم شأن المخصرة حديث عبدالله بن أنيس ذي المخصرة، وهو صاحب ليلة الجهني، وكان النبي ـ عليه السلام ـ أعطاه مخصرة، وقال:

«تلقاني بها في الجنة»، وهو مهاجري، عَقَبِيٌّ، أنصاري، وهو ذو المخصرة في الجنة». (١)

وهي خفيفة الحمل، لا تعترض طريقاً، ولا تقف عائقاً دون عمل، ولهذا ألفوها في مجالسهم، ونقلوها معهم في سهرهم، وسمرهم، ورحلات نزهتهم، وقد لاحظ الجاحظ هذا فقال:

«والدليل على أنهم كانوا يتخذون المخاصر في مجالسهم، كما يتخذون القنا والقسيَّ في المحافل، قول الشاعر في بعض الخلفاء:

فِـي كَفِّـهِ خَيْـزُرَانٌ رِيْحُـهُ عَبِـقٌ
مِنْ كَفِّ أَرْوَعَ فِي عِرْنِيْنِهِ شَمَمُ

(١) البيان والتبيين: ٣/ ١١.

يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضَى مِنْ جَلالَتِهِ
فَمَا يُكَلَّمُ إِلاَّ حِيْنَ يَبْتَسِمُ»[1]

وهذا يدل على أن الجاحظ لا يعتبر أن هناك فرقاً بين الخيزرانة وبين المخصرة، وقد يكون ذلك لقرب إحداهما من الأخرى في الطول، ولاتفاق العمل بهما، ودورهما في حياة الناس.

ومن الأدوار التي تؤديها المخصرة أنها تقوم بالإشارة، مقام الكلام، فالشاعر يقول:

مَجَالِسُهُمْ خَفْضُ الحَدِيْثِ وَقَوْلُهُمْ
إِذَا مَا قَضَوا فِي الأَمْرِ وَحْيُ المَخَاصِرِ[2]

وقد تواتر ذكر ملازمة الخطيب المخصرة، وهو يخطب، وهي لائقة به، لأنها تؤدي الإشارة المبتغاة، إذا ما أراد بها ذلك.

يقول الشاعر:

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٤١.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ٤٢.

«يُصِيْبُونَ فَصْلَ القَوْلِ فِيْ كُلِّ خُطْبَةٍ
إِذَا وَصَلُوا أَيْمَانَهُمْ بِالمَخَاصِرِ»[1]

ويتعودون على المخاصر في خطبهم، حتى إنّ أحدهم يعجزه البيان إذا أريد منه أن يخطب، وليس معه مخصرة، بل إن بعضهم لا يقبل أي مخصرة، ولكنه يصر على مخصرته، لأن الملمس، وثقلها، له أهمية في نفس الخطيب.

«أراد معاويةُ سحبانَ وائل على الكلام، وكان قد اقتضبه اقتضاباً، فلم ينطق حتى أتوه بمخصرة، فرطلها بيده، فلم تعجبه، حتى أتوه من بيته». [2]

وهذا يعني أن ملمس المخصرة يريح يده، وثقلها يعجبه، فَرَقْلها ورَطْلُها أكد له أن هذه التي لم يعتد عليها لن تريحه ذهناً، ولن تسعده نفساً، وعلى هذا فسوف يكون منشغل البال عن الكلام، بهذا الجسم المزعج في يده.

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٤٢.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ١٢٠.

أما وقد جاؤوه بما تعوَد على ملمسه وثقله، فقد جاؤوه بما يوحي له بالقول، ويبعث له بالمعاني، ويساعده على توافدها، ويهيء له تنظيمها، وإتقانها، وتأثيرها.

ومثل سحبان وائل الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان، هو وخيزرانته، فقد أورد الجاحظ عنه هذا الخبر:

«قال عبدالملك بن مروان:

لو ألقيت الخيزرانة من يدي لذهب شطر كلامي». [1]

هذا يؤكد أن الخيزرانة، أو المخصرة، ذات وحي للخطيب، فإذا اعتاد عليها أصبحت لازمة له، ولا يسير أمره سيراً حسناً بدونها.

ولعل ما قاله عبدالملك هو الذي أوحى لأحد الشعراء أن يمدح بعض الخلفاء بقوله:

---

(١) يقول وائلة السدوسي في هجاء عبدالملك بن المهلب:

لقد صَبرتْ للذل أعواد منبر تقوم عليها، في يديك قضيب

البيان والتبيين ٣/ ٧٨، والبيان والتبيين ٣/ ١٢٠.

«يَؤُمُّوْنَ مُلْكَ الشَّامِ حَتَّى تَمَكَّنُوا
مُلُوْكًا بِأَرْضِ الشَّامِ فَوْقَ المَنَابِرِ
يُصِيْبُونَ فَصْلَ القَوْلِ فِيْ كُلِّ خُطْبَةٍ
إِذَا وَصَلُوا أَيْمَانَهُمْ بِالمَخَاصِرِ»[1]

وملازمة الخطيب لعصا في يده ليس أمراً طارئاً على المجتمع الإسلامي، ولكنه كان معروفاً في الجاهلية، وكان الخطيب يعتمد على سيفه وهو يخطب، أو على قوسه كما روي عن قس بن ساعدة في خطبته المشهورة؛ واستمرت ملازمة الخطيب للعصا إلى هذا اليوم.

والمخصرة، ولازمتها للقول، تتكرر كثيراً في أقوالهم وشعرهم، ومن ذلك قول الشاعر من أبيات ذكرها:

«أَهْلُ التَّجَاوُبِ فِي المَحَا
فِلِ والمَعَاوِل بِالمَخَاصِرِ»[2]

ويقول الجاحظ عن ملازمة الخطباء لحمل

(١) البيان والتبيين: ٣/ ١١٧.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ١١٧.

العصا أو المخصرة، ويذكر أن هذا خاص بخطباء العرب، ويسهب في دور المخصرة في حياتهم، فيقول:

«إن حمل العصا والمخصرة دليل على التأهب للخطبة، والتهيؤ للإطناب، والإطالة، وذلك شيء خاص في خطباء العرب، ومقصور عليهم، ومنسوب إليهم، حتى إنهم ليذهبون في حوائجهم والمخاصر بأيديهم إلفاً لها، وتوقعاً لبعض ما يوجب حملها، والإشارة بها». (١)

وهذه هي صفة العصا في جيل آبائنا، وأول زمننا، فكان من الملفت للنظر أن يسير الشخص بدون عصا في يده، والقادر يبتاع عصا أو عِصيّ الخيزران المستوردة، ذات الوبَنِ المتعددة، والرأس المستديرة، أو المعوجة وذات الرأس المستديرة تصلح للضرب المؤلم، أو غير المؤلم، أما معوجة الرأس فتفيد في تناول الأشياء، ويمكن تعليقها؛ وكانت العصي لبعض الناس هواية، مثل السُّبَح، فتجد عند أحدهم منها عدداً متنوعاً،

(١) البيان والتبيين: ٣/ ١١٧.

يبادل بينها يومياً في الاستعمال.

أما غير القادر فيكتفي «بمطرق» ـ كما كان يسمى ـ يقتطعه من شجرة الأثل في الغالب، ويعتني بمقطعه، و «يذرب» رأسه، حتى يصلح «لِنَحْزِ» الحيوان، إذا حرن، وكلما كان الغصن لدنا كان العصا أفضل، حتى إذا هزه صاحبه تلوى في الهواء كالحية وقد يلحى، ويدهن، وينقش، وقد يكون النقش بالنار بميسم رفيع يبين الحرق، ولا يضر بالعصا، وقد يُحَنَّى بالحنا؛ وهذه العناية تشعر صاحبه والناس بأنه أصبح ذا قيمة تضاهي المستجلب، وتساوي المستورد.

ولا تزال عادة حمل العصا معتبرة، ومحافظ عليها في دول الخليج، ومن قبل علية القوم، ومنظرها يهز أمثالنا، لأن أحدنا يرى فيها شبابه، وتُذكره بماض جميل، ذي صور بديعة؛ فهذا جمل بارك في الطريق، فالعصا تثيره، وتبعده، وهذا حمار قد سد الطريق، والعصا تحركه، وهذه بقرة عادت من «السرح» في المساء، والعصا يحثها على السير قبل غياب الشمس،

وحلول الظلام، وفوات صلاة المغرب؛ وهذا عش عصفور فراخه قاربت على الطيران، وصاحب العصا لها بالمرصاد، يلف عشها برأس عصاه، فَيُنْزِلها من عُصْمها، ويشويها على هدب الأثل، وبقايا التبن؛ ولهم فيها مآرب أخرى، لا تكاد تحصى، وأحدها أن يجلس أحدهم يفكر وينكش الرمل برأسها، وهو ينتظر صديقاً، أو يكتب كلمات على التراب.

وهذه الصورة ليست بعيدة عمن درس سيرة رسول الله ﷺ ورأى ما يفعله بالمخصرة، وقد مر بنا ما روي عن نكته الأرض بالمخصرة في البقيع، ومما يروى عنه:

«أن رجلاً ألحّ على النبي ﷺ في طلب بعض المغنم، وفي يده مخصرة، فدفعه بها، فقال:

يا رسول الله، أَقِصَّني.

فلما كشف النبي له عن بطنه احتضنه، فَقَبَّلَ بطنه». [1]

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٤٢.

والذي أذكره أنه كان يعدل الصفوف استعداداً للمعركة، وكان يقومها بالمخصرة في يده، وكان هذا الصحابي حريصاً أن يكون آخر عمل له في الدنيا ـ إن كتبت له الشهادة ـ ملامسة شفتيه جلد رسول الله ﷺ.

أما القضيب، فقد ورد بلفظه في شعرهم، وهو أحياناً يدخل في نطاق العصا، أو المخصرة، أو الخيزرانة، ولعل التجاوز في الصفات هو الذي أدى إلى تداخل الأسماء بين المسميات.

وقد وصفوا ما يمسكه المغني بيده ليوقع به اللحن بأنه قضيب، وهذا النوع قصير، وقال عنه الجاحظ:

«والمغني قد يوقع بالقضيب على أوزان الأغاني، والمتكلم قد يشير برأسه ويده على أقسام كلامه وتقطيعه؛ ففرقوا ضروب الحركات على ضروب الألفاظ، وضروب المعاني؛ ولو قبضت يده، ومنع حركة رأسه، لذهب ثلثا كلامه». [1]

(١) البيان والتبيين: ٣/ ١١٩.

أما القضيب الذي يعتمد عليه الخطيب فهو أطول من هذا، وقد مرّ بنا القضيب الذي ورثه الخلفاء عن الرسول ﷺ وصار من رموز الخلافة.

والقناة من بين العصي، وفائدتها مثل فائدة العصي، وما قيل عنها يوحي بأنها لدنة، ويمكن أن تُهَزّ، ويبدو أنها تختلف عن القناة في زمننا هذا، فهي أقرب إلى الهراوة، أو كما يسميها العامة «القِطْلَة»، أسفلها نحيف، وأعلاها متين، وهي ذات مفعول مؤثر إذا ضرب بها.

ومما يدل على لدونتها، ولينها، والغرض الذي تستعمل له قول أبي اليقظان:

«كانوا يقولون: أخطب بني تميم البعيث، إذا أخذ القناة، فهزها، ثم اعتمد بها على الأرض، ثم رفعها». (١)

ووردت في شعر أحدهم، راسما لها الصورة نفسها، قال الشاعر:

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ١١.

«صَلْبُ الحَيَازِيْمِ لاَهَذْرُ الكَلاَمِ إِذَا
هَزَّ القَنَاةَ وَلاَ مُسْتَعْجِلٌ زَعِقُ»

وقال جرير بن الخطفي في حمل القناة:

«مَنْ لِلْقَنَاةِ إِذَا مَا عَيَّ قَائِلُهَا
أَوْ لِلْأَعِنَّةِ يَا عَمْرَو بنَ عَمَّارِ»[1]

أما العجراء، فهي، في هذا الزمن، اسم آخر للهراوة، أعلاها متين، وأسفلها أدق، ولكنه أصابها في الزمن القديم ما أصاب غيرها من أنواع العصي، فَخُلط بينها وبين أخريات من جنسها، وسيتحدد بعض أمرها، وتتعين صفتها، في ضوء ما سوف نسوقه من أمثلة.

وقد وردت العجراء في حديث لأعرابي مع الحطيئة، ساقه الجاحظ، فقال:

«قال أعرابي للحطيئة:

---

(١) ولين القناة، ودقتها قالوا: «رجل كالقناة، وفرس كالقناة، كما قال الشاعر:
يجد فرسا مثل القناة وصارما حساما إذا ما هز لم يرض بالهبر
البيان والتبيين؛ ٣/ ٥٩، والبيان والتبيين: ٣/ ١٠.

ما عندك يا راعي الغنم؟

قال: عجراء من سلم.

قال: إني ضيف!

قال: للضيفان أعددتها». [1]

وكونها من سلم يوحي بوصفها، وسميت عجراء على ما يبدو لما فيها من عجر، وهي الوبن، أو العقد، وقد تكون هذه العقد ميزة، وقد تكون عيبا، حسب كثرتها وحدتها وخشونتها أو ملاستها.

أما الخيزرانة، فمعروف أنها من غصن شجر طيب الرائحة، وهي رفيعة قوية، ولهذا صلحت أن تكون اسماً للنساء، وصفة لهن، يشبَّهن بها في دقتها، وملاستها، وبياضها، ولينها.

والغصن وهو في شجرته يسمى خيزرانة، بدليل ما قاله الشاعر عن تجاوب حمام الورق على أغصان الشجر:

وَأَسْلَمَهَا البَاكُوْنَ إِلاَّ حَمَامَةً
مُطَوَّقَةً بَانَتْ وَبَانَ قَرِيْنُهَا

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٨٠.

تُجَاوِبُهَا أُخْرَى عَلَى خَيْزُرانَةٍ
يَكَادُ يُدَنِّيْهَا مِنَ الأَرْضِ لِيْنُهَا»[1]

ويضيف شاعر آخر صفة جميلة للخيزرانة، وهو طيب ريحها، فيقول واصفاً أحد الخلفاء:

فَـيْ كَفِّـهِ خَيْـزُرَانٌ رِيْحُـهُ عَبِـقٌ
مِنْ كَفِّ أَرْوَعَ فِيْ عِرْنِيْنِهِ شَمَمُ»[2]

ومما جاء عن الخيزران، وتشبيه النساء به، في مشيهن، وتثنيهن، قول الشاعر:

«إِذَا قَـامَـتْ لِسَبْحَتِهَـا تَثَنَّـتْ
كَـأَنَّ عِظَـامَهَـا مِـنْ خَيْـزُرَانِ

وقول آخر:

أَلاَ إِنَّمَـا لَيْلَـى عَصَـا خَيْـزُرَانَـةٍ
إِذَا غَمَـزُوْهَـا بِـالأَكُـفِّ تَلِيْـنُ»[3]

والمِحْجَن، نوع من العصا، وتسميه العامة

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٦٢.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ٤١.
(٣) البيان والتبيين: ٣/ ٦٢.

اليوم «المحجان» وهو عصا قوية رأسها منحن انحناء بزاوية حادة، حتى يمكن جذب الأغصان بها، وتناول الحبال برأسها؛ ومن استعمالها ضَرْب الأغصان حتى يسقط ما عليها من ورق أو جراد، ويسهل تعليقها على رحل الدابة، لما في رأسها من انحناء.

والمحجن قصير في الغالب، ولا يزيد طوله عن متر، وهو أمتن من إبهامين إذا قرنا، واليوم في الأغلب مصدره من الأثل.

ومما جاء عنه في التراث ما روي عن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ أنه أفاض من جمع (المزدلفة)، وهو يخرش بعيره بمحجنه.[1]

وورد في الحديث أن رسول الله ﷺ طاف بالبيت، يستلم الأركان بمحجنه.[2]

والعنزه أيضاً نوع من العصا، وقد شرفت بأن كانت تحمل بين يدي رسول الله ﷺ وربما جعلوها

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٨٥.

(٢) البيان والتبيين: ٣/ ٨٥.

قبلة عند الصلاة.[1]

ولأهمية العصا عندهم، ولدقتها، ولدانتها، وقوتها، سموا بها بعض خيلهم الجيدة الكريمة، ومن أشهر هذه الخيل المسماة العصا: فرس الأخنس ابن شهاب، وفرس جذيمة الأبرش، وفرس عوف ابن الأحوص، وفرس شبيب بن كعب الطائي.[2]

ومن مكملات العصا، خاصة في السفر، وعند استعمالها في الحضر للدابة، أن يكون بها سير، تعلق به، عندما لا يحتاجها صاحبها، وقد أشار الجاحظ إلى هذا بقوله:

«وإذا لم يحمل المسافر في عصاه سيراً سقطت، إذا نعس، من يده».[3]

وتتبين فائدة السير للعصا من استعمالهم له تعبيراً عن سد الحاجة عند الكبر، وقد استعار أحدهم هذا المعنى لذلك، يقول الجاحظ:

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٩٥.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ٦٦.
(٣) البيان والتبيين: ٣/ ٦٧.

«والرجل يتمنى إذا لم تكن له قوة، وهو يجد مسّ العجز، فيقول: «لو كان في العصا سير».

ولذلك قال حبيب بن أوس:

«مَـالَـكَ مِـنْ هِمَّـةٍ وَعَـزْمِ
لَـوْ أَنَّـهُ فِـي عَصَـاكَ سَيْـرُ»[1]

والعصا من الشجر، ويبدو أن العصا تأخذ قيمتها من الشجرة التي قطعت منها، ويعود الفخر بها إلى أصلها أولاً، ثم إلى استقامتها، ثم إلى نوع الوبن بها، وعددها، وقد جاء في التراث إشارات إلى بعض هذا منها ما أنشده الأصمعي، مما دل على أن هناك شجراً اسمه «الأرزن»، تؤخذ منه العصي الجيدة، والشاعر يقول:

«أَعْدَدْتُ لِلضِّيْفَانِ كَلْباً ضَارِيًا
وَهِـرَاوَةً مَجْلُـوزَةً مِـنْ أَرْزَنِ»[2]

ويقول بشر بن أبي خازم ذاكر عَصيّا مأخوذة من

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٦٦، ١٢١.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ٧٩.

شجر الطلح عوجاء : :

«إِذَا غَدَوا وَعِصِيُّ الطَّلْحِ أَرْجُلُهُمْ
كَمَا تُنَصَّبُ وَسْطَ البَيْعةِ الصُّلُبُ»[1]

وقال معدان الأعمى :

«فَغَدَا خَامِعًا بِوَجْهٍ هَشِيْمٍ
وَبِسَاقٍ كَعُوْدِ طَلْحٍ بَالِ»[2]

ويأتي شاعر، فيصف عصا، فيقول :

«صَفْرَاءُ مِنْ نَبْعٍ كَلَوْنِ الوِرْسِ
أَبْدَؤُهَا بِالدُّهْنِ قَبْلَ نَفْسِي»[3]

ويورد آخر ذكر عود النبع فيقول :

«وَلَوْ صَادَفَتْ عُوْداً سِوَى عُودِ نَبْعَةٍ
وَهَيْهَاتَ أَفْنَتْهُ الخُطُوب النَّوائِبُ»[4]

ودهن العصا، الذي مر في البيت السابق، مظهر

---

(١) البيان والتبيين : ٣/ ٧٥ .
(٢) البيان والتبيين : ٣/ ٧٥ .
(٣) البيان والتبيين : ٣/ ١٢٢ .
(٤) البيان والتبيين : ٣/ ٧٠ .

من مظاهر العناية بها، والدهن دائماً لكل شيء التفاتة عناية، وعصا شجر النبع تستحق العناية بها، ودهنها.

ويقول الجاحظ:

«وفي جواهر العصا تفاوت».

ويقولون: «ما هي إلا غصن بان».[1]

وغصن البان خير أنواع العِصي، للينه، وقوته، وصفائه، ولهذا توصف به الأجسام الفتية، يقول الشاعر:

«رَأَيْتُ الغَانِيَاتِ نَفَرْنَ مِنِّي
نِفَارَ الوَحْشِ مِنْ رامٍ مُفِيْقِ
رَأَيْنَ تَغَيُّرِيْ وَأَرَدْنَ لَدْنًا
كَغُصْنِ البَانِ ذِيْ الفَنَنِ الوَرِيْقِ»[2]

وشجر الرند أغصانه ينتقى منها عصي، لها مقام عند الناس، وقد قال عنها أحد الشعراء:

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٥٥.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ٨٢.

أَلاَ هَتَفَتْ وَرْقَاءُ فِي رَوْنَقِ الضُّحَى
عَلَى غُصُنٍ غَضِّ النَّبَاتِ مِنَ الرَّنْدِ[1]

ويقال إن الرند هو شجر الآس، ويقال إنه غير ذلك، وإنه من أشجار الصحاري، ورائحته زكية طيبة.

وليس كل غصن في شجر النبع ممدوحاً، فقد يأتي خشناً، فلا يحمد، وهذا أحد الشعراء يذكر ذلك، ولعل خشونته مفيدة إذا كان الغرض منه يقتضي الخشونة؛ وفيه مدافعة عدو:

«دَافَعَ عَنِّي جَلَبِيْ وَحَشِّي
فَهِيَ كَعُوْدِ النَّبْعَةِ الأَجَشِّ»[2]

والمسواك يأتي جيده من شجر الأراك، وله رائحة زكية، وطعمه نادر بين الشجر، وإذا كانت المساويك تؤخذ من جذوره، فالعصي يمكن أن تؤخذ من

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٦٣.

(٢) ويأتي وصف لنحو شجرة النبع في البيت الآتي:
علّ بَنيّ يشد الله أعظمهم والنبع ينبت قضبانا فيكتهل
البيان والتبيين ٣/ ٦٦، والبيان والتبيين ٣/ ٧٠.

أغصانه، وقد قال ورد بن عمرو بن ربيعة بن جعده، أحد شعراء الجاهلية:

«تَخَيَّرْتُ مِنْ نَعْمَانَ عُوْدَ أَرَاكَةٍ
لِهِنْدٍ فَمَنْ هَذَا يُبَلِّغُه هِنْدا»[1]

ويبدو أنه اختار مسواكاً. وفي الحجاز شجر يقال له «البشام» يؤخذ من أغصانه مساويك خضراء مفيدة، ويلجأ إليه عندما يعز طلب المساويك من الأراك، وبعض الناس يفضله، لقرب متناوله.

وهناك عُصي الشريانة، ويبدو أن العصا منها يستحق العناية به، فقد ذكر الشاعر أن بالإمكان دهنه بزبد:

«عَصَا شَرْيَانَةٍ دُهِنَتْ بِزُبْدٍ
تَدُقُّ عِظَامَهُ عَظْماً فعَظْمَا»[2]

ويذكر الجاحظ أن أبا العتاهية أهدى إلى أمير المؤمنين المأمون، من جملة ما أهدى له، عصا نبعٍ،

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٧٠.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ٧٠.

وعصا شريان، وعصا آبنوس، وعصا أخرى كريمة العيدان، شريفة الأغصان.[1]

وفي حديث الجاحظ عن الخطيب، وما يتسلح به للخطبة من ملابس، وعصي وغيرها يقول:

«وربما قام فيهم وعليه عمامته، وفي يده مخصرته، وربما كانت قضيباً، وربما كانت عصا، وفيها ما هو أدق من الخنصر، وقد تكون محككة الكعوب، مثقفة من الإعوجاج قليلة الأبن، وربما كان العود نبعا[2]، وربما كان من شوحط، وربما كان من آبنوس، ومن غرائب الخشب، ومن كرائم العيدان، ومن تلك المُلْس المصفّاة، وربما كانت لب غصن كريم، فإن للعيدان جواهر كجواهر الرجال، ولولا ذلك لما كانت في خزائن الخلفاء والملوك، ومنها ما لا تَقْرَبه الأرضة، ولا تؤثر فيه القوادح».[3]

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ١٢١.

(٢) من مفاخرهم بعصا النبع قول أحدهم:

وليس عصاه من عراجين نخلة ... ولا ذات سير من عصي المسافر

لكنها إما سألتِ فنبعة ... وميراث شيخ من جياد المخاصر

البيان والتبيين: ٣/ ٦٦.

(٣) البيان والتبيين: ٣/ ٩٢.

ومن مناسبات استعمال العصي ما ذكره الجاحظ عن أهل المدينة

«ولأهل المدينة عصي في رؤوسها عُجَرٌ، لا تكاد أكفهم تفارقها إذا خرجوا إلى ضياعهم، ومتنزهاتهم، ولهم فيها أحاديث حسنة وأخبار طيبة». [1]

والعصا والسيف محمولان يفتخر بهما للدفاع، وللهجوم والعراك، وقد كان لهما صلة قرابة من هذا الجانب، ويتداخلان في الصفات أحياناً، وقد يؤخذ من مادة العصا ما يضاف إلى عمل السيف مثل قول الشاعر:

«هُوَ الشِّهَابُ الَّذِيْ يُرْمَى العَدُوُّ بِهِ
وَالمَشْرَفِيُّ الَّذِي تَعْصَى بِهِ مُضَرُ»

يقال عصى بالسيف، واعتصى به». [2]

«وقال جرير:

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٥٨.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ٧٨.

تَصِفُ السُّيُوفَ وَغَيْرُكُمْ يَعْصَى بِهَا
يَا ابْنَ القُيُونِ وَذَاكَ فِعْلُ الصَّيْقَلِ»[1]

ويقف الجاحظ عند هذا التداخل بين العصا والسيف، فيقول:

«ويقولون: اعتصى بالسيف، إذا جعل السيف عصاه، وإنما اشتقوا للسيف اسما من العصا، لأن عامة المواضع التي تصلح فيها السيوف تصلح فيها العصي، وليس كل موضع تصلح فيه العصا يصلح فيه السيف». [2]

ويستمر الجاحظ في سرد الشواهد على تداخل الصفات فيروي البيت الآتي:

وَنَحْنُ صَدَعْنَا هَامَةَ ابنِ مُحَرِّقٍ
كَذَلِكَ نَعْصَى بِالسُّيُوفِ الصَّوَارِمِ

وقال عمرو بن الإطنابة:

وَفَتًى يَضْرِبُ الكَتِيْبَةَ بِالسَّيْـ
ـفِ إِذَا كَانَتِ السُّيُوفُ عِصِيًّا

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٧٩.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ٧٧.

وقال عمرو بن محرر:

نَزَلُوا إِلَيْهِم وَالسُّيُوفُ عِصِيُّهُم
وَتَذَكَّرُوا دِمَنًا لَهُمْ وَذُحُوْلاً»[1]

هذا عن العصا وحمله عند العرب في جاهليتهم وإسلامهم، وفي صحرائهم، ومدنهم، وقراهم، فإذا خلت أيديهم من العصي، كما هي حالنا اليوم، فلهذا صفة عندهم يطلقونها على من لا عصى معه، وهذا الجاحظ يبين هذا فيقول:

«والرجل إذا لم يكن معه عصا فهو باهل، وناقة باهل وباهلة إذا كانت بغير صرار، وقال الراجز:

أَبْهَلَهَا ذَائِدُهَا وَسَبَحَا
وَدَقَّتِ المَرْكُو حَتَّى ابْلَنْدَحَا»[2]

المركو: الحوض الكبير؛ وابلندح: اتسع وعرض.

وأشهر العصي وأقدمها ما ورد في القرآن الكريم، وهما عصا سليمان، وهي المنسأة التي كان متكئاً

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٧٧.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ٧٤.

عليها عندما مات، وعصا موسى، التي هزمت سحر السحرة، عصيهم وحبالهم، وقد اخترنا أن نأتي على هاتين العَصَوين في آخر الحديث عن العصا، لشهرتهما، ومعرفة كل من يقرأ القرآن بهما.

يقول الجاحظ عن عصا سليمان ـ عليه السلام ـ:

«وقد كانت العصا لا تفارق يد سليمان بن داود ـ عليه السلام ـ في مقاماته، وصلواته، ولا في موته، ولا في أيام حياته، حتى جعل الله تسليط الأرضة عليها، وسليمان ميت، وهو معتمد عليها، من الآيات عند من كان لا يعلم أن الجن لم تكن تعلم إلا ما تعلم الإنس». (١)

ويقول الجاحظ في موضع آخر؛ وهو يرد على بعض لمزات الشعوبية:

«والدليل على أن أخذ العصا مأخوذ من أصل كريم، ومعدن شريف، ومن المواضع التي لا يعيبها إلا جاهل، ولا يعترض عليها إلا معاند، اتخاذ سليمان بن داود ـ ﷺ ـ العصا لخطبته، ولمقاماته، وطول صلاته،

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٩٠.

ولطول التلاوة، والانتصاب، فجعلها لتلك الخصال جامعة، قال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾.[1]

وما جاء في القرآن عن سليمان ـ عليه السلام ـ ومنسأته كان مقتضباً، أما ما جاء عن عصا موسى ـ عليه السلام ـ فجاء مفصلاً وفي عدة سور؛ ومن بين الآيات التي جاء فيها ذكر عصا موسى الآية الكريمة الآتية، وفيها دعوة موسى لفرعون، وطلب فرعون آية تؤكد نبوة موسى، وانقلاب عصاه إلى ثعبان:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾.[2]

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٠٤-١٠٧.

وقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾. (١)

ومع هذا فلم يؤمن فرعون، ولم ينَصَعْ للدعوة، واعتقد هو ومن معه أن هذا من السحر، وأنه يمكن أن يقابل بسحر مثله، وعند فرعون من السحرة من يثق بأنهم لا يغلبون، وإذا كان عند موسى عصا فإن عندهم عِصِيّ، وقد دب الخوف فيمن رأى عصا موسى، وظنوا: ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَٰحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾. (٢)

وأمر فرعون السحرة، واتفقوا على يوم معلوم، يوم يجتمع فيه الخلق، ويشهدون على ما يجري، وجاء السحرة لميقات هذا اليوم المعلوم، ووقفوا موقف المتحدي من موسى، وخيروه بين أن يبدأ بعرض ما عنده من السحر، أو يبدؤا هم: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ۞ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ

(١) سورة الشعراء، الآية: ٣٢.
(٢) سورة طه، الآية: ٦٣.

وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .[1]

والتقمت عصا موسى ما جاؤا به من عصي مسحورة، وحبال مثلها موهمة، مما جعل السحرة يؤمنون دون أن يستأذنوا فرعون، لأنهم أدركوا أن هذه العصا تعمل بقوة غير قوة السحر الذي عرفوه، وقد أغضب هذا فرعون عليهم، فتهددهم بالعذاب الأليم.

وعصى موسى لها دور آخر، في موقف آخر، حتى لقد أخافت موسى نفسه، قبل أن يتبين له الأمر، وهذا ما بينته الآية الكريمة الآتية: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴾ .[2]

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١١٤-١١٨.

(٢) سورة القصص، الآية: ٣٠-٣١.

وقبل ذلك جاء موسى السؤالُ عما في يده: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۞ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾[1].

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۞ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾[2].

وهذا يدل على أهمية العصا في تلك الأيام، وأنه لا يستغني عنها أحد، فموسى كان يحملها دائماً، وسحرة فرعون جاؤ بعصيهم، وقد أصبحت عصا موسى بورودها بهذا التفصيل أشهر عصا، وقوله: «لي فيها مآرب أخرى»، أصبحت جملة على ألسنة الناس، الذين يحملون العصي، والمآرب التي أشار إليها موسى لا تكاد تحصى، وقد مر بنا شيء منها.

هذه بعض الأخبار والأقوال والأشعار عن العصا وما لم نأت به أكثر، ولا يستغرب هذا فأهمية العصا لا تقف عند حد.

ولم نتحدث عن العصي الحديثة، والمواد التي

---

(١) سورة طه، الآية: ١٦-١٧.
(٢) سورة طه، الآية: ١٩-٢٠.

تعمل منها اليوم، وأغلبها من الصناعة، يُتحكم في طولها؛ وفي سماكتها، وفي أغلبها من التدريج ما يتيح للإنسان أن يطيلها أو يقصرها.

وبعض المظلات، وهي حديثة، تقوم مقام العصا عندما لا يكون هناك مطر، ولا شمس، فيتوكأ عليها، وتنفع في بعض المآرب؛ ومنها الطويل، ومنها القصير الذي يمكن أن يوضع تحت الإبط، أو في المحافظ، فهو مثل المخصرة يمكن أن يطول أو يقصر. وأنواعها لا تكاد تحصى، لتباين العقول التي تصنعها، والأيدي المدربة التي تنتجها.

والعصا تعتبر في بعض الأحيان علاجاً لضعف المشيب، ولهذا تجدها في الصيدليات، وبأنواع مختلفة منها ما هو للاعاقة الخفيفة، ومنها ما هو للاعاقة المركبة؛ وبعض العصي اليوم هي للوجاهة، وجزء من تكملة الإشارة والملبس، ولهذا تأتي من العاج، ومن بعض المواد الممتازة، وتطعم بالذهب والفضة، وببعض الأحجار الكريمة، وبعضها

لثمنها لا تحمل، ولكنها تعلق للعرض، ولإمتاع البصر بها.

ولعل من الطريف أن نرى كلمة العصا تدب فتأخذ مكانها عنواناً لأحد الكتب فهناك مثلاً كتاب اسمه: «في كل واد عصا» كتبه الأستاذ إبراهيم الجرادي، وهو دراسة لأدب معالي الدكتور عبدالسلام العجيلي.

والعنوان يدل على الكتاب وما فيه، فالدكتور عبدالسلام ذو أودية خضراء متعددة في كثير من الأغراض والفنون، وقد وفق الكاتب في اختيار العنوان.[1]

❊ ❊ ❊

(١) والكتاب يعد للطبع أهداني الأخ الكريم الأستاذ العالم أحمد بن الشيخ محمد المانع، مجلدين «من نوادر المخطوطات»، حققها الأستاذ عبدالسلام محمد هارون، واحتويا على رسائل من بينها رسالة عن العصا لأسامة بن منقذ، وهي رسالة قيمة، وددت لو أني أطلعت عليها، قبل كتابة هذه المقالة، وسوف تفيد من يعود إليها، وتبدأ في صفحة: ١٨٠ من المجلد الأول.

العمامة عند العرب

العمامة عند العرب مثل التاج عند الفرس والروم، مظهر شرف، ورمز كرم، وعلامة تميز، تتميز عمامة الزعيم عن غيره، ويعرف بها، وتعرف به: طريقة لفها، ولونها، وحجمها.

حافظ عليها العرب، وحثوا على ذلك، وتمسكوا به، وهي رمز يكفي منه الساذج عندما لا يتوافر الثمين، ويبقى الاحترام، ويستمر التقدير، كما هو لا ينقص، فالعمامة والعصابة في المعنى واحد، والمهم هو لابسها.

لم يكن هذا الرمز معقداً في الجاهلية، ولا في أول الإسلام، بل كان يتسم بالتواضع، وكان المهم فيه هو معناه، وما يرمي إليه؛ ثم تطور بعد الفتوح، وتدفُّق الثروة والنعم، فصار مجالاً للتنوع، والتطور، وهدفاً للمباهاة؛ واقترب في قيمته، وفي منظره، من التيجان التي كان يلبسها الملوك قبل الإسلام.

تعددت أشكال العمة بعد أن اتسعت الدولة الإسلامية، وترامت أطراف ممتلكاتها، ودخل فيها من الشعوب المختلفة من جاء ومعه ما يضعه عادة على رأسه، وهذا للوجاهة والإشارة، وهذا للمهنة، ونوع العمل.

فأصبح للحاكم عمامة، ولِلشُّرَط عمامة، وللقضاة عمامة، وللفقهاء عمامة، وللتجار عمامة، وللقراء عمامة[1]، ولهذه المهنة عمامة، ولتلك أخرى؛ وقد تختلف منطقة عن منطقة فيما تختاره، فالعمامة في مكة غيرها في بُخارى، وسمرقند، وغيرها في المغرب والأندلس؛ ومثلما تغير الزي واللباس، وتنوعت أشكاله وألوانه، تغيرت العمامة، واختلفت في نوعها، ولونها، وقماشها.

والتراث مليء بأخبار العمامة، ففيه ما يوضح

(١) لما استخلف عمر بن عبدالعزيز جاء الشعراء فجعلوا لا يصلون إليه، فجاء عون بن عبدالله بن مسعود، وعليه عمامة، قد أرخى طرفيها؛ فصاح جرير:

يا أيها القارئ المرخي عمامته ... هذا زمانك إني قد مضى زمني
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه ... إني لدى الباب كالمصفود في قرن

الأغاني: ٨/ ٤٥.

أهمية العمامة للناس، للابس، وللناظر، وصلتهم بها، واعتبارهم لها، ونظرتهم إليها، وما اتصل بها من حوادث، وما واكبها من قصص وحكايات.

وقد كان للعمامة دور واضح أيام الحروب، فهي وإن اتخذت علامة لفريق، تمييزاً له عن فريق آخر، فهي رمز يقارب رمز العلم، وما يعطاه من احترام، وحماية، تصل إلى مقام الاستماتة والتضحية؛ وهناك من الأخبار ما يشير إلى أن تعميم القائد له أهمية كبرى، يشار إليه، ويُدَوَّن، ومن هذا ما روي عن رسول الله ﷺ أنه عندما بعث أسامة بن زيد، في بعض السرايا، عممه بيده، وسدل طرف عمامته.[1]

فتعميمه شرف، وسدل طرف العمامة يعني شيئاً مُهِمّاً عندهم، حتى أن سدل العمامة اتخذ سنة عند من يلبس العمامة ويبدو أن التطور في العمائم أدى إلى إهمال ذلك، وبقي بعض الناس حريصاً على إحياء هذه السنة، والقصة الآتية تبين جهد أحد الناس

(١) بهجة المجالس: ٢/ ٦١.

لعودة الناس إلى ما أهملوه من هذا الجانب :

«قال جرير بن عثمان :

جاء شريح بن عبيد إلى أبي عائذ الأزدي، فقال :

يا أبا عبدالله، لو أحييت سنة قد تركها الناس :

إرخاء طرف العمامة من الجانب الأيسر .

قال : يا ابن أخي، ما كان أحسنها! تركها الناس، فتركناها؛ ما أحب أن أعرف في خير ولا شر» .[1]

هذان الرجلان خيّران، كلاهما قصد وجه الله فيما نوى، وفيما فعل، وفيما قال، هذا دعا إلى إحياء سنة، وهذا ابتعد عما يشهره أمام الناس، لأن في الشهرة شبهة رياء .

والعمامة ولونها قد لا يكون لازمة من لوازم صاحبها في الجاهلية أو الإسلام، وقد يعرف الزعيم بعمة ذات لون، فإذا تجردت وبليت، فقد تكون الأخرى بلون مختلف، وكما عرف الرجل في فترة من فتراته بهذه العمة، يعرف في وقت آخر بلون مخالف .

---

(١) عيون الأخبار : ٢/ ٣٨٦ .

ومن الأخبار المتصلة بالعمامة والحرب، الخبر الآتي:

«بعث رسول الله ﷺ عبدالرحمن بن عوف إلى دومة الجندل، فتخلف عن الجيش، وغدا على رسول الله ﷺ عليه عمامة خز سوداء، فقال له رسول الله ﷺ:

ما خلفك عن أصحابك؟

قال: أحببت أن أكون آخرهم عهداً بك.

فأجلسه، فنقض العمامة، وعممه بيده، وأسدلها بين كتفيه قدر شبر، وقال:

هكذا فاعتم يابن عوف». [1]

ويبدو أن الرسول ﷺ مرآة أصحابه، يرى في لباسهم، خاصة العمامة، ما لا يرونه، فَيُعَدِّله لهم، ويصلحه بما يرى أنه يزيد من احترامهم، وهيبتهم؛ فهو في هذه الإشارة يؤكد على عبدالرحمن بن عوف أن لف العمامة بهذه الطريقة هو ما يناسبه، وما يجب أن يستمر عليه.

---

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ٣٩.

ومما جاء في العمامة في الحرب، القول الآتي:

«كان الزبير بن العوام يقاتل يوم بدر، وعليه عمامة صفراء». [1]

ويبدو أن هذه العمامة الصفراء، كانت فقط في هذه الوقعة، ولهذا قال: عمامة صفراء، ولم يقل العمامة الصفراء. وأفرده بهذا الخبر في هذه الوقعة لانفراد الزبير بعمامة، شَهَرَهُ لونها، والشجعان مثل الزبير بن العوام، ممن لا تتخطاهم العين في السلم أو الحرب.

ويبدو أن اللون الأصفر مفضل، لأنه يلفت النظر، لحدته ووضوحه في الميدان، وفي أسواق العرب، فهذا الزبرقان يروى أنه كان يصبغ عمامته بصفرة، ولعله اختار هذا اللون أيضاً لأنه لون الزعفران، وهو عندهم من الطيب، وقال الشاعر في هذه الصفرة:

«وَأَشْهَدَ مِنْ عَوْفٍ حُلُوْلاً كَثِيْرَةً
يَحُجُّوْنَ سِبَّ الزَّبْرَقَانِ المُزَعْفَرَا»[2]

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ٣٨، والبيان والتبيين: ٣/ ١٠١.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ٩٧.

وقد يختار السواد، وهو واضح في النهار، معلم لصاحبه، وأما في الليل فالأمر أقل أهمية، لأنهم في الليل يتفادون الحرب، ويتفادون الخُطب، ويبدو أن الحسن البصري ـ رحمه الله ـ كانت عمامته سوداء، كما جاء في حديث للحجاج:

«قيل للحجاج: من أخطب الناس؟

قال: صاحب العمامة السوداء بين أخصاص البصره (يعني الحسن)». [1]

وأصبح السواد رمز الدولة العباسية، فأصبحت العمائم الرسمية سوداء، وبدء هذا اللون جاء عندما كانت الدعوة العباسية سرية، فاتخذ الدعاة اللون الأسود، وكان علامة بينهم، وعليهم؛ حتى أن الإشارة إليهم، عند أول ظهورهم، وقيامهم على الحكم الأموي: هي المُسوِّدَة.

وقد رأينا اهتمام رسول الله ﷺ، بلف العمامة على الرأس؛ ومن قراءتي لما ذكر عن العمامة، وطريقة

(١) البيان والتبيين: ٢/ ٢٨٦.

طيها ولفها، أجد أن الأخوة السودانيين هم الذين بعمائمهم يمثلون العمامة التي كانت سائدة في زمن الرسول ﷺ.

ويبدو أن الذؤابة قد تكون على أيمن الرأس، وقد تكون على أيسره، وقد تكون خلفه، في وسطه، لتغطي العلباء، وتحميها. ويبدو أيضاً أن الذي يحكم الأمر هو ما إذا كان الشخص قد عمم نفسه، أو عممه غيره، فموقع المعمم قد يتحكم في الذؤابة أو الطرف، وهذا الاختلاف يذكرنا بالاختلاف بزر الطربوش في مصر قبل الثورة، وقبل القضاء على الطربوش؛ فمن الناس من كان يضعه إلى الخلف، ومنهم من كان يجعله على يمين الرأس، ومنهم من كان يفضله إلى اليسار.

ولطي العمامة ولفها صفات وأسماء تظهر أحياناً فيما دُوِّن في التراث، فمثلاً ورد أن مصعب بن الزبير يعتم «الفقداء»، وهو أن يعقد العمامة في القفا.

وقيل أن محمد بن سعد بن أبي وقاص كان يعتم

الميلاء، ويظهر أن ذلك يعني أن يعقدها بعد الطيّ إلى أحد الجانبين، وقد سجل الفرزدق هذه الصفة في بيته الآتي، ومحمد بن سعد قتله الحجاج:

وَلَوْ شَهِدَ الخَيْلَ ابنُ سَعْدٍ لَقَنَّعُوا
عِمَامَتَهُ المَيْلاَءَ عَضْبًا مُهَنَّداً[1]

والعمامة علامة الشرف، ودليل التميز، ولا يلبسها إلا المتقدم في القوم، ممن يقع عليه حمل الرئاسة، ويتحمل أعباءها من ديات، ومن مستلزمات الصلح، وقد وردت في التراث إشارات إلى ذلك منها ما يدل على أنهم مخدومون، موفرون في أيامهم الاعتيادية؛ فهم عدة الحرب، ورجال الشدائد:

«قال الشاعر:

إِذَا لَبِسُوا عَمَائِمَهُمْ لَوَوْهَا
عَلَى كَرَمٍ وَإِنْ سَفِرُوا أَنَارُوا

(١) البيان والتبيين: ٣/ ١٠٣.

يَبِيْعُ وَيَشْتَرِي لَهُمُ سِوَاهُمْ
وَلَكِنْ بِالطِّعَانِ هُمُو تِجَارُ»[1]

وليس كل معمم رئيساً، وليس كل ثري مقدماً، والعمامة لا تقوم ولا تقعد عندهم إلا إذا كان تحتها شرف وكرم، حينئذ تكون رمزاً على كنز ثمين، تَتَفداه القبيلة، وتُعلي مقامه، وتموت دونه:

«إِذَا المَرْءُ أَثْرَى ثُمَّ قَالَ لِقَوْمِهِ
أَنَا السَّيِّدُ المُفْضَى إِلَيْهِ المُعَمَّمُ
وَلَمْ يُعْطِهِمْ شَيْئاً، أَبَوْا أَنْ يَسُودَهُمْ
وَهَانَ عَلَيْهِمْ رَغْمَهُ، وَهُوَ أَلْزَمُ»[2]

وقد يكون الزعيم من الشرف بحيث لا يعتم أحد عنده، فيبقى هو الوحيد المعمم، وهو صاحب الشرف الأسمى، وهو أمر يبدو أن بعض القبائل، أو العشائر، قد اتفقت عليه، وهو من منطلق بيئتهم، وليس غريباً عنهم، أليس فحل الإبل لا يقبل غيره

(١) البيان والتبيين: ٣/ ١٠٤.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ١٠٣.

بينها؟ وكذلك فحل الرجال! وهذا الخبر يدل على أن هذا التصرف كان في بني عبد شمس على الأقل:

«كان أبو أحيحة سعيد بن العاص إذا اعتم لم يعتم معه أحد، هكذا في الشعر، ولعل ذلك أن يكون مقصوراً في بني عبد شمس.

وقال أبو قيس بن الأسلت:

وَكَانَ أَبُو أَحَيْحَةَ قَدْ عَلِمْتُمُ
بِمَكَّةَ غَيْرَ مُهْتَضَمٍ ذَمِيمِ
إِذَا شَدَّ العِصَابَةَ ذَاتَ يَوْمٍ
وَقَامَ إِلَى المَجَالِسِ والخُصُومِ
فَقَدْ حَرُمَتْ عَلَى مَنْ كَانَ يَمْشِي
بِمَكَّةَ غَيْرَ مُدَّخَلٍ سَقِيمِ»[1]

والعمة لشرفها يعتبرونها تاجاً، ويصرحون بهذا اللفظ في اعتزازهم برؤسائهم، إذا كانوا من الشرف والعزة بحيث لا ينازعهم أحد فيما قالوه، وهذا

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٩٧.

شاعر منهم يأتي بكلمة التاج في شعره، وهو شمعلة ابن أخضر الضّبي:

«حَوَالَيْ عَاصِبٍ بِالتَّاجِ مِنَّا
جَبِيْنَ أَغَرَّ يَسْتَلِبُ الدُّوَارَا
رَئِيْسٌ مَا يُنَازِعُهُ رَئِيْسٌ
سِوَى ضَرْبِ القِدَاحِ إِذَا اسْتَشَارَا»[1]

والعمامة تاج على رأس سيد العشيرة، لما يقوم به من أعمال مجيدة لقومه، وما يتحمله من أجلهم، وما ينفعهم به من رأي سديد، يبنيه على ما فيه مصلحتهم، يقول الجاحظ:

والعصابة والعمامة سواء؛ وإذا قالوا سيد معمم، فإنما يريدون أن كل جناية يجنيها الجاني من تلك العشيرة، فهي معصوبة برأسه.

وقال دريد بن الصمة:

أَبْلِغْ نُعَيْماً وَعَوْفاً إِنْ لَقِيْتَهُمَا
إِنْ لَمْ يَكُنْ كَانَ فِيْ سَمْعَيْهِما صَمَمُ

فَـلاَ يَـزَالُ شِهَـابٌ يُسْتَضَـاءُ بِـهِ
يَهْدِيْ المَقَانِبَ مَا لَمْ يَهْلِكِ الصِّمَمُ
عَارِيْ الأَشَاجِعِ مَعْصُوْبٌ بِلِمَّتِهِ
أَمْرُ الزَّعَامَةِ فِيْ عِرْنَيْنِهِ شَمَمُ»[1]

ويحرصون على اختيار الزوجات من بيوت عرف أهلها بالشجاعة والكرم، والتحلي بالصفات الجميلة، حتى يضمنوا لأولادهم الاتصاف بهذه الصفات، وقد يحدوهم الأمر إلى طلب الزوجة من غير العائلة، أو من غير العشيرة، ركضاً خلف العنصر الزاكي، والدم الكريم، حتى لا يفتقدوا الزعامة، والتقدم في قومهم؛ ومجرد هذا الاختيار يعطي الابن عزماً على المحافظة على ما أُمل فيه، فالأصل كريم، والتثقيف والتهذيب مبذول، وفي البيتين الآتيين ما يبين جانباً من هذا الأمر:

«قال الكناني:

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٩٩.

تَنَخَّبْتُهَا لِلنَّسْلِ وَهِيَ غَرِيْبَةٌ
فَجَاءَتْ بِهِ كَالْبَدْرِ خِرْقًا مُعَمَّمَا
فَلَوْ شَاتَمَ الفِتْيَانَ فِي الحَيِّ ظَالِمًا
لَمَا وَجَدُوا غَيْرَ التَكَذُّبِ مَشْتَمَاً»[1]

الخرق: الظريف في سماحة ونجدة.

وأهمية العصابة تظهر عندما نرى أن بعض السادة البارزين ينسبون إلى عصاباتهم، مثل سعيد بن العاص، فإنه يقال له: «ذو العصابة»، وقد قال أحدهم:

كَعَابٌ أَبُوْهَا ذُو العَصَابَةِ وَابْنُهُ
وَعُثْمَانُ مَا أَكْفَاؤُهَا بِكَثِيْرِ[2]

وعن السيد المعمم يقول عمرو بن امرئ القيس:

«يَامَالِ والسَّيِّدُ المُعَمَّمُ قَدْ
يُبْطِرُهُ بَعْدَ رَأْيِهِ الشَّرَفُ
نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا عِنْـ
ـدَكَ رَاضٍ، وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفُ»[3]

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٩٩.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ٩٩.
(٣) البيان والتبيين: ٣/ ١٠٠.

ولأن العمامة محط الشرف، ورمز العزة؛ لهذا كان موقعها على الرأس، وهو أشرف مكان في الجسم، وأعلى عضو؛ ولهذا إذا أراد شخص إهانة شخص، عمد إلى عمامته، فأهانها فعلاً، أو قولاً، وبعض الأقوال أشد ألماً من الأفعال، وهذا الفرزدق يعمد إلى قول جارح، يؤلم به بعض القوم، لأنه وجهه إلى عمائمهم، فوصفها بأنها دنسة فقال:

«بَنِيْ عَامِرٍ إِنْ تُلْجِئُوْهَا فَإِنَّكُمُ
مَلاَجِئُ لِلسَّوْءَاتِ دُسْمُ العَمَائِمِ»[1]

واللواء والعمامة هما محط فخر العربي، ومصدر عزته، يستميت في حمايتهما، لا يرخصهما، بل يفديهما بروحه، فلا عجب إذاً أن نرى أن العمامة اتخذت في بعض المواقف عَلَما، ولعل هذا يضاعف شرفها، ويؤكد عزتها، وارتفاع نظرة العربي إليها.

وقد أورد الجاحظ بيتين، بين فيهما اقتران بين العمامة واللواء، وأبان أن إحدى العمائم لوضوحها

(١) البيان والتبيين: ٣/ ١٠٦.

للرائين، وارتفاع رأس لابسها، لعزته ونبله كأنها لواء؛ تُرى عالية، ويهتدى بها، ويسار على رؤيتها:

«قال زيد بن كشوة العنبري:

مَنَعْتُ مِنَ العُهَّارِ أَطْهَارَ أُمِّهِ
وَبَعْضُ الرِّجَالِ المُدَّعِيْنَ زِنَاءُ
فَجَاءَتْ بِهِ عَبْلَ القَوامِ كَأَنَّمَا
عِمَامَتُهُ فَوْقَ الرِّجَالِ لِوَاءُ»

وقال الجاحظ بعد أن أورد البيتين:

«أن العمامة ربما جعلوها لواء؛ ألا ترى أن الأحنف ابن قيس، يوم مسعود بن عمرو، حين عقد لعبس ابن طلق اللواء، إنما نزع عِمامته من رأسه، فعقدها له». (١)

وليس غريباً أن تتخذ العمائم أعلاماً، لشرف الأمرين، وطبيعة كل واحد منهما، ولكن العمامة قد يستفاد منها لشيء مادي آخر غير تغطية الرأس،

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ١٠٥.

أو اتخاذها علماً، فقد تتخذ لشيء مُلِحّ، متصل بالحرب، أو بذل جهد، وهناك شواهد في التراث على هذا، أحدها الآتي؛ وقد ساقه الجاحظ، فقال:

«وربما شدوا بالعمائم أوساطهم عند المجهدة، إذا طالت العُقبة، ولذلك قال شاعرهم:

دَفَعْنَا إِلَيْهِ وَهُوَ كَالذِّيْخِ خَاظِيًا
نَشُدُّ عَلَى أَكْبَادِنَا بِالعَمَائِمِ»[1]

الذيخ: ذكر الضباع، والخظي: الغليظ الصلب.

وقد عبر بالأكباد عن وسط الجسم، وقد تستعار الكبد لغير الوسط، فيعبر بها لما يحل بها من الضيم، أو القهر، أو الغيظ، أو الخيبة، أو لوعة الحب، أو غيره، وقد يكون أحد هذه الأمور هو المعني في البيت الآتي:

«خَلِيْلَيَّ شُدَّا لِي بِفَضْلِ عِمَامَتِي
عَلَى كَبِدٍ لَمْ يَبْقَ إِلاَّ صَمِيْمُهَا»[2]

(١) البيان والتبيين: ٣/ ١٠٥.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ١٠٦.

ونظرة العرب إلى العمامة تمثلها أقوالهم فيها، وهي أقوال إذا أضيفت إلى ما مر بنا من عنايتهم بالعمائم، وتقديرهم لها، وإعطائها الدور الرئيس في حياتهم، تبين لنا مقامها الحقيق في أنفسهم، وأول هذه الأقوال قول لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقد روي عنه أنه قال:

«العمائم تيجان العرب». (١)

وهو قول صادق، كما رأينا من النصوص السابقة، فإعزازهم لها لا يقل عن إعزاز ملوك الأعاجم لتيجانهم.

وهناك قول آخر ينسبه الجاحظ لعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وينسبه صاحب «بهجة المجالس» لمالك الأشتر، وهو كمايلي:

«تمام جمال المرأة في خفها، وتمام جمال الرجل في عمامته». (٢)

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ١٠٠.

(٢) البيان والتبيين: ٣/ ٩٨ وبهجة المجالس: ٢/ ٦١.

وقيل في لمته (أي قلنسوته).

ويأتي قول ثالث جامع، مفصل لأبي الأسود الدؤلي، يبين فيه عمل العمامة، وفائدتها للإنسان، والمواقع التي تبرز فيها هذه الفائدة، فقال عندما ذكروا العمامة عنده:

«جُنَّةٌ في الحرب، ومَكَنَّةٌ في الحر، ومدفأة من القر، ووقار في النَّدِيّ، وواقية من الأحداث، وزيادة في القامة؛ وهي، بَعْدُ، عادة من عادات العرب». (١)

لم يترك أبو الأسود هنا غرضاً من أغراضها الشريفة إلا ذكره، ويقرن أحد المتحدثين عنها بقاء عزّ العرب ببقائها، وببقاء بعض لوازم العرب، وهذا يؤكد اعتزازهم بالعمائم؛ والخبر كالآتي:

«قال غيلان بن خرشة للأحنف:

ما بقاء ما فيه العرب؟

قال: إذا تقلدوا السيوف، وشدوا العمائم، وركبوا الخيل، ولم تأخذهم حمية الأوغاد.

(١) البيان والتبيين: ٣/ ١٠٠ وعيون الأخبار: ١/ ٤١٧.

قال: غيلان: وما حمية الأوغاد؟

قال: أن يَعُدّو التواهب فيما بينهم ضيماً». [1]

لقد جمع الأحنف ثلاثة أمور رئيسة، وأقام عليها عز العرب، ورأى أن كرامتهم تهتز مع غياب أي واحد من الثلاثة، ولكل واحد من هذه الثلاثة دوره الرئيس في نصب صلب كيان العرب، فالسيوف هي درعهم في الحروب، وهي وسيلتهم لحماية أنفسهم، وتوسع رقعة بلادهم، وحفظ أعراضهم، وحراسة أموالهم؛ والعمامة تلي السيوف في الذكر، وفي الاهتمام؛ وقد مرت فوائدها، وتبين مما ذكر أهدافها وأغراضها؛ والخيل كانت أعز مركوب، فهي الأداة لذلك في الحرب، مع عزة فيها ومنعة، وجمال في المحفل، وثروة في المربط.

ثم أردف أمراً عظيماً، ختم به قوله، وجعله ختام مسك لما قال، لأهميته؛ وقد اختصر القول فيه، حتى أن القصد عُمِّي عن غيلان، مما جعله يسأل عن

(١) البيان والتبيين: ٢/ ٨٨، وفي ٣/ ٩٨ «ذلا» بدل «ضيما».

المقصود منه؛ وهو حمية الأوغاد، وقد فسره الأحنف بأنه اعتبار التواهب ضيماً، وهذا أوسع ثقب في المروءة، وأدكن ظلمة في الكرم؛ لأن المرء إذا أعطى عن طيب خاطر، ومنح مبادرة منه، أضاء العطاء، وأنارت جوانبه؛ أما إذا أعطى الواهب وهو يشعر بالغبن، ويعتقد أنه مرغم، فهذا هو العطاء المظلم؛ فإذا انتشر هذا الشعور بين الناس، انقطعت الصلة بينهم، وانبترت العلاقة بين أفراد المجتمع، المتوقع منه التكاتف، والتحامل، فيما يزيل الضائقة، ويوازن في تقسيط السعادة بين أفراد المجتمع.

وفي هذا قوة المجتمع، ونقل جانب منه للجانب الآخر، فينقل القوي الضعيف، ويمد المستغني يده للمحتاج، فهذا فَقْرٌ يُزال، وهذه دية تدفع، وهذا غرم يتحمل؛ والأحنف يعرف قيمة هذا، لأنه من سادة قومه، وطالما تحمل عنهم أثقالاً ناء الزمن بكلكله عليهم بها، وطالما رأى ممن سبقوه من زعماء قومه مَنْ سن السنن الحسنة في هذا.

والنظرة إلى أهمية العمامة تتبين في قول أحد الأعراب، عندما وُجِّه إليه سؤالٌ، صَاحِبُهُ محتار، وأراد أن يزيل عنه الحيرة، عندما رأى أن الأعرابي متمسك بعمامته، ولا يفارقها، والخبر كمايلي:

«قيل لأعرابي: ما لك لا تضع العمامة عن رأسك؟

قال: إن شيئاً فيه السمع والبصر لحقيق بالصون». [1]

لقد حمل جواب الأعرابي حجة قوية، برهن بها على أن ما يأتي به من فعل مبني على أساس صحيح، وبرهان ثابت، ولم يكن عمله عشوائياً، أو دون مستند؛ ونظرة الأعرابي عميقة، لأن الرأس يمكن، إذا لم يعط حقه، أن يكون مركز آفات، تودي بالجسم كله.

وفي موضع آخر جاء الجاحظ بالنص، وفيه بعض الاختلاف، وإن كان المؤدى واحداً، والنتيجة مماثلة، والنص الثاني جاء هكذا:

«قيل لأعرابي: إنك تكثر لبس العمامة!

---

(١) البيان والتبيين: ٢/ ٨٨.

قال: إن شيئاً فيه السمع والبصر لجدير أن يوقى من الحر والقر». [1]

وتتبين قيمة العمامة، ويظهر موقعها الممتاز من النفوس، أثناء حديث قام بين اثنين عَرضاً، جر إلى قول صادق، ومنطق سليم، كشف ثمن عمامة إذا ما قورن بما هو في نظر الناس ثمين، والقصة كمايلي:

«دخل الوليد بن يزيد بن عبدالملك على هشام بن عبدالملك، وعليه عمامة وشي، فسأله عن ثمنها، فقال:

ألف درهم.

فاستكثره.

فقال الوليد: يا أمير المؤمنين، إنها لأكرم أعضائي وقد اشتريتَ أنت جارية بعشرة آلاف، وهي لأخس أطرافك!». [2]

وتأتي إشارات في التراث تبين شيئاً عن طي العمامة،

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ١٠٠، وبهجة المجالس: ٢/ ٦١.

(٢) ربيع الأبرار: ٤/ ١١، البصائر: ٣/ ٥٠.

ولفّها، فيفهم من بعضها أنها تغطي الأذن، وقد يكون ذلك اجتهاداً من بعض الناس، أو يوجبه المقام، أو يستدعيه الفصل من السنة، أو المناسبة التي لبست العمامة من أجلها؛ وهناك خبر روي عن هشام بن عبدالملك، يدل على أن طي عمامته يُدخِل تحته أذنه، بحيث يحتاج إلى إزاحة هذا الجزء عن الأذن، حتى لا يفوت سمعه بعض الأحاديث المهمة والقصة تأتي كمايلي:

«كان هشام بن عبدالملك يقول:

إني لأستصفق العمامة الرقيقة تكون على أذني، إذا كان عندي عبدالأعلى بن عبدالله (بن كريز)، مخافة أن يسقط عني من حديثه شيء». [1]

ويأتي حديث آخر بين رجل وزوجته، ويتبين منه أن تكوير العمة مهم، وهو أحد المظاهر التي يحرصون على توافرها في العمة، وقد جاء هذا الوصف عرضاً، والقصة كمايلي:

---

(١) البيان والتبيين: ١/ ٣٥٤، ٣٤٤ (مقارنة).

«قالت ابنة العوام، أخت الزبير، لزوجها حكيم ابن حزام، وكان كثير المال:

ما لك لا تلبس لباس الناس اليوم؟

قال: وما تنكرين من لباسي، وإزاري قطري، وردائي مغافري، (المغافر: ما كثر صوفه من الأردية) وقميصي سابري (الرداء الرقيق الجيد)، وعمامتي خزقانية (أي مكورة)». [1]

ويؤكد أهمية التكوير هذه قول روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ دلّ على أن تكوير العمة من مكملات الرجال، وتتبين أهمية ذلك بالعنصرين الآخرين، اللذين ساقهما أبو هريرة، ليؤكد فيهما ثبوت قِدر الكمال على هذه الثلاث الأثافي، وهذا هو قول أبي هريرة:

«قال أبو هريرة:

إذا كان في الرجل ثلاث، فهو الكامل:

إذا فخر في المجلس، وأحسن جوابات الكتب،

(١) بهجة المجالس: ٢/ ٦٢.

وأحسن كور العمامة». [1]

والقلنسوة من أسماء العمامة، ولعل العمامة أو القلنسوة لقيمتها كانت تستوهب، وكانت تكفي لاستدرار المديح، وقد تكون سببا في كسوة متكاملة كما ورد في بعض النصوص الطريفة، التي لا تخلو من ابتكار يدخلها، وابتداع يخالط متنها، والقصة التالية تأتي ممثلة لبعض ذلك:

«استكسى الفضلَ بن العباس الهاشمي شاعرٌ، فوهب له قلنسوة، فقال:

«كَسَاكَ فَضْلُ بْنِ عَبَّاسَ قَلَنْسُوةً
هَذَا السَّخَاءُ الَّذِيْ قَدْ شَاعَ فِي النَّاسِ
لَوْ كَانَ ضَمَّ إِلَيْهَا الجَوْرَبَيْنِ مَعاً
كَفَى إِذًا كِسْوَةَ الرِّجْلَيْنِ وَالرَّاسِ»[2]

وقد أوحى هذا المعنى الطريف لمحمد بن عمر الزمخشري ببيتين، فيهما الروح نفسها، ويقتربان

---

(١) بهجة المجالس: ٢/ ٦١.
(٢) ربيع الأبرار: ٤/ ١٦.

من هذا المعنى، وهما:

«وَإِذَا كَسَوْتَ فَجُبَّةً وَعِمَامَةً
مَا وَاحِدُ الثَّوْبَيْنِ بِالْحَسَنِ
لَمْ يَسْتَقِمْ فِيْ حُكْمِهِ بَدَنٌ بِلاَ
رَأْسٍ وَلاَ رَأْسٌ بِلاَ بَدَنِ»[1]

وتتبين أهمية العمة في حرصهم عليها في المحافل، ومجامع الناس، وقد أشار إلى ذلك الجاحظ بقوله:

«ولزومهم العمائم في أيام الجموع». [2]

ولا عجب في هذا فهي الزينة، وبها تنال الهيبة، ولابسها يملأ العين، ويستنزل الاحترام والتقدير، ولهذا كانت من مستلزمات الخطيب، يكمل بها مظهره، ويدل بها على عقله، والتزامه أصول العادات والتقاليد، ويأتي إشارة إلى بعض هذا في نص أورده الجاحظ، يقول فيه:

«وقد لا يلبس الخطيب الملحفة، ولا الجبة،

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ٣٨.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ٦.

ولا القميص، ولا الرداء؛ والذي لابد منه العمة والمخصرة. . وربما قام فيهم، وعليه عمامتُه، وفي يده مخصرته». [1]

وهكذا يؤكد أهمية العمامة، لأنه إذا استطاع الخطيب أن يستغني عن الجبة، على أهميتها، والملحفة على ما فيها من فوائد لها، وعلى القميص ودوره الفعال في مظهره، وعلى الرداء وهو من مكملات اللباس، فإن العمامة تبقى محتفظة بمكانها لا يستغنى عنها، ولا يفكر في تركها.

ولعل من المناسب أن نختم حديثنا عن العمامة بأمر حصل لها ممن لا يتوقع أن يحصل منه ما حصل، والسبب يشرحه جزء مكمل للقصة، وهي كمايلي:

«أغضب زيد بن جبلة الأحنفَ، فوثب إليه، فأخذ بعمامته، وتناصيا، فقيل له:

أين الحلم؟

قال: لو كان دوني، أو مثلي لحلمت.

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٩٢.

ورأوه يدق الرماح في الصدور، في بعض أيام صباه، فقيل له:

أين خلفت الحلم يا أبا بحر؟

قال: عند عقد الحُبَى». [1]

هذه بعض النصوص، حملت بعض الصور عن العمامة وأهميتها، وهي نماذج لبعض ما قيل في العمامة، مما هو متناثر في الكتب؛ والعمامة أخذت تتطور مع الأيام والسنين حتى لم يعد بالإمكان حصر أشكالها، وألوانها، وأنواعها، وقماشها؛ ولا نظرة الناس لها في الأحقاب المتعاقبة؛ ولاتزال العمامة تحتل مكانة مرموقة في حياة الناس، هي أو ما حل محلها، مما تطور منها تدريجاً، وبطريقة طبيعية، أو فجأة وبطريقة مفتعلة مقتسرة.

***

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢١.

قوة الأسس

الأساس القوي مطلوب لكل بناء، أيّاً كان هذا البناء، سواء كان بيتاً، أو تجارة، أو سفينة، أو حكماً؛ والأساس القوي للحكم من أهم الأسس، إذ أن فائدته لا تخص الحاكم وهو فرد، ولكنها تلمس جميع المواطنين، والأساس القوي للحكم يضمن الأزدهار، والأمان والاطمئنان والعدل.

لهذا تلمس عقلاء الحكام ممن برزوا في التاريخ الأصول التي يبنون عليها حكمهم، ليأتي متيناً، لا تزعزعه الرياح، ولا تعصف به الحوادث، ولكل حاكم نظرته في ذلك، في ضوء ما يجده في زمنه من زاوية يحتاج إلى النظر منها إلى ما يقيم حكمه على أساس متين، مع محافظة على هذا الأساس، وزيادة قوته مع مرور الأيام.

وفي تراثنا أمثلة مشرفة لأقوال حكام نَابهين لخّصوا المبادئ التي اعتقدوا أن مُلكهم إذا قام عليها صار

قوياً، واستطاعوا معه أن يضمنوا حقوقهم، وحقوق مواطنيهم. وقد صرح بعضهم بهذه الأسس بدءًا، أو عندما تقتضي المناسبة ذلك.

وبعضهم رضع أصول الحكم من آبائه، الذين حرصوا على أن يلقنوه ما يحتاج إليه من جرعات متتابعة أولاً بأول، حسبما تسمح به سِنّه، أو يستطيع استيعابه عقله؛ وبعضهم استقى أصول السياسة التي سار عليها، أو أراد من رعيته أن يسيروا عليها معه، من تجاربه في الحكم.

والمتمعن في الأقوال التي قيلت في رسم السياسة، والمبادئ التي اتخذت، يجدها تدل على عقل ناضج، وتفكير عميق، وكان نجاح الحكام الذين توصلوا إليها، وتمسكوا بها، وطبقوها، يعود إلى إيمانهم بها، وحرصهم على السير عليها، إدراكاً منهم بقيمتها، وتأثيرها في وصولهم إلى النجاح في حكمهم. وأنه سوف يكون لها إشعاع يضيء طريقهم لإتقان عملهم، والمحافظة عليه قوياً، معداً لمصارعة ما قد يأتي به

الزمان من مفاجآت.

وبعض هذه الأقوال التي ترسم الأسس للحكم الناجح، جاءت من حكام حكموا بلدانا متحضرة قبل الإسلام، وكان في مجتمعاتها من السعة في المساحة، والكثرة في السكان، والتعقيد في الحياة، ما جعلهم يفكرون، بعمق وتدبر وتبصر، فيما يضمن لهم النجاح في مثل هذه المجتمعات.

وبعضها جاء على ألسنة الخلفاء المسلمين، أو ولاتهم أو عمالهم، ولا يخلو ما قالوه والتزموه من الروح الإسلامية التي اتصفت بالدقة والصواب.

ولعله من المناسب أن نبدأ بشيء مما قاله، أو حث عليه، ملوك فارس، بما كانت عليه بلادهم من حضارة وازدهار، وأردشير من ملوك الفرس الذين كان لهم صيت وسمعة، وجاء على لسانه كثير من الأقوال المأثورة عن الحكم، وقد جاءت مبعثرة في كتب التاريخ، وفي كتب الأدب حسب طبيعة المواضيع التي تلمسها وله وصية لابنه تمثل رأيه في أصول الحكم:

«قال أردشير لابنه:

يا بني، إن الملك والدين أخوان، لا غِنى لأحدهما عن الثاني، فالدين أُسٌّ، والملك حارس؛ وما لم يكن له أسّ فمهدوم، وما لم يكن له حارس فضايع.

يا بني، إجعل حديثك مع أهل المراتب، وعطيتك لأهل الجهاد، وبِشْرَك لأهل الدين، وسِرّك لمن عناه ما عناك، وليكن من أهل العقل». [1]

لقد أحاط أردشير بأمور هي أسس تهم الحكم وصلاحه، فقد لمس العمودين الرئيسين اللذين يقوم عليهما الملك؛ ثم انتقل إلى تفصيل معاملة الناس حسب مراتبهم، ووضعهم الاجتماعي، فأجاد فيما التفت إليه وقرره: حصر حديث الملك مع أهل المراتب، لأنهم الأعوان في حمل عبء الحكم، وعقولهم أقرب إلى عقل الملك، مما يجعل هناك جسراً قوياً تعبر عليه الأفكار بينه وبينهم، وهم معه أقرب إلى الصواب من غيرهم. وأكد على أهل الجهاد بالاعتنَاء بأعطياتهم،

(١) سراج الملوك: ١٩٦.

حتى يُخْلِصوا، ولا يملوا مواجهة أعدائهم، خاصة الروم الذين ناصبوا الدولة الفارسية العداء حتى جاء الإسلام، وقضى على الدولتين. وأوصى ابنه بأن يبش في وجه رجال الدين، حتى يزيد من قيمتهم في المجتمع، ويحافظ على احترام الناس لهم، وباحترامهم تحترم مبادئ الدين. ونبه ابنه على أمر جليل، وهو مكان إيداع السر، وأردشير يدرك أنه لابد للسر من مستودع، فأوصاه ألا يطلع على سره إلا من يعنيه من الأمر ما يعني الملك، وهذا لا يكفي، فقد يكون هذا أخرقاً، ولهذا أكد على شرط ثانٍ، وهو أن يكون من أهل العقل.

وإذا ما أخذ ابن أردشير بهذه الوصية، وعمل بها، فإنه لا يبقى عليه بعد ذلك إلا بعض الأمور الجزئية التي يمكنه بذكائه وملكته أن يضعها في مكانها الصحيح من سياسته.

ويروى عن عدد من ملوك فارس أقوال صائبة في مجال سياسة الرعية، ومن بين هؤلاء الملوك أنوشروان

الذي اشتهرت أقواله وكثرت رواتها:

«يقال إن أنوشروان قال لولاته وولي عهده:

سوسوا الأحرار والأشراف باللين والعطف، والأنذال والأرذال بالغلظ والعنف، وامزجوا للعامة الرغبة بالرهبة، واللين بالشدة». [1]

هذه القواعد التي اتفق على أهميتها وفائدتها ملوك الفرس تقطر حكمة، وتهدف إلى غرض أساس، إنها لا تريد من الحاكم أن يصاب بالكسل العقلي، فيسير في عمله على وتيرة واحدة، دون تفكير يفرق به بين الفئات المختلفة، فيعاملها بما يتّفق مع طبيعتها. فقسّم الرعيّة أقساماً، وعيّن لكل قسم المعاملة التي يجب أن تتخذ، وبنى ذلك على طبيعة كل قسم: فقِسْم له اللّين والعطف، لأنه داخل في حدود القاعدة الذهبية: «الحر تكفيه الإشارة»، وقِسْم لو عومل باللين والعطف لبطر، وزاد عتوه، لإنه لا يؤوّل هذه المعاملة على وجهها، وإنما يراها ضَعفاً، فيحاول أن

(١) آداب الملوك: ٨١.

يستغلّه لنفسه أَثَرَةً وجهلاً، ولهذا ليس له إلا الشدة والغلظة، فهذا فيه من الألم ما يوقظه ويردعه، ويجعله عبرة لمن اعتبر. ولنا أن نتصور لو خلط بين شقي القاعدة، واستعمل اللين للأرذال، والغلظة للأحرار والأشراف؛ حينئذ تنقلب الموازين.

ويبدو أن أنوشروان بتربيته وتجربته أصبح حكيماً، وخبيراً في أمور الحكم وفلسفته، لأن له جواباً على سؤال يدل على ذلك؛ فقد سئل عن السياسة فقال:

«استجلاب محبة الخاصة بإكرامها، واستعباد العامة بإنصافها». (١)

وهذه قاعدة ذهبية تشمل الرعية بفئتيها الرئيستين، وتعضد القول الأول، ففيها استجلاب للقلوب جميعها، فئة منها بالتودد، واستجلاب القلوب، وفئة باعطائها ما تريد، ومنحها أغلى أمنية لها، وهو العدل، حتى تسير في طريق معيشتها آمنة مطمئنة، لا يشغلها شيء عنه.

---

(١) آداب الملوك: ٨١.

وقد تنبه لهذا بعد سنوات حاكم عربي نابه، فصاغ هذا القول شعراً، ووضعه في القالب الذي اتخذته العرب وسيلة لتخليد حكمتها:

«قال عبدالله بن طاهر:

إذا كنتمُ للناس أهل سياسة
فسوسوا كرام الناس بالرفق والبذل
وسوسوا لئام الناس بالذلّ يصلحوا
على الذلّ إن الذلّ أوفق للنذل»[1]

والملك الفارسي بزرجمهر من الملوك الذين أثرت عنهم الحكمة في السياسة وقواعد الملك، وقد روي عنه في هذا أنه قال لأنوشروان

«ليكن تشميرك للأمر الصغير كتشميرك للأمر الكبير، إذا مارسته، فإن الأسد يثب على الأرنب كوثبته على العير». [2]

وهذا القول بلاشك هو عين الصواب، وقلب

(١) آداب الملوك: ٨١.
(٢) آداب الملوك: ٨٦.

الحكمة؛ فالأمر الصغير إذا لم يعط حقه من الالتفات والاهتمام استفحل وصار كبيراً، وحينئذ حتى لو قضي على مظهر الشَرِّ فِيه فإن أذاه قد حصل، وضرره قد تحقق. والله ـ سبحانه وتعالى ـ يحب إذا عمل المرء عملاً أن يتقنه. وحيّز هَمِّ الأمر الصغير والكبير في الصدر واحد، فملؤه في كلا الحالتين أولى. ولقد أجاد بزرجمهر عندما أتبع قوله بمثل، ولقد كان المثل متقناً مثل الصورة التي في ذهنه، والمثل دائماً ذو تأثير سحري على السامع، ويكاد لا يجاريه في التعبير تعبير آخر له تأثيره.

وكشف كسرى قباذ عن منهج يتبعه لم يعلنه إلا عندما احتاج إلى ذلك:

«حكى اليزيدي أن كسرى قباذ رفع إليه رجل من أصحابه أن في بطانة الملك جماعة قد فسدت نياتهم، وخبثت ضمائرهم، وقد هّموا بما لم يفعلوا، وهم غير مأمونين على الملك.

فوقع:

أنا ملك الأجساد لا النيَّات، وأحكم بالعدل لا بالرِّضى، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر». [1]

وقيل إن القائل لهذا المبدأ ملك آخر هو سابور ذو الأكتاف. [2]

وقد أراد هذا الملك أن يقفل باب الغيبة والتآمر بين أفراد حاشيته، وهو باب يمكن أن يتسع إلى مدى بعيد، لا يعلم إلا الله ما قد يأتي منه من ضرر قد يتسبب في فتن مثل قطع الليل؛ ولكن هذا الملك تنبه لهذا، وأبقى الباب موصداً، وأراح نفسه من عناء وأي عناء! ولم يوصد الباب دون أن يعطي التعليل، وهو مركز الإقناع، بل أبان أن ما عنده من أدوات الحكم هي قادرة فقط على التعامل مع الأعمال، وليس مع النيَّات، التي لا يعلم ما يدور فيها إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأن همَّه أن ينشر العدل، لا أن يسير في ضوء عاطفة الرضى والسخط، وهما عرضة أكيدة للزلل.

---

(١) تسهيل النظر: ٢٨٥.

(٢) آداب الملوك: ٧٠.

وقد يبدو لغير الحكيم، وغير من جرب الحياة، أن الإكثار من افتتاح المدن والأقاليم فيه كسب ومنفعة لا يشوبها ضرر، ولا تخالطها منقصة، ويغتر بظاهر الأمر، دون التفات إلى ما يكمن خلف الظاهر، وما يحجبه بريق ما بدا، فيخدع بذلك عما خفي واستتر، وهو المهم، وهذا حتماً لم يغب عن بال قابوس بن وشكمير الذي لابد أنه تدبر الأمر قبل أن يقول:

«ليس الملك من يكثر الفتوح، ولكنه من يضبط ما يفتحه، ويحسن سياسة من يملكه». (١)

وقد يضع الحاكم نصب عينيه مبدأً يتمسك به، ويراعيه، إلا أن أمراً يطرأ فيعوقه عما يحرص على اتباعه، كما حدث لأحد ملوك الهند عندما فقد سمعه، فلم يعد يسمع شكوى المظلوم:

«ولقد بلغنا أن ملكاً من ملوك الهند نزل به صمم، فأصبح مسترجعاً مهتماً بأمور المظلومين،

---

(١) آداب الملوك: ٢١٥.

وأنه لا يسمع استغاثتهم، فأمر مناديه ألا يلبس أحد في مملكته ثوباً أحمر إلا مظلوم، وقال:

«لئن مُنِعت سمعي لم أُمْنَع بصري»، فكان كل من ظُلم لبس ثوباً أحمر، ووقف تحت قصره، فيكشف عن ظلامته». [1].

لقد اهتدى هذا الملك إلى وسيلة يرتق بها خللاً طرأ لا يَدَله فيه، فهداه الله إلى هذه الوسيلة، التي لم يكن هناك أصلح منها في ذلك الزمن؛ واهتمامه برعيته فتّق ذهنه إلى هذه الوسيلة، التي تلفت نظره إلى المستغيث بين الجم الغفير من مواطنيه.

هذه بعض أقوال عن حكام عاشوا في عصور قديمة، اختطوا لأنفسهم خططاً تناسب أوضاعهم القائمة حينئذ، وتراعي طبيعة رعاياهم، ووجدوا فيما وضعوه من أصول وأسس تحمي الكيان توصلوا إليها بالتبصر والتدبر والتجربة، أنها تؤتي ثمارها، وتوصلهم إلى مقصودهم.

---

(١) سراج الملوك: ١٧٤، الدرر الفرائد: ١/ ٢٢٤.

ولم يكن حكام العرب بأقل منهم التفاتة إلى ممالكهم وحمايتها والمحافظة عليها، فجاء منهم ما يدل على أنهم كان لهم مبادئ يسيرون عليها في إدارة ملكهم أو إماراتهم، وأنهم وضعوا أسسا أخذوها بعين الاعتبار، تحكم تصرفاتهم، وتهدي طريقهم، وتجنبهم مواقع الزلل الذي يأتي من الارتجال، ومن السير محكومين بغير دليل أو ضابط، أو في ضوء عاطفة أو هوى.

ولعل من أول من أهمته الولاية، وتحمل أعباء الدولة الإسلامية الجديدة، وقد توسعت رقعتها، وانداح الناس فيها، عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وقد اهتم بسياسة ولاته في الأمصار، وشغلته أحوالهم، وما يجب أن يسلكوه مع رعية بدأت عناصرها تتخذ أشكالًا جديدة، تحتاج السيطرة عليها إلى تصرف ملائم ينطلق من مبادئ ترسم في ضوء ما تهدي إليه الشريعة، وقد بدأت الأمور الجديدة التي تحتاج إلى مبادرة تطل برأسها مما

أهم عمر وأقلقه؛ وفي بعض الأسس التي يرسمها لسياسته يقول:

«لا يصلح أن يلي أمر الناس إلا حصيف العقل، وافر العلم، قليل الغرّة، بعيد الهمة؛ شديد في غير عنف، ليّن في غير ضعف، جواد في غير سرف، لا يخاف في الله لومة لائم.

وقال أيضاً:

ينبغي أن يكون في الوالي من الشدة ما يكون ضرب الرقاب عنده في الحق كقتل عصفور، ويكون فيه من الرقة والحنو والرأفة والرحمة ما يجزع من قتل عصفور بغير حق». [1]

لقد رسم الخليفة عمر ـ رضي الله عنه ـ خطوط السياسة التي يريد أن تكون قالباً يقاس عليه من يختار والياً، وإنها لصفات شديدة، قليل من سوف تتوفر فيه. وقد رسم عمر صورة واضحة في نهاية قوله لما يمكن أن يسمى بالحزم، ولعل في ذهنه،

(١) سراج الملوك: ٤١٢.

عندما ضرب المثل بقتل العصفور، الحدود التي يجب ألا يُتهاون بها.

وهمُّ عمر الشديد، وقلقه المتواصل يتبين في النص الذي جاء على لسانه عن أهل الكوفة، وهي المدينة التي نشأت حديثاً، وتجمعت فيها الجيوش من القبائل المختلفة، فأصبحت مجتمعاً ليس من السهل حكمه، إلا من شخص نادر الصفات:

«قال عمر:

«أعضل بي أهل الكوفة، إذا وليت عليهم الفاجر القوي فجروه، وإذا وليت المؤمن الضعيف هجنوه».

فقال المغيرة: «المؤمن الضعيف له إيمانه، وعليك ضعفه؛ والفاجر القوي لك قوّته، وعليه فجوره».

قال: «صدقت»، وولاه الكوفة». (١)

وعمر ـ رضي الله عنه ـ سرعان ما وجد في المغيرة ابن شعبة بغيته، فعينه والياً على الكوفة، فكفاه

(١) محاضرات الأدباء: ٦٨، قارن ألفاظه بما ورد في البصائر: ٣/ ٩٤ فهناك بعض الأختلاف.

أمرها، وإن كان المغيرة لم يسلم من «التفجير» الذي أشار إليه عمر.

ولعمر قول آخر يرسم فيه ما يعتقد أنها مؤهلات الوالي.

«قال عمر:

أريد رجلاً إذا كان في القوم، وهو أميرهم، كان كبعضهم، فإذا لم يكن أميراً فكأنه أميرهم». [1]

يريد عمر من واليه أن يكون متواضعاً، لا يشمخ بأنفه على من تولى عليهم، ويريد للفرد من الرعية بأن يقدر عمل الوالي فيساعده بتصرفه.

وعمر، وهو يضع لبنات الحكم لهذا المجتمع الجديد، الذي يتطور سنة بعد سنة، لا تغمض عينه عن ولاته، فتجده يسارع إلى تصحيح مسار أحدهم إذا وجد أنه خرج عن الجادّة التي يرتضيها عمر، ويحرص على أن ينبه على الوالي قبل سفره بأدق

(١) محاضرات الأدباء: ١٠٨.

الأمور وأصغرها لأنه يعلم أنها تؤدي، إذا استمرئ العمل بها، إلى الخطأ الجسم:

«كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إذا بعث عاملاً اشترط عليه أربعاً: لا تركب البراذين، ولا تلبس الرقيق، ولا تأكل النقيّ، ولا تتخذ حاجباً، ولا تغلق بابا عن حوائج الناس وما يصلحهم».

ويقول له:

«إني لا أستعملك على أبشارهم، ولا أعراضهم، ولا أعمالهم». (١)

لقد كان عمر يحرص أن يكون واليه مثالياً، ولعل تشدده فيما رسمه جاء من خوفه أن يغلب طوفان المد الجديد، الذي جاء مع فتوح البلدان، وتدفق الخيرات، وتَقَابُلِ ابن الصحراء الجافة بخيرات المدن المفتوحة، فتبهت شخصية الوالي، وتضعف رسالته.

أما أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فلم تطل خلافته، ليرى بوادر التغيير الذي يوجب الحذر، ولهذا جاءت

(١) سراج الملوك: ٤١٨.

تعبيراته عن السياسة لعماله وقادته من أمثال القول الآتي:

«حكي أن أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ كتب إلى عكرمة بن أبي جهل، وهو عامله على عمان:

«إياك أن توعد على معصية بأكثر من عقوبتها، فإنك إن فعلت أثمت، وإن تركت كذبت». [1]

وقد رددها الأدباء والكتاب فيما كتبوا لصدقها، ونحت منها الحكام قواعد أخرى، استفادوا منها.

وزياد بن أبيه عرف عنه الحزم في حكمه، ولابد أنه كان يسير على سياسة ثابتة، اختط قواعدها، وحدد أسسها، ونفذها اقتناعاً منه بها، ويظهر بعضها في أقواله عندما يقتضيه الأمر التصريح، وعندما توجب الحاجة إبرازها، لتحصل منها الفائدة، ويصل من وراء إظهارها إلى مطلوبه.

ومن أقوال زياد البارزة المحدِّدة لما يعتقده في أصول الحكم، وقواعد سياسة الرعية، قوله عندما

---

(١) تسهيل النظر: ٧١.

سئل عن السياسة :

«سئل زياد عن السياسة فقال :

الشدة على المريب ، واللين للمحسن ، وصدق الوعد والوعيد ، وإطلاق الأرزاق في أوقاتها ، وتسهيل الإذن لرسل أصحاب الثغور ، وطرّاق الليل» .[1]

لقد رسم الخطوط الرئيسة للسياسة الناجحة في نظره ، وقد أجاد في الإحاطة بالأمور المهمة للحكم ، واتفق مع غيره من الحكام الأذكياء المجربين في وضع الأمور في نصابها ، فالشدّة لمن يستحقها ، واللّين لمن يستحقه ، ذاك للعاصي وهذا للمطيع ؛ والصدق فيما يعد به أو يتوعد به ، حتى لا يجرب عليه الكذب ، فيضيع تأثير كلمته ؛ وعدم تأخير الأرزاق ، لأهمية صرفها في وقتها لأصحابها ، لاعتمادهم عليها ، والاهتمام برسل أصحاب الثغور ، لسرعة النجدة ، إن احتاج الأمر ، بالمال أو الرجال أو السلاح ، وعدم حجب طارق الليل ، فهو

---

(١) آداب الملوك : ٨٢ .

لا يطرق في هذا الوقت الضيق إلا من حاجة، وإلحاح. وهذه المبادئ التي عددها زياد بعناية احتفظت بقيمتها إلى اليوم، وهي تتجدد مع الزمن، حتى وإن حلت محل رسول صاحب الثغور البرقيات، ورسائل الهاتف بأنواعها.

ويبدو أن هذا الأمر يهم زياداً، وهو معذور إذا اهتم به، لأنه جاء به في مناسبة أخرى بعبارة أخرى فصيحة تنافس في بلاغتها وقوتها سابقتها؛ يقول زياد:

«قال زياد بن أبيه:

إن تأخير جزاء المحسنين لؤم، وتعجيل عقوبة المسيء دناءة، والتثبّت في العقوبة، ربما أدى إلى سلامة منها؛ وتأخير الإحسان ربما أدى إلى ندم لا يمكن صاحبه أن يتلافاه لما فرط منه». [1]

ويَلتفت زياد التفاتة حانية إلى مجتمعه، ليضع قاعدة تعمر جسور الاتصال والمحبة بين أفراده،

(١) البصائر: ٣/ ١١٠.

وهو لا يترك الأمر للتطوع بل يفرضه بما عرف منه من حزم، لأنه يعرف أنه ليس كل أفراد المجتمع ناضجين، أو تكفيهم الإشارة، ليستفيدوا من النصح المخلص، والتوجيه الصادق، ولهذا يتبع هذا بالوعيد مما يُدخِل هذا ضمن سياسة الحكم ومستلزماته، ولا يغيب عمن يقرأ كلماته أن يرى فيها قصد رفعة هذا المجتمع، وتميزه:

«خطب زياد، فقال:

استوصوا بثلاثة خيراً: الشريف والعالم والشيخ؛ فوالله لا يأتيني شريف بوضيع استخف به إلا انتقمت له منه؛ ولا يأتيني شيخ بشاب استخف به إلا أوجعْته ضرباً؛ ولا يأتيني عالم بجاهل استخف به إلا نكلت به». (١)

لقد أعذر من أنذر، لم يترك زياد لمخطئ في هذه الأمور عذراً في أنه لا يعرف سياسة أميره، لقد ردد زياد ما يود من الناس أن يعرفوه عن سياسته،

(١) البيان والتبيين: ٢/ ١٤٥.

وفصّله تفصيلاً لا يدع مجالاً للشك، ولقد وزن في هذه الخطبة أموراً مجتمعة، فبيّن الرؤوس التي أوجب احترامها، فوضع أوتاداً قوية لهذه الخيمة الفسيحة.

ويدخل زياد في الأمور الجزئية الدقيقة، فينبّه عليها، ورغم صغرها إلا أنها مثل الحية الشرسة قد تسمم المجتمع، وتودي به، ولهذا حرص زياد على أن يقولها علنا، ويحذر منها، وينبه إلى خطرها، ويؤكد مبلغ أذاها، ليعتبرها الناس جزءاً من سياسته، وهي سياسة الحزم والشدة:

«قال زياد على المنبر:

إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يقطع بها ذنب عنز مَصُوْدٍ، [انقطع لبنها]، لو بلغت إمامه لسفك دمه». [1]

لابد أن زياد يقصد بالكلمة تلك التي تلمس الحكم، بما يحدث فتنة، أو يثير زوبعة، وكم من

(١) البيان والتبيين: ١/ ٢٩٥.

كلمة من هذا النوع قيلت، فسرت وكبرت حتى أصبحت صخرة تحطم ما أمامها حتى من أرسلها صغيرة.

ومن بين الحكام النابهين، الذين جاء على ألسنتهم ما يدل على سياستهم، والنظام الذي يتبعونه في التعامل مع الرعية، والقاعدة التي رسخوا أساسها، لتكون المحور الذي يدور عليه ما يأتون وما يدعون، الخليفة عبدالملك بن مروان:

«قال عبدالملك بن مروان لجلسائه:

جنبوني ثلاثاً: لا تطروني، فإني أعرف بنفسي منكم، ولا تكذبوني، فإنه لا رأي لكذوب، ولا تغتابوا عندي أحداً، فيفسد قلبي عليكم».[1]

أمور ثلاثة جامعة لأدب المجالسة، بل تتعداه إلى السياسة العامة، لأن ما يمشي على الخاصة من قواعد الأدب يمشي على العامة أيضاً، بل أحياناً الأمر لهم من باب أولى. ولم يترك عبدالملك،

(١) سراج الملوك: ٢٢٨.

وهو الخليفة الفقيه، الأمر يحتار فيه من يجهل أسبابه، بل أبان العلة التي تكمن وراء كل طلب طلبه منهم، والعلة من القوة بحيث تقنع ذا اللب.

ولاحظ عبدالملك أن بعض أفراد رعيته يطالبونه في أن يسوسهم بسياسة الخليفة أبي بكر وعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ ولا يلقي بالاً لما طرأ على المجتمع من تغير يوجب اتخاذ إجراءات لم يتخذها عمر، لأن الحاجة لم تدع إليها حينئذ، فاضطر عبدالملك أن ينبه الناس على المنبر، أن الزمان تغير، وأن لكل زمان دولة ورجال، وأن التوسع في رقعة الخلافة، ودخول العناصر المختلفة في الإسلام، أو بقاءهم ذميين ممتزجين في مجتمع الخلافة الإسلامي، جلب تصادم الحضارات، وتمازجها، واقتضى ما يراه الناس مما لا يعجبهم، فجاءت خطبته قصيرة جامعة:

«قال عبدالملك بن مروان:

أنصفونا يا معشر الرعية، تريدون منا سيرة أبي

بكر وعمر، ولا تسيرون فينا، ولا في أنفسكم، بسيرتهما، نسأل الله أن يعين كلاّ على كلّ». [1]

قسم الخليفة عبدالملك العبء بينه وبين رعيته، وجعلهم يحملون نصف اللوم فى عدم تطبيق سيرة الخليفتين الراشدين، وحملهم الجزء الذي يمثل السبب فيما هو حاصل، وكأنه يقول إن الطابق الأعلى يقوم على أساس الطابق الأسفل.

ويظهر جانب من سياسة عبدالملك فيما كتبه لأخيه عبدالعزيز والي مصر، حيث أوصاه عندما عينه والياً عليها:

«تفقد كُتّابك وحاجبك وجليسك، فإن الغائب يعرفك بكاتبك، والحاضر يعرفك بحاجبك، والداخل عليك بجليسك». [2]

ركز على ثلاثة في وصيته هذه، والثلاثة مهمون في حياة الوالي وعمله، وعلى عادة عبدالملك في

---

(١) سراج الملوك: ٣٤٨، محاضرات الأدباء: ٦٧.
(٢) آداب الملوك: ٧٢.

رسم السياسة، لا يدع مجالاً للحيرة عما قصده بمجملِ كلمته، بل يعمد إلى التعليل وسيلة للإقناع، وسبيلاً للكشف عن الطريق التي أوصلته إلى ما وصل إليه من جوهر القول، وصواب الوصية.

ولا يكتفي عبدالملك برسم السياسة التي يأخذ بها في حكم رعيته، ولكنه يفحص سياسة عماله وولاته، وقد أعجبته السياسة التي وعد الحجاج أن يأخذ بها نفسه في حكم العراق، ووجدها سليمة تتناسب مع هذا القطر الذي أتعبه بعدم الولاء، واستمرار العصيان:

«قال العتبي:

لما اشتدت شوكة أهل العراق على عبدالملك بن مروان، خطب الناس، فقال:

إن نيران العراق قد علا لهبها، وكثر حطبها؛ فجمرها ذاكٍ، وشهابها وارٍ، فهل من رجل ذي سلاح عتيد، وقلب شديد، ينتدب لها؟

فقال الحجاج: أنا يا أمير المؤمنين.

قال: ومن أنت؟

قال: الحجاج بن يوسف بن الحكم بن عامر.

قال: إجلس.

ثم أعاد الكلام، فلم يقم أحد غير الحجاج.

فقال: وكيف تصنع إن وليتك؟

قال: أخوض الغمرات، وأقتحم الهلكات، فمن نازعني حاربته، ومن هرب طلبته، ومن لحقت قتلته؛ أخلط عجلة بتأنٍّ، وصفوة بكدر؛ وشدة بلين، وتنبيها بازورار، وعطاءً بحرمان؛ وما على أمير المؤمنين أن يجربني، فإن كنت للطُّلى (الرقاب) قطّاعاً، وللأرواح نزّاعاً، وللأموال جمّاعاً، وإلا استبدل.

فقال عبدالملك: من تأدب وجد بغيته. اكتبوا كتابه». (١)

لقد كان الحجاج يعرف حال العراق، وما هي عليه من إقلاق الخليفة عبدالملك، فرسم له السياسة التي

(١) البصائر: ٢/ ٢١٢.

تعجبه، وهي الدواء الناجع للداء العضال المستشري هناك.

ولقد نجح الحجاج عندما طبق هذه السياسة، ولعل التجربة زادت سياسته إتقاناً؛ لأن الوليد بن عبدالملك عندما أصبح خليفة أحب أن يعرف ما عند الحجاج من سياسته، إختباراً لولائه، وليطمئن إلى انطباقها مع سياسته، وينبهه إلى أهمية التمسك بخطة ثابتة، صالحة، حتى تسهل محاسبته في ضوئها عند الخروج عنها؛ فالوليد لابد أنه تبنّى سياسة أبيه، ولكنه أراد أن يلتزم له الحجاج مجدداً بما التزم به لوالده قبله؛ وقد يكون بعض ما أقدم عليه الحجاج في الماضي محيّراً للوليد، مثل كثيرين ممن احتاروا في تصرفات الحجاج مما جعلهم يظنون أنه يخبط خبط عشواء، وأنه لا يسير على قاعدة، وأن الهوى هو الذي يقوده، وأن تصرفه من وحي اللحظة والظرف:

«كتب الوليد إلى الحجاج أن يكتب له بسيرته،

فكتب إليه:

«إني أيقظت رأيي، وأنمت هواي، وأدنيت السيد المطاع في قومه، ووليت الحرب الحازم في أمره، وقلدت الخراج الموفي لأمانته؛ وقسمت لكل خصم من نفسي قسماً، أعطيه حظّا في نظري، ولطيف عنايتي، وصرفت السيف إلى البَطِر والمسيء، فخاف المريب صولة العقاب، وتمسك المحسن بحظه من الثواب». [1]

ويقال إن هذا قولُ المهلب رداً على سؤال الحجاج: [2]

هذه خطة ضافية سطرها الحجاج للخليفة الجديد، وقد أبقاه الوليد في منصبه، دليل رضاه عما اختطه لنفسه، ولعل المتمعن فيها يستطيع أن يفسر كثيراً من أعمال الحجاج التي لم يكن كثير من الناس يلحَظون العلة خلفها، إلا ما يتهمونه به من الظلم والجبروت،

---

(١) سراج الملوك: ١١٩.
(٢) آداب الملوك: ٨٤.

ولكن الحجاج تبين مما ذكره أنه قد وضع قوالب يدخل فيها البشر حسب أفعالهم، فيأتي الجزاء آليا.

والحجاج يبدو أنه صاحب خطط ثابتة في السياسة، وأهميته تأتي من أنه جزء من الدولة الأموية، ويحكم قطراً من أهم الأقطار، وسوف يصبح في يوم من الأيام قلب الدولة، ومركز نشاطها، ومن بعض الأمور التي رسمها في باب السياسة قوله لأحد قواده:

«قال الحجاج لقتيبة بن مسلم:

إذا وجهت عيونك إلى العدو، وفاجأك أحدهم بما يسرك فاعطه، وأحسن إليه، وإذا جاءك بما يسوؤك فاضعف له الصلة، لئلا يكتمك، كائناً ما كان». [1]

لقد بَنى الحجاج هذه السياسة على الناحية النفسية للناس، وهو مثل غيره من النابهين، علل لما طلبه من قائده، حتى يكون إيمانه بهذه الفكرة بقوة إيمان الحجاج، فلا يتراخى فيها، لما قد يبدو في خلافها من بريق، يعضده ما تعارف عليه الناس من الإحسان

(١) آداب الملوك: ٧٢.

إلى من يسر، وحجبه عمن لم يسر.

ومعاوية بن أبي سفيان، أول خليفة أموي، بجانب ما يعرفه الناس عن حلمه، عرفوا سياسته، والنهج الذي يسير عليه، من أقواله التي تناقلها الرواة، وسُطِّرت في الكتب، ومن أشهرها قوله:

«لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني؛ ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت.

قيل: وكيف ذاك؟

قال: كنت إذا مدوها خليتها، وإذا خلوها مددتها». (١)

ويزيد صاحب كتاب المجتنى بعد الجملة الأولى: «فإذا لم أجد بدّاً من السيف ركبته». (٢)

وهي السياسة الحكيمة التي أرست قواعد الخلافة الأموية، في وقت كان فيه لها منافسون أقوياء،

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٦٢، آداب الملوك: ٨٣.

(٢) المجتنى: ٥١.

ولكن معاوية تغلب بهذه السياسة على كثير من الصعاب التي مرت به، والعواصف التي هبت على ملكه.

وكلمة معاوية هذه يبدو أنها أصبحت قاعدة يصير إلى تبني تطبيقها كثير من الحكام فيما بعد، وصاغوها بما يتلاءم مع زمنهم، وساعدهم على ذلك اعتراف فلاسفة الحكم بها. يقول الطرطوشي:

«لا ينبغي للوالي أن يستعمل سيفه فيما يُكتفَى فيه بالسوط، ولا سوطه فيما يُكتفَى فيه بالحبس، ولا حبسه فيما يُكْتَفَى فيه بالجفاء والوعيد». [1]

لقد أدخل على النص الذي ابتدعه معاوية ما فصله وبين مجالات تطبيقه، مع زيادة في القياس مفيدة.

وتأتي امرأة رزان عاقل، لها صلة بالملك، ولعل لها خبرة وتجربة، قياساً على سنّها، وهي توصي ابنها الملك:

«يا بني، ينبغي للملك أن يكون له ستة أشياء:

(١) سراج الملوك: ١٩٩.

وزير يثق برأيه، ويفضي إليه بأسراره.
وحصن يلجأ إليه إذا فزع.
وسيف إذا نازل الأقران لم يخف أن يخونه.
وذخيرة خفيفة المحمل إذا نابته نائبة كانت معه.
وامرأة إذا دخلت إليه أذهبت همه.
وطباخ إذا لم يشته الطعام صنع له ما يشتهيه». [1]

لم تترك هذه السيدة أمراً يؤمن ابنها، ويدخل عليه السعادة والراحة إلا ذكرته. وما ذكرته وافٍ في زمانها، ويعتبر من الأسس التي يقوم عليها بناء الملك وبهجته.

وننتقل إلى العصر العباسي، ونأخذ منه إضافة زادها المأمون في السياسة الناجحة، وفيها إلتفاتة ذكية إلى ما يجب أن يساس به الناس في بلد ناءٍ مثل السند:

«لما وجه المأمون بشر بن داود إلى السند قال له:
يا بشر، إحفظ عني ما أقول:
لا تحرك ساكناً، وَسَكِّنْ كل متحرك، وإذا ظلمت

(١) سراج الملوك: ٢٢٥.

من دونك فلا تأمن عقاب من فوقك» .[1]

أعطى المأمون بشراً وصية ثمينة ذات شقين، في كليهما نهي، ولمح في نهاية حديثه أن في مخالفة إحداهما عقاب، ولم يبين هل هو من الله ـ سبحانه وتعالى ـ أم من الخليفة، ومؤدى الوصية ألا يسعى إلى جلب الضر إلى نفسه بإثارة فتنة هو في غنى عنها، فإن قامت فليسع إلى تسكينها، لا أن يزيدها حركة، أو يوسع نطاقها، فقد لا يدري أين منتهاها.

وما أوصى به المأمون بشراً يقرب منه قولٌ صاغه أحد الحكماء، وفيه من الحكمة ما هو واضح:

«قالت القدماء: خذ بالأناة ما استقامت لك، وأقبل العافية ما وهبت لك، ولا تعجل إلى مناجزة العدو ما وجدت إلى الحيلة سبيلاً» .[2]

ويأتي في متناثر النصائح في تدعيم السياسة الصائبة قول عبدالله بن المقفع:

---

(١) آداب الملوك: ٧٢.

(٢) قوانين الوزارة: ٦٩.

«ليعرف الناس في ما يعرفونه من أخلاقك، أنك لا تعاجل بالثواب، ولا بالعقاب، فإن ذلك أدوم لخوف الخائف، ورجاء الراجي». [1]

وللجاحظ في هذا الباب ما يوجهه إلى كل رئيس، وهو قول جامع، أدخل فيه من العناصر ما هو كفيل إذا روعي أن يحقق النجاح ويجنب صاحبه كثيراً من العناء، ويجلب له مزيداً من الخير:

«أي رئيس كان خيره محضاً عَدِم الهيبة، ومن لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة، وقتل في موضع القتل، وأحيا في موضع الإحياء، وعفا في موضع العفو، وعاقب في موضع العقوبة، ومنع ساعة المنع، وأعطى ساعة الإعطاء، خالف الرب في تدبيره، وظن أن رحمته فوق رحمة ربه». [2]

هذا يعني وضع الشيء في موضعه، حتى لا تختل الموازين، وقد اختلت في يوم من الأيام عندما

---

(١) الأدب الكبير: ٢٠.
(٢) الحيوان: ٢/ ٨٢.

خالف حاكم الشرع، وانساق وراء فكرة براقة جوفاء:

أيام الحروب الصليبية كثر حكام المسلمين في نطاق الشام، وصار في وقت من الأوقات لكل مدينة كبرى، أو قلعة حصينة، حاكم مستقل، وكان هناك واحد من هؤلاء الحكام مرابط في المنطقة التي جنوب مدينة القدس، وكان الطريق الذي يوصل إليه غير آمن من قطاع الطرق، للسياسة الخرقاء التي كان ينتهجها؛ لقد كان يتساهل مع هؤلاء القطاع، وبينهم قتلة، فإذا جيء له بقاطع الطريق القاتل، أملاً في تنفيذ القصاص فيه، كما تقتضي الشريعة، قال: «أطلقوه فالحي خير من الميت»، كلمة أوحى بها الشيطان، وجعل لها بريقاً أعشى عين هذا الحاكم.

وكان من الطبيعي أن يستفحل أمر قطاع الطرق، وتكثر إعتداءاتهم، ويعم شرهم، إلى الحد الذي جعلهم يتجرؤون فيغيرون على «وطاق» هذا الحاكم، وهو مخيمه ومعسكره، دون أن يخافوا منه، أو يحسبوا لغضبه حساباً، إذ لم يعرفوا لغضبه أي أثر، أو

يلمحوا له أي بارقة.

وتوفي هذا الحاكم، وخلفه حاكم حازم، إختلفت نظرته للأمر عن ذاك، فأول حادث وقع أحضر رؤساء القبائل الذين يسكنون الأرض التي وقع فيها القتل، ووضع الحديد في أرجلهم، وأمهل قومهم أسبوعاً لاحضار القاتل، وإلا قتلهم بالرجل المقتول، فاحضروا القاتل، فقتله، وقال لهم إنهم مسؤولون عن خفارة الطرق التي يمر منها الحجاج في ديارهم، وسوف يعاقب الرؤساءَ على ما يأتي من خلل من أفراد عشائرهم.

فأمنت الطرق، واطمأنت السابلة، وعادت قيمة الحياة إلى ما كانت عليه بعد أن رخصت وأهدرت.

ولعله من المناسب أن نختم قولنا في رسم الحكام لسياستهم بقول ثمين، رصده أبو جعفر المنصور، في عهده لابنه، وفيه خلاصة فكره وتجربته:

«وَكِّل همومك بأمورك، وتفقد الصغير بعد الكبير، وخذ أهبة الأمر قبل حلوله، فإن ثمرة

التواني الإضاعة. وكن عند رأس أمرك لا عند ذنبه؛ فإن المُستَقْبِلَ لأمره سابق، والمُستدبر له مسبوق». [1]

❊ ❊ ❊

(١) تسهيل النظر: ٢٧٧.

كثرة الكلام[1]

عقلاء الأمم عموماً يمتدحون قلة الكلام، ولا يقبلون كثرته إلا في مواضع وبشروط، أو إذا جاء الإسهاب من فصيح ساحر، فالسحر يفعل أكثر من هذا! وأدب كل أمة يحث على الاقتصاد في القول، والإتيان بالمعنى بأقصر الجمل، وأقلها؛ لأن هذا يعطي المتكلم والسامع مجالاً للاستيعاب والتفكير؛ أما طول الكلام وترداده، فهو يضيع الكثير من المقدرة على التعبير والتركيز، وعلى الاستماع والفهم.

والاختصار فيه ميزة لا تعدلها ميزة، وهي شعور السامع بثقة المتكلم بعقله، وأنه تكفيه إشارة من القول، يحدس ما وراءها بعقله النير، وإدراكه التام، وتبادل الثقة بين المتكلم والسامع مهم في تطارح الأفكار، وتبادلها، والإقناع، والإقتناع.

أما إذا أسهب المتكلم، أو ردد القول، فإن السامع

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٦٨٢) في ١٨/٦/١٤١٦هـ، الموافق ١١/١١/١٩٩٥م.

ينفر، ويتأذى سمعه، وتشمئز روحه، وينشغل بهذا عن استيعاب ما يقال، ويسرح في آفاق الألم، والاحتجاج بهذا عن الاستيعاب والفهم. ويتنفس الصعداء إذا ما انتهى محدثه.

وقد يأتي في ذهن السامع والمتكلم يطيل، ويسهب، أن الفكرة ليست واضحة في ذهن المتكلم، وأنه لم يجلها من قَبْلُ في ذهنه، فجعل ضيفه السامع «سبورة» تعرض عليها أفكاره الفجة، وآراءه التي لم تستقر بعد، والمفكر فيها لا يزال يضرب يمنة ويسرة، في صحراء الفكر، لا يدري أين يستقر، ومتى يلقي عصا التسيار.

وبعض الأمم الغربية تحرص اليوم على تعليم الناشئة: كيف يختصرون القول، ويأتون بالمعنى «مضغوطاً»، في أضيق نطاق، دون أن يختل المعنى، فيتكون في ذهن المتكلم قوالب يصيغ بها هذه المختصرات، فيعرف ما يُبقى من القول، وما يترك، وما يفرد، وما يدمج؛ لأنهم يعطونه قطعة مكتوبة،

فيها بعض التطويل، وهي في خمس صفحات مثلاً، ويطلبون منه اختصارها في صفحة واحدة؛ ثم يتدرجون معه في الاختصار، ويمرنونه على ذلك، حتى يتقنه، ولا يفتأ يتخذه أسلوباً مرتضىً في المستقبل، فيما يكتب، وفيما يقول.

وهذا فعل حسن، لأنه يصبح فناً يُرجى إتقانه، ويحرص على البروز فيه، وسَبْق الآخرين؛ وينتفع المرء بمعرفة ذلك الفَنّ عندما يدخل معترك الحياة، ويحتاج إلى تسجيل أقوال في مؤتمر، أو حديث في ندوة، أو ملاحظة عابرة. حينئذ يعرف قيمة ما تعلم، ويحمد لله، ثم لنفسه، الجهد الذي بذله في إتقان ذلك.

وللأسف الشديد ليس هذا في تعليمنا، ولا في ثقافتنا، مع أن أجدادنا طرقوا هذا الباب، ومن يعلم، فربما كانوا أول من فكر فيه، وعرف فائدته، وأخذ به عملاً، واستفاد منه تأليفاً؛ وأمامنا اليوم كثير من الكتب المختصرة، عن كتب أوسع، ومجلدات متعددة؛ فجاءت بالمعنى وافياً، وبالمضمون متكاملاً، لم

تنقص منها فائدة، ولم يضع مدلول. وقد زادوا على ذلك بأن أوسعوا الضيق، فشرحوا المختصر؛ ولم يتركوا ممكناً إلا جربوه، وأدلوا فيه دلوهم.

وكانوا يحثون في أقوالهم على الاختصار صراحة أو تلميحاً، وربما نبهوا، أو عاتبوا، أو انّبوا، رامين إلى المحافظة على السير في هذا الطريق. والتراث مليء بالأقوال في هذا المجال، وسنأتي على بعض منها، وما تركناه أكثر مما جئنا به بآلاف النصوص، وليسوا هم وحدهم في هذا، بل شاركهم فيه أمم قبلهم وبعدهم، ومن الأمثلة على ما قيل عن هذا في أيام الاسكندر، القول الآتي:

«قام بين يدي الاسكندر خطيب، فخطب، وأطال، فزبره، وقال:

ليس حسن الخطبة بحسب طاقة الخاطب، ولكن على طاقة السامع». [1]

صدق الاسكندر فيما قال، فالتأثير يأتي على

(١) البصائر: ٣/ ١٤١.

السامع، فإن لم يكن التأثير حسناً، ضاع الهدف، وطاش السهم، وبدلاً من أن يصيب السهم الفريسة، عاد إلى صاحبه، فقتله. قد يأخذ الخطيب ساعات يفكر فيما يقول، يغير ويبدل، يزيد وينقص، يحبر ويزوق، ولا يذكر إلا نفسه، وما يُعجبه، وينسى الذين سوف يقف من أجلهم، ونجاحه يتوقف على رأيهم. وهذا هو الاسكندر يبدي للخطيب عدم رضاه، لأنه نسيه، وهو المهم، فأطال الخطبة، وهو يريد الاختصار.

وفي هذه الإطالة كان يجب على الخطيب أن يقرأ داخل عيون السامعين، وما على صفحات وجوههم من الرضى أو الضيق، فإن رأى مللاً، تجاوز عن كثير مما كان عزم على قوله؛ والتمادي رغم وضوح الملل عدم عقل، وكم خطيب رُمي، وهو على المنبر بحبات الطماطم، جاءته تترا، أرتالاً أرتالاً، اشتفى بها أصحابها مما أنزله بهم الخطيب الغبي.

والدين الإسلامي، حتى في خطبة الجمعة حث

على اختصار الخطبة، وإطالة الصلاة، وبعض الأئمة من الذين لا يدركون هذا يطيلون الخطبة. وهذا كثير في البلدان التي لا يحرص أهلها على الصلوات الخمس في المساجد، فيجد الإمام أن إطالة الخطبة، وإبقاء الناس في المسجد الجامع، مدة طويلة، فيه تعويض عن أيام الأسبوع!

وسواء صحت القصة الآتية، أو لم تصح، فإنها تدل على الرغبة في الاختصار، وهي تسير مع الاتجاه الصحيح، الذي يحث عليه العقلاء، ولعل المغالاة التي جاءت في اختصار الكلمات التي وردت في القصة ما هي إلا رمز لشدة الرغبة في الاختصار، وقيمته عند ذوي العقول:

«أمر الحجاج ابن القرّيّة أن يأتي هنداً بنت أسماء فيطلقها بكلمتين، ويمتّعها بعشرة آلاف درهم.

فأتاها، فقال لها:

إن الحجاج يقول لك: كُنْتِ فَبِنْتِ؛ وهذه عشرة آلاف متعةً لك.

فقالت: قل له: كنا فحمدنا، وبنا فما ندمنا؛ وهذه العشرة الآلاف ببشارتك إياي بطلاقي». [1]

هذا الاتقان في الاختصار، وتحديده بهذه الكلمات الضيقة، والرد الذي جاء مجانساً له، قد يدل على أن القصة متخيلة. على أي حال هي في السبيل الذي نحن بصدده، وتدل على حرص الكتاب والأدباء على أن يعكسوا بعض ما يفضله المجتمع، وما يعجبون به إذا قص عليهم.

وهذا هو الأحنف يسكت فلا يتكلم في مجلس معاوية، إن صحت القصة؛ لأنه يُخشى أن يكون المقصود مؤدى كلام الأحنف عندما تكلم، لأن فيه مرمى سياسياً، تجرأ فيه الأحنف؛ وقد كان سكت لأن عنده كلاماً في هذا الأمر لا يعجب معاوية؛ وقيل إن هذا الموقف وقع عندما أراد معاوية أن يعهد إلى ابنه يزيد بالخلافة بعده. المهم إن الأحنف صمت في أول الأمر، واختصر عندما تكلم. والقصة كمايلي:

---

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٢٢٨.

«قال الحسن:

جلسوا عند معاوية، فتكلموا، وصمت الأحنف، فقال معاوية:

يا أبا بحر، ما لك لا تتكلم؟

قال: أخافكم إن صدقتكم، وأخاف الله إن كذبت». [1]

وهم يحرصون على الحث على السكوت، وقلة الكلام كلما وجدوا سبيلاً إلى ذلك؛ ويشركون ذلك مع الحِكَم الأخرى، كما فعل صاحب «كليلة ودمنة» في النص الآتي:

«في كتاب «كليلة ودمنة» ثلاثة يؤمرون بالسكوت:

الراقي في جبل طويل؛ وآكل السمك؛ والمروّي في الأمر الجسيم». [2]

هذه الأمور توجب الصمت، لأن طبيعتها تتنافى مع الحديث، فالحديث يحتاج إلى نَفَس، وصاعد

---

(١) عيون الأخبار: ٢/ ١٩٥.

(٢) عيون الأخبار: ٢/ ١٩٥.

الجبل يحتاج إلى كل ما يمكن أن يوفره الإنسان من النَّفَس، وليس عنده ما يكفي لذلك، وللحديث، وما دام أنه بدأ الصعود فلا مناص له عن السكوت.

وآكل السمك في شغل بِتوقي شوك السمك، وعليه خطر عظيم فيما لو غفل عن التنبه لذلك، ولهذا وضع مع من يلزمه السكوت، ولعله من أهمهم، وإن كان هو وسابقه، أهمية السكوت لهم فيه إتقاء الموت.

أما الثالث وهو المتروي، فليس عليه خطر، إلا في عدم الوصول إلى نتيجة فكر سليم، إذا جمع بين التفكير والحديث، إذ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، فإما أن يتروى ويفكر ويتبصر ويتدبر، وإما أن يتحدث.

ويأتي السكوت، وهو أقصى قلة الكلام في أبيات ثلاثة، سيقت لتبين رأي الشاعر في هذا الجانب:

«قال بعض الشعراء:

قَدْ أَفْلَحَ السَّالِمُ الصَّمُوتُ كَلَامُ وَاعِيْ الكَلَامِ قُوْتُ

مَا كُلُّ نُطْقٍ لَهُ جَوَابٌ جَوَابُ مَا يُكْرَهُ السُّكُوتُ
يَا عَجَبًا لِامْرِئٍ ظَلُوْمٍ مُسْتَيْقِنٍ أَنَّهُ يَمُوْتُ[1]

وعن الكلام ومراميه، وأهمية التروي فيه، والتفكير قبل الكلام، والكلام، إذا تكلم، بالقول المركز المفيد، وعدم الهذر، والقول بما لا يفيد؛ وأصول القول، وما يأتي منه وما يترتب عليه، جاءت القصة الآتية، وقد لا تكون حدثت بهذه الصورة المروية، إلا أنها رمز لما رمت إليه:

«في كتب العجم أن أربعة من الملوك[2] اجتمعوا، فقالوا كلهم كلمة واحدة، كأنها رمية بسهم: ملك فارس، وملك الهند، وملك الروم، وملك الصين.

قال أحدهم: إذا تكلمتُ بالكلمة ملكتني ولم أملكها.

وقال آخر: قد ندمتُ على ما قلت، ولم أندم على ما لم أقل.

---

(١) عيون الأخبار: ٢/ ١٩٥، بهجة المجالس: ١/ ٨٩.
(٢) في «بهجة المجالس»: أربعة حكماء: ١/ ٨٠.

وقال آخر: أنا على رد ما لم أقل، أقدر مني على رد ما قلتُ.

وقال آخر: ما حاجتي إلى أن أتكلم بكلمةٍ، إن وقعت ضرتني، وإن لم تقع عليّ لم تنفعني». [1]

كل الكلمات الأربع كلمات صورت بأنها ملكية، وكلام الملوك، ملوك الكلام، وفيها الحث على التوقي في الكلام، فالكلمة تملك صاحبها، وقد يندم على قولها، وإذا قيلت أثرت، ولا راد لأثرها؛ والصمت بعد هذا كله أفضل.

ويأتي القول عن الصمت، وقلة الكلام بطرق مختلفة، يُتفنن في الدخول إليها، ويُجتهد في تنويعها، حتى يُضمن التأثير، ويُوصل إلى الهدف، فإن لم ينجح طريق نجح الآخر، وإن لم يقتنع أحد بقول، فإنه يقتنع بغيره، لأن الهدف الإقناع الذي يوصل إلى التطبيق؛ وبقدر الاقتناع، والإيمان بالمقول، يأتي العمل.

---

(١) عيون الأخبار: ٢/ ١٩٥.

والقول الآتي من باب الإبداع في القول في هذا المجال، وفيه حث على قلة الكلام بطريق غير مباشر إلى حد ما:

«قال أبو الدرداء:

أنصف أذنيك من فيك، فإنما جُعل لك أذنان اثنتان، وفم واحد، تسمع أكثر مما تقول». [1]

الاستعارة التي جاءت في هذا القول أعطته قبولاً، لقوة الحجة، وأعطته جمالاً في التعبير، وهو من السهل الممتنع، والبيان جاء من كلمة «أنصف» التي رسمت صورة واسعة، متحركة، فيها شكوى مخفية، وفيها محاكمة، وفيها حكم، وفيها محكوم عليه، فالأذنان تقدمتا إلى القاضي بشكوى، فحواها أنهما اثنتان، واللسان واحد، ومع هذا فهو يأخذ حقهما، وزيادة، في الكلام؛ وقد تيقن القاضي من صحة الشكوى، ومن الاعتداء الواقع، فطلب من اللسان أن يكف عن أخذ حق الآخرين، والتزود

(١) عيون الأخبار: ٢/ ١٩٣.

عليهما، وأن ينصف من نفسه، فقد ثبت تعديه، وتحقق القاضي من تخطيه حدوده، ودخوله مناطق غيره، دون رضاهم.

إنها صورة مركبة، أدى إلى رسمها كلمة واحدة، وهذا من براعة القائل الذي جاء بما لم يأت به غيره، ووصل إلى الهدف، الذي يسعى إليه هو، والذين يحثون على فضيلة السكوت، أو الاختصار.

وبعض الناس مغرم بالكلام، والتحدث حتى في الأمور، التي لا يجيدها، وتجده في المجتمعات، يكاد لا يسكت، ولا يعطي فرصة لغيره للحديث، فمجرد أن يبدأ الصحب في الحديث، ويجد فرصة للدخول فيه، يدخل ولا يخرج، ويصبح ثقيلاً على مجلسهم، ورحم الله حاتماً الطائي، حيث يقول:

«إذا كان الشيء يكفيكه الترك، فاتركه». (١)

وفي كثير من الأحيان، في كثير من المجالس، هناك من يعطي الحديث حقه، ويكفي عن كثير ممن

(١) عيون الأخبار: ٢/ ١٩٤.

إذا تكلموا ود السامع أنهم لم يتكلموا، وود أنهم صمتوا صمتاً مطبقاً.

وبعض القوم لا يدركون أنهم ثقلاء بكلامهم على من حولهم، فإذا نبهوا بطرف خفي لم يتنبهوا؛ وهم في كل هذا يظنون أنهم يحسنون، حتى إن أحدهم يوماً سأل عن وقع حديثه على السامع، منتظراً كلمات الإعجاب، وجُمل المدح، وفوجئ بغير هذا، وكشف له عن الأسباب، وأبطلت حجته، التي كان يعتمد عليها في الاستمرار في الهذر، وأوقظ من غفلة متناهية، ونوم عميق، كان مسيطراً عليه، والقصة هكذا:

«تكلم ابن السماك يوماً، وجارية له تسمع كلامه، فلما دخل إليها، قال: كيف رأيت كلامي؟

قالت: ما أحسنه، لولا أنك تكثر ترداده.

قال: أردده حتى يفهمه من لم يفهمه.

قالت: إلى أن يفهمه من لم يفهمه، قد ملّه من فهمه». [1]

(١) عيون الأخبار: ٢/ ١٩٤، بهجة المجالس: ١/ ٩٥.

وإشارات الملوك كلام مبين، ومجالسهم لها حق يختلف عن الحقوق في مجالس العامة؛ وفيها يجمل السكوت، والحديث الموزون المقتضب، ومعرفة مرامي الكلمات، والحذر الشديد من الزلل، لأنه يتركب على القول في هذه المجالس أفعال، وأفعال كبيرة، ومعاوية ـ رضي الله عنه ـ ممن كان يطأ بساطه العامة والخاصة، لأن حكمه يمثل مرحلة بين مرحلتين، تقررت فيها قواعد، ووضعت أسس، وأصبح عنده من التجارب مع الداخلين عليه، وأحاديثهم، ثروة، تكدست مع مرور الأيام، وتتالي السنين، وهذا موقف من هذه المواقف، هذر فيه من هذر، وصمت معاوية ـ رضي الله عنه ـ فلما طلب رأيه، أعطاه كلمةً مختصرة، ورغم أدبه فيها الظاهر، إلا أنها جمرة لابد أنها لذعت قلب المتحدث إن كان له قلب:

«تكلم رجل عند معاوية، فهذر، فلما أطال قال:

أأسكت، يا أمير المؤمنين؟

قال: وهل تكلمت؟». [1]

---

(١) عيون الأخبار: ٢/ ١٩١.

وقد يأتي العقاب من الحاكم صارماً، فليس كل مقام يتساهل فيه، ويتحمل فيه كلام الهذّار، فقد يكون المقام مما يحتاج الحاكم فيه إلى القضاء على كثير الكلام بقطع أذى لسانه، أو خلله، كما حدث من الخليفة عمر بن عبدالعزيز، وفيه من صفات جده عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إذ أن عينه لا تغمض على القذى، ولا يسكت هو على الضيم يقع على الأمة، خاصة في المجالس المهمة، وهذا موقف له صارم مع أحد القضاة، وجده مهذاراً، والهذر مطية الزلل في القول، ومدعاة سقوط المهابة، وهما أمران لا يليقان بالقاضي:

«قال بعض قضاة عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ وقد عزل:

لمَ عزلتني؟

قال: بلغني أن كلامك مع الخصمين أكثر من كلام الخصمين». [1]

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ٦١.

ـ[1] إذا تسوهل مع أي أحد، فلا يتساهل مع القاضي، لمقامه، وما يقتضيه من حسن الاستماع، المؤدي إلي تفهم ما يقال، وتشربه، والتبصر فيه، وتدبر مآتيه، واستجلاب قوى الفراسة، لمعرفة ما خفي من الأمر خلف الأقوال؛ وما قد يكون أحد الخصمين، أو كليهما، عمد إلى التضليل فيه. أما إذا تكلم القاضي، وأطال الحديث لم يعط نفسه فرصة الاستماع الجيد، والتدبر العميق، وضاع عليه كثير مما كان يجب عليه أن يتمسك به.

وحديث القاضي الكثير يقلب الكفة، فيبدأ الخصم يدرس القاضي، ليعرف المداخل إلى نفسه، ويبني على ما قد وهم فيه القاضي، مما تبين للخصم أنه قد وقع فيه؛ ثم إن كثرة حديث القاضي تطيل أمد المحاكمة مما يملّ، والملل إذا دخل في أمر، منع صاحبه من رؤية الحق، فيصبح صاحبه مثل الحاقن مجروح الحكم.

لهذا سارع عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ورضي

---

(١) بدء الجزء المضاف إلى ما نشر في صحيفة «عكاظ».

عنه ـ فاقتلع هذه النبتة، قبل أن تثمر بذراً جديداً، ينتشر في مجتمعه، وضحى بالرجل، رغم أنه لا عيب فيه غير هذا، وتحمل العناء في البحث عن غيره، وعمر من الذين يتعبون فعلاً في البحث عن العمال والقضاة؛ لأنه يعرف أنهم عينه التي يجب ألا تطرف، ووكيله الذي لا يغفل؛ لهذا كان يستشير عدداً ممن يوثق بهم قبل أن يعين حاكماً أو قاضياً، فجاء حكمه متميزاً عن الخلفاء قبله وبعده؛ ولعله قد جعل نصب عينيه سيرة عمر بن الخطاب، فأخذ منها ما استطاع أن يطبقه في زمنه، ويُعْمِلَه في سنيات حكمه.

وإذا كان الصمت في موقع الكلام عند العرب عي، فإن كثرته غير المفيدة عي أيضاً، وكأن العي عندهم عدم الفائدة من اللسان بصمته عند داعي الكلام، ونطقه عند داعي السكوت أو الاختصار، والقصة الآتية تبين ذلك:

«تكلم ربيعة الرأي يوماً، فأكثر الكلام، فأعجبته نفسه، وإلى جنبه أعرابي، فقال له:

يا أعرابي، ما تعدون البلاغة؟

فقال: قلة الكلام.

قال: ما تعدون العِيّ؟

فقال: ما كنت فيه منذ اليوم». [1]

ونذكر كلمة حاتم الطائي حين قال: إذا كان الشيء يكفيكه الترك، فاتركه، عندما نرى كلمة لقمان لداود ـ عليه السلام ـ حين سأله عما بقي من عقله، والقول هكذا:

«لقي داود لقمان، بعدما كبرت سنُّه، فقال:

ما بقي من عقلك؟

فقال: لا أنطق فيما لا يعنيني، ولا أتكلف ما كُفيته». [2]

وهذا يدل على أنه وصل إلى هذا التصرف الحكيم بعدما نضج، وعرك الحياة، وعرف ما يفيد، وما يضر، وهذا صدى لما روي عن النبي ﷺ من قوله:

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ٦٢.

(٢) بهجة المجالس: ١/ ٧٧.

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» .

وقوله ﷺ لعقبة بن عامر في جملة ما أرشده إليه، عندما سأل الرسول ﷺ، فقال :

«يا رسول الله، فيم النجاة؟

فقال؛ يا عقبة، أمسك عليك لسانك» .

وابن مسعود من الذين يقولون الحق، ويصدقون في النصيحة، و «ينصِحُون» في الاستشارة، بلغ من العلم مبلغاً خزم عمله في حدوده، وصار الدين له ظاهراً وباطناً، قال يحذر :

«أنذركم فضول الكلام» .[1]

وفضول الكلام ما زاد منه عن المقصود، وزيادة الكلام عند العاقل مثل نقصه، يتجنب هذا، مثلما يحرص على كمال ذاك .

والأصمعي ممن يروون الأحاديث الطريفة،

(١) قال الأصبحي: من كثر كلامه كثرت خطاياه، بهجة المجالس: ١/ ٨٤. بهجة المجالس: ١/ ٧٧.

والنادرة، ويروى على لسانه في هذا ما قد لا يكون قاله، أو درى به، ومن جملة ما يروى عنه في هذا المجال القول الآتي:

«عن الأصمعي، قال أعرابي:
السكوت صيانة للسان، وستر للعيّ». [1]

صيانة للسان عن الزلل، ويستر عيب الكلام عند من لا يحسن الكلام، ولكن الناس في زمننا قليل منهم من يحب ستر عيبه، بل إن بعضهم يعجبه أن يشتهر، وأن يظهر، ولو عن طريق المعيب!

والأعراب ـ كما يبدو ـ من أكثر الناس مراعاة للقول، والحرص على الفصاحة، ومراقبة اللسان عن الزلات، ولعل هذا، في بعضه، راجع إلى دقة محاسبتهم على الخطأ يأتي من اللسان، لأنه قد يؤدي إلى حرب ضروس، فجرح اللسان عندهم أشد من جرح السنان. ومن جملة الملاحظات على الحديث الخاطئ قول أحدهم:

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ٧٨.

«قال أعرابي، في رجل رماه بالعيّ:
رأيت عثرات الناس في أرجلهم، وعثرةَ فلان في فكيه». [1]

هذه الصورة الفنية الجميلة، التي جاءت بها الاستعارة، لها تأثيرها عندهم، فقد جسّم الأعرابي الأمر، فقاس خطأ اللسان بعثرة القدم، لأن عثرة القدم يحس بها الإنسان، لأن فيها ألماً جسدياً، يأتي مباشرة بعد أن يعثر الإنسان، أما خطأ اللسان فقد لا يتبين للعاثر، لأن من حوله تأدبوا في لفت نظره، أو أن تأثير خطأ اللسان تأخر مجيؤه، فبهت الرابط بين الخطأ والجزاء، أو الألم.

وحَرِص الأعراب على التعبير بأسلوب الاستعارة، لعلمهم بمدى تأثيرها على السامع، لأنها تحمل من البيان أكثر مما يحمله التعبير المباشر، لجفاف هذا التعبير، ولرقة الاستعارة، وبيان الصورة التي ترسمها، وعلى نمط القول السابق، فيما نحن بصدده، يأتي قول

(١) قال عمرو بن العاص: «زلة الرِّجل عظم يُجبر، وزلة اللسان لا تبقى ولا تذر»، بهجة المجالس: ١/ ٨٧.

آخر، فيه استعارة جميلة، تنقل السامع إلى جو حسي مرعب، يجفل الإنسان من مرماه، ويخشى مدلوله:

«ذكر الأصمعي، قال: قال أعرابي:

الكلمة أسير في وثاق الرجل، فإذا تكلم بها كان أسيراً في وثاقها». [1]

إن الأسر أمر مخيف، واستعارته لسيطرة اللسان، وقوة نفوذه، يجعل السامع يركز على المدلول، ويتصور الخَطَر، ويرتعب من الصورة التي يجدها ترتسم في ذهنه مما سمع. وكل هذه التعبيرات الحسية لأمر معنوي هدفها واحد؛ فمثل ما سبق القول الآتي:

«قيل لبكر بن عبدالله المزني:

إنك تطيل الصمت؟

فقال: إن لساني سبع[2]، إن تركته أكلني». [3]

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ٧٩.

(٢) كان يقال: «اللسان سبع عقور». بهجة المجالس: ١/ ٨٣. وقال الشاعر:

رأيت اللسان على أهله إذا ساسه الجهل ليثاً مغيراً

بهجة المجالس: ١/ ٨٣

(٣) بهجة المجالس: ١/ ٧٩.

فمن عثرة، إلى أسر، إلى سبع، كلها أشياء بخشاها الإنسان، ولكنه لا يخشى زلة اللسان، فلا أقل من أن تقرن هذه بتلك.

والشاعر الخشني، ساهم في تصوير بعض ذلك في بيته الآتي:

لسَانُ الفَتَى سَبْعٌ عَلَيْهِ مُرَاقِبٌ
فَإِنْ لَمْ يَزَعْ مِنْ غَرْبِهِ فَهُوَ آكِلُهْ[1]

ولأن القول الخطأ عند العرب قد يجر إلى نزاع، تصمت فيه الألسن، ويتحدث السلاح، وينتقل الجرح والتجريح من اللسان إلى السيف والنبل والسهم، فقد أكثر القوم من تصوير ذلك شعراً، والشعر في نظرهم أكثر تأثيراً، وأدوم في الرواية، وأوسع في الانتشار، وأقرب للاستشهاد والتمثل، وأقرب للقبول والانصياع:

يقول الراجز:

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ٧٩.

أَلقَــوْلُ لاَ تَمْلِكُــهُ إِذَا نَمَــا
كَالسَّهْمِ لاَ يُرْجِعُهُ رَامٍ رَمَى[1]

وهي صورة موئسه، تبعث على الاعتبار، وتدعو إلى التوقف عن المحذر منه، ولزوم جانب الصمت لمن أراد السلامة والعافية.

وقال الشاعر في هذا المجال:

فَدَاوَيْتُهُ بِالحِلْمِ وَالمَرْءُ قَادِرٌ
عَلَى سَهْمِهِ مَادَامَ فِي كَفِّهِ السَّهْمُ[2]

وقال ابن هبيرة:

وَإِنَّ مَقَالَ المَرْءِ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ
لَكَا النَّبْلِ تَهوِيْ لَيْسَ فِيْهَا نِصَالُهَا[3]

صور متتابعة، رسمت بعناية، وركزت على الجانب الحسي المخيف، ليستيقظ الغافل، فيرى في الصورة المحسوسة ما لم يره في الصورة القولية، ذات

(١) بهجة المجالس: ١/ ٧٩.
(٢) بهجة المجالس: ١/ ٧٩.
(٣) بهجة المجالس: ١/ ٨١.

المعنى المتخيل.

ويأتي شاعر صريح، فيبين الخَطر المحدق بحصاد اللسان، وما قد يصل إليه الأمر من جهامة وسواد، فيقول منصور الفقيه، صراحة:

عَلَيْكَ السُّكُوتَ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ
مِنَ القَوْلِ بُدٌّ فَقُلْ أَحْسَنَهْ
فَرُبَّمَا فَارَقَتْ بِالَّذِيْ
تَقُولُ أَمَاكِنَهَا الأَلْسِنَةْ[1]

إن اقتلاع الألسنة من أماكنها، لعل أقل منه ألماً، وأدنى تأثيراً قطع الرأس بكاملهِ، هذه هي الصورة البشعة التي أراد الشاعر أن يرسلها رسالة صادقة، واضحة، معبرة، لمن عنده سمع وعقل!

والمأمون، وهو العالم الحكيم، له مشاركة قول في هذا المجال، وقد روي عنه أنه قال:

---

(١) قال نصر بن أحمد الخبز أرزي البصري:
لسان الفتى حتف الفتى حين يجهل وكل امرئ ما بين فكيه مقتل
بهجة المجالس: ١/ ٨٦، بهجة المجالس: ١/ ٨٠.

«السخافة كثرة الكلام». [1]

وللتأكيد على ما يأتي من ضرر من جراء اللسان، وكثرة الكلام، يرسم غير الشعراء صوراً، يؤملون أن يكون لها التأثير المطلوب وهذا أحدها:

«كان يقال: العافية عشرة أجزاء، تسعة منها في الصمت، وجزء في الهرب من الناس». [2]

والعافية بغيتهم، والسلامة هدفهم، ولهذا بحثوا عن ما يوصل إليها، فوجدوها في أغلبها تكمن في الصمت.

ووجدوا صلاح الأمر في الصمت، والبعد عن الفضول، لأن فيه مظنة الزلل، ومن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه. والشاعر يقول:

لَعَمْرُكَ[3] إنَّ صَمْتَكَ أَلْفَ عَامٍ
لأَصْلَحُ مِنْ كَلاَمِكَ بالفُضُولِ

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ٨١.

(٢) بهجة المجالس: ١/ ٨٢.

(٣) الحلف بغير الله شرك، والشرك مرتعه وخيم، وعذاب الله فيه شديد، وهذا الحلف بقية جاهلية، ولعلهم يلجؤون إليه في مثل هذه الأقوال، ظناً أن جزاءهم فيه، إذا حنثوا في يمينهم، أقل إثماً من لو حلفوا بالله، وهذا جهل آخر، يضاف إلى جهلهم الأول.

فَأَمْسِكْ أَوْ تَرَى لِلْقَوْلِ وَجْهًا
يَبِيْنُ صَوَابُهُ لِذَوِيْ العُقُولِ[1]

والعظة والحث على الصمت، وتحسين قلة الكلام، تأتي في صور متعددة، وتُتصيد من مكامنها، ومما يعرفه الناس، وذلك أدعى للقبول، فالناس يعرفون ما جرى ليونس ـ عليه السلام ـ من ابتلاع الحوت له، لهذا استعادةُ أمْرِه، وأخذ الحكمة منه لتجربته، أمر يوصل، بلا شك، إلى الهدف، ويوصل إلى الغرض.

«لما خرج يونس ـ عليه السلام ـ من بطن الحوت، أطال الصمت، فقيل له:

ألا تتكلم؟

فقال: الكلام صيّرني في بطن الحوت». [2]

لقد قال يونس ـ عليه السلام ـ في السابق، ما لم يُرضِ ربه، فامتحنه بما امتحنه به، حتى سمع دعاءه في

(١) بهجة المجالس: ١/ ٨٢.
(٢) بهجة المجالس: ١/ ٨٥.

بطن الحوت، فأنعم عليه بالخروج.

ويقرن الحكماء الكلام بالعقل، ويزنون أحدهما بالآخر، وهما في نظرهم كفتا ميزان، إذا ثقلت واحدة، خفت الأخرى، وشالت، وقالوا في هذا، قولاً رصيناً:

«إذا تم العقل نقص الكلام؛ فضل العقل على المنطق حكمة، وفضل المنطق على العقل هجنة». (١)

ونعود إلى الصور المعنوية التي تُلبس الصور الحسية، حتى يتبين القبح فيها، وما يرسمه الفصحاء منها في أقوالهم الحكيمة، وقد مر بنا ما قاله أحد الأعراب عن عثرة اللسان، وما قاله عمرو بن العاص عن عثرة اللسان، ومقارنتها بعثرة الرِّجْلِ، فنجد أن بعض الشعراء قد صاغهُ في الشعر الآتي:

«يَمُوتُ الفتَى مِنْ عَثْرَةٍ بِلِسَانِهِ
وَلَيْسَ يَمُوتُ الرَّجْلُ مِنْ عَثْرَةِ الرِّجْلِ

(١) بهجة المجالس: ١/ ٨٧.

فَعَثْرَتُهُ مِنْ فِيْهِ تَرْمي بَرأْسِهِ
وَعَثْرَتُهُ بِالرِّجْلِ تَبْرَا عَلَى مَهْلِ»[1]

والكلام عند المتدبرين له أقسام، كل قسم له طبيعته، وله التعامل معه، وهذا نص يبين رأي أحد المتبصرين في الكلام، أو السكوت:

«قال أبو إسحاق الفزاري:

كان إبراهيم يطيل السكوت، فإذا تكلم انبسط، فقلت له ذات يوم:

لو تكلمت.

فقال: الكلام على أربعة وجوه، فمنه كلام ترجو منفعته، وتخشى عاقبته؛ فالفضلُ منه السلامة، ومنه كلام لا ترجو منفعته، ولا تخشى عاقبته؛ فأقلُّ ما لك في تركه خفة المؤونة على بدنك ولسانك.

ومنه كلامٌ لا ترجو منفعته، وتخشى عاقبته، وهذا هو الداء العضال؛ ومن الكلام كلام ترجو منفعته، وتأمنُ عاقبته، فهذا الذي يجب عليك نشره؛ قال:

(١) بهجة المجالس: ١/ ٨٨.

فإذا هو قد أسقط ثلاثة أرباع الكلام» .[1]

هذا التحليل الجميل منطق صادق مقنع لمن يتبع العقل، ويتبع الصدق، وقد ضيق مجال الكلام، وحدد ما يضمن النفع والسلامة .

هذه لمحات سريعة عن الكلام، والنظرة إليه، ورأي حكماء آبائنا، الذين كانوا يحبون أن يشيع الشيء المفيد، وكتب التراث ملأى بالشعر والنثر عن هذا الأمر؛ ومن اتبع ما نصحوا به، وجد بالتجربة صدق ما قالوا، والحياة طويلة لمن مدّ الله في عمره، ونَسَأَلَهُ في أجله، وإذا لم يأخذ المرء التجربة من تجارب الآخرين سهلة مريحة، أخذها عن طريق تجربته هو قاسية مضنية؛ فهو بهذا في الخيار، إن شاء فعل، وإن شاء ترك .

❊ ❊ ❊

(١) عيون الأخبار: ٢/ ١٩٥ .

الفهـارس

(١) فهرس المواضيع حسب ورودها ٤٣١
(٢) فهرس المواضيع حسب حروف الهجاء ٤٣١
(٣) فهرس الأسماء ٤٣٢
(٤) فهرس الأماكن ٤٣٨
(٥) فهرس المراجع والمصادر ٤٣٩
(٦) فهرس الأبيات الشعرية ٤٤٣

* * *

(١)

فهرس المواضيع حسب ورودها

* المقـــدمـة ٥
* الخـــير والشـــر ١٧
* اللباس في الـتراث ٩٢
* التربيـة والتعـليم ١٨٧
* العصا وموقعها من الناس ٢٤٣
* العمـــامة عـند العـــرب ٣٣٢
* قـــوة الأسس ٣٦١
* كـثرة الكـلام ٣٩٩

* * *

(٢)

فهرس المواضيع حسب حروف الهجاء

* الـتربيـة والتعـليم ١٨٧
* الخـــير والشـــر ١٧
* العصا وموقعها من الناس ٢٤٣
* العمـــامـة عنـد العـــرب ٣٣٢
* قـــوة الأسس ٣٦١
* كـــثرة الكـلام ٣٩٩
* اللبـاس في الـتراث ٩٢
* مقـــدمـــة ٥

(٣) فهرس الأسماء

(أ)

إبان بن صدقة: ١٦٤، ١٦٥
أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم: ١٨٢، ١٨٤
إبراهيم الجرادي: ٣٣١
إبراهيم السندي: ٦٧، ٦٨
إبراهيم بن المهدي: ١٦٧
إبراهيم النخعي: ١٢١
إبليس: ٢٠، ٢١
أحمد بن أبي دواد: ١٤٥، ١٤٦، ١٤٨، ١٤٩، ١٧٩
أبو الفتح أحمد بن علي بن هارون بن يحيى بن المنجم: ٢١٩، ٢٢٠
أحمد بن أبي فتن: ١٥٩
أحمد بن يوسف: ٣٠
أحمد المانع: ٣٣١هـ
أبو بحر الأحنف بن قيس: ٨٤، ٨٥، ٨٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٩، ٤٠٥، ٤٠٦
الأخنس بن شهاب: ٣١٥
ادم عليه السلام: ٢٠
أردشير: ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥
الأزارقة: ٤٢
الأزد: ٨٠، ٨١
أزدشير: ١٤٦
أسامة بن زيد: ١٤٢، ٢١٥، ٣٣٤
أبو إسحاق الفزاري: ٤٢٨
إسحاق بن سويد: ٢٨٨
أسد بن عبدالله: ٨٠
بنو أسد: ٢٨٥
الاسكندر: ٤٠٢، ٤٠٣
أبو الأسود الدؤلي: ٣٥٠
أشعب: ١٨٤
الأصمعي: ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ١٠٧، ١٥٣، ٢٤٢، ٢٦٨، ٢٩٢، ٣١٦، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢١
الأعمش: ٧٣، ١٥٥، ١٥٦
أعشى بني ربيعة: ٢٩١
أمرؤ القيس: ٢٨٥
الأمويون: ٥٢، ٥٣، ١٢٣، ٣٣٨
أنوشروان: ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧
الأوزاعي: ١٢٩
إياس بن معاوية: ١٣٢، ٢٣٩
أيوب: ٩٩، ١٠٠، ١٥٧، ١٨٢

(ب)

بزرجمهر: ٣٦٨
بشار: ١٧٤، ١٧٥
بشامة بن حزن النهشلي: ٢٨٢
بشر الحافي: ٣٨، ٣٩
بشر بن أبي خازم: ٢٨٥، ٣١٦
بشر بن داود: ٢٩٣، ٣٩٤
البعيث: ٣١٠
أبو بكر الدمشقي: ٢١٩
أبو بكر الصديق: ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٨٤، ٣٨٥
بكر بن عبدالله المزني: ١٣٣، ٤٢١
بهرام جور: ١٤٦

(ت)

الترك: ١٧١
بنو تميم: ٨١، ٢٩٥، ٣١٠

(ث)

ثعلب: ١٣٦، ٢٤١

(ج)

الجاحظ: ٦٧، ١٧٣، ١٧٥، ٢٢٧، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٦، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٩، ٢٦٤، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٨١، ٢٨٣، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٥، ٣١١، ٣١٥، ٣١٨، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٤٣، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٥٨، ٣٩٥

أبو حنبل جارية بن مر: ٤٥، ٤٦

جذيمة الأبرش: ٣١٥

جرير: ٣٢٢

جرير بن عثمان: ٣٣٥

جمعة بن حابس بن مليل: ٢٧٨

جميل: ١٨٠

أبو الجماهر جندب بن مدرك الهلالي: ١٧٧

جندل الطهوري: ٢٦٢

(ح)

حاتم: ٤٦، ٤١١، ٤١٧

حاتم بن يحيى: ٣١

الحارث بن وعلة: ٢٧٨

حبيب بن ثابت: ١٨٢

أبو بسطام حبيب بن المهلب بن أبي صفرة: ٤٢، ٤٤

الحجاج بن يوسف الثقفي: ٤٤، ١٩٠، ١٩١، ٣٣٨، ٣٤٠، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٩٠، ٤٠٤

الحسن البصري: ٧٧، ٩٠، ٩١، ١١١، ٣٣٨، ٤٠٦

أبو الحسن العكلي: ٢١٢

الحطيئة: ٣١١

الحكم بن عبدل الأسدي: ٢٩٦، ٢٩٧

حكيم بن حزام: ١٢٨، ٣٥٦

الحمدوني: ١٣٨، ١٣٩

حميد بن ثور الهلالي: ٢٨٧

(خ)

خالد بن صفوان: ٧٢

خالد بن الوليد: ٢١

خزيمة بن بشر الأسدي: ٥٤، ٥٥، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥

الخشني: ٤٢٢

الخنساء: ٢٩٢

(د)

أبو داود الإيادي: ٧٨

أبو داود: ٢٧٧

أبو الدرداء: ٤١٠

دريد بن الصمه: ٣٤٣

دنلوب: ٢٩٦

(ر)

الراعي: ٢٨٠

ربيعة الرأي: ٤١٦

ربيعة بن أبي عبدالرحمن: ١٠٩

الرسول ﷺ: ٢٥، ٣٤، ٤٩، ٥٠، ٥١، ١١٩، ١٤١، ١٤٢، ١٦٧، ٢٠٩، ٢٧٥، ٢٨٨، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٤، ٣٢٦، ٣٣٤، ٣٣٦، ٣٣٨، ٣٣٩، ٤١٧، ٤١٨

(ز)

الزبير بن العوام: ٣٧٧
الزمخشري: ٤٨، ٧٠، ٧٨
أبو أمامة زياد الأعجم: ٤٢، ٤٣، ٤٤
زياد بن أبيه: ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢
زيد بن صلة: ٣٥٩
زيد بن كشوة العنبري: ٣٤٧
زيد: ٤٦

(س)

سابور ذو الأكتاف: ٣٧٠
بنو سامان: ٤٠
سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب: ١١٢
سام بن نوح: ١٦٩، ١٧٠
سحبان وائل: ٣٠٣، ٣٠٤
سعاد: ١٦٨
سعد بن أبي وقاص: ٢١، ٢٢
سعد بن مالك بن ضبعه بن قيس بن ثعلبة: ٢٧٩
أبو الأعور سعيد بن زيد بن عمر بن نفيل: ٢٧٣
أبو أحيحة سعيد بن العاص: ٣٤٢
السفاح: ٣٠
أبو سفيان بن حرب: ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٢٧٥، ٢٧٦
سفيان بن حسين: ١٣٢
سليمان بن داود عليهما السلام: ٢٩٩، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦
سليمان بن عبدالملك: ٥٤، ٥٨، ٦٢، ٦٣، ٦٤
سليمان بن علي بن عبدالعزيز بن العباس: ١٢٢
ابن السماك: ١٠٥، ٤١٢
السودانيون: ٣٣٨
سويد بن الحارث: ٢٨٦
سيار أبو الحكم: ١٠٧

(ش)

الشافعي: ١١٤
شبل بن معبد البجلي: ٢٨٧
شبيب بن كعب الطائي: ٣١٥
الشرقي: ٢٥٢، ٢٥٣
شريح: ٢٠٧، ٢٠٨
شريح بن عبيد: ٣٣٥
الشعبي: ١٩٤
الشماخ بن ضرار: ٢٥٠، ٢٨٤
شمعلة بن أخضر الضبي: ٣٤٣
شيبة بن محمد الدمشقي: ٥٤
أبو الشيص الأعمى: ٢٨٩
الشيطان: ٢٠، ٢٩، ٣١، ٢٤٠، ٢٧١، ٢٩٦

(ص)

صالح بن عبدالقدوس: ٢٨٧
صخر بنت لقمان: ٢٧٨
صلة بن أشيم: ١٠٣

(ض)

أبو ضبه: ٢٩٥

(ط)

أبو طالب المفضل بن سلمة: ٢١٩

طاهر الجزائري: ٢٢١
الطرطوشي: ٣٩٢
أبو الطيب الطاهري: ٤٠، ٤١

(ع)

أبو عائذ الأزدي: ٣٣٥
عاد: ٤٥
عامر بن الظرب العدواني: ٢٧٨
عامر بن عبدالله بن الزبير: ٢١٨
العباسيون: ٥٢، ٥٣، ١٢٣، ١٦٥، ٢٨٨، ٣٣٨
عباس بن مرداس: ٢٦٨
العبابي: ٢٨٤
عبدالأعلى بن عبدالله بن كريز: ٣٥٥
عبدالحميد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب: ٢٩٦
عبدالرحمن بن عوف: ٣٣٦
عبدالسلام العجيلي: ٣٣١
عبد شمس: ١٥١، ٣٤٢
عبدالله بن أنيس: ٣٠١
عبدالله بن بكر بن عبدالله المزني: ٢١٢
عبدالله بن زياد: ١١٥
عبدالله بن طاهر: ١٤٦، ٣٦٨
عبدالله بن عباس: ١٤٣، ١٥٥، ١٨٥، ٢٠٩
عبدالله بن عمر: ٨٩، ١٢٠
عبدالله بن المبارك: ١٢٤، ١٢٥، ٢١٥
عبدالله بن المقفع: ٣٩٤
عبدالملك بن مروان: ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٣٠٤، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٨
عبد مناف: ١٥١
أبو العتاهية: ١٢٤، ١٢٥، ١٨٦، ٣٢٠
عتبة بن أبي سفيان: ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤
العتبي: ٣٨٦
عتيبة: ٢٧١
عثمان: ٢٧١
بنو عجل: ٢٩٤
عروة بن الورد: ٢٩١
عقبة بن عامر: ٢١٨
عكرمة بن أبي جهل: ٣٧٨
عكرمة الفياض (جابر عثرات الكرام): ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٧
العلاء الحضرمي: ٥٠
أبو العلاء المهدي: ١٤٥
علي بن أبي طالب: ١٠٢، ١٤٢، ١٤٣، ٣٤٩
علي الطنطاوي: ٢٢١، ٢٢٢
علي بن الغدير: ٢٨٥
أبو عمار: ١٧٨
عمر بن الخطاب: ١٤٢، ١٤٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢٦٣، ٢٧٠، ٣٤٩، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٨٤، ٣٨٥، ٤١٤
عمر بن ذر: ٨٧، ٨٨
عمر بن عبدالعزيز: ٣٤، ١٥٢، ٤١٤، ٤١٥
عمر بن محرز: ٣٢٤
عمر بن أحمد الباهلي: ٢٩٨
عمرو بن الإطنابة: ٣٢٣
أبو عمرو: ١٨٣
عمرو بن أمرئ القيس: ٣٤٥
عمرو: ١٥٨
عمرو بن العاص: ١٧١، ٤٢٧
عمرو بن عتبة: ٨٣
عمرو بن كلثوم: ٢٥٧

عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة: ١٢٢
عمير بن سعد: ٢٦٣
ابنة العوام، أخت الزبير: ١٢٨، ٣٥٦
عوف بن الأحوص: ٣١٥
ابن عياش: ٨٠
عيسى بن جعفر: ١٦٦، ١٦٧
عيسى بن طلق: ٣٤٧

(غ)

غيلان بن خرشة: ٣٥٠، ٣٥١

(ف)

الفرزدق بن غالب: ٢٧٩، ٣٤٠، ٣٤٦
فرعون: ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩
أبو الفضل البصري: ١١٥
الفضل بن سعد بن سالم: ٢٤١
الفضل بن العباس الهاشمي: ٣٥٧
الفلتن الفهمي: ٢٧٦
فيثاغورس: ٣٥، ٣٦، ٣٧

(ق)

القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق: ١١٢
قابوس بن وشكمير: ٣٧١
بنو قابوس: ٢٧١
قباذ: ١٤٧
قبيحة: ١٧١
قتيبة بن مسلم: ١٠٦، ٣٩٠
قدويه العدوي الشحاجي: ١٧٥
أبو قرودة: ١٧٨
ابن القرية: ٤٠٤
قس بن ساعدة: ٣٠٥

(ك)

كسرى أنوشروان: ١٤٢، ١٤٦، ١٤٧، ٢١٧
كسرى قباذ: ٣٦٩
كعب بن زهير: ١٦٨
كعب بن مامة: ٧٨
الكناني: ٣٤٤
كوثر (خادم المتوكل): ١٦٠، ١٦١

(ل)

لبيد: ٣٠، ٢٩١
لقمان: ٢١٢، ٤١٧
ليلى الأخيلية: ٢٩٢

(م)

مالك الأشتر: ٣٥٩
مالك بن دينار: ١٠٧، ١٠٨
المأمون: ٧٠، ٣٢٠، ٣٩٣، ٣٩٤، ٤٢٤
المبارك: ١٢٢
المبرد: ١٤١
المتلمس: ٢٧٨
المتنبي: ١١٥
المتوكل: ١٥٩، ١٦٠، ١٧١
مجنون ليلى: ١٣٥
محمد بن حرب: ١٣٨، ١٣٩
محمد بن حسان بن سعد: ٢٩٧
محمد بن الحسن الزبيدي: ١١٧
محمد بن أبي وقاص: ٣٣٩
محمد بن عمر الزمخشري: ٣٥٧
محمد بن واسع: ١٠٦
محمد بن يحيى المروزي: ٣١
محمود الوراق: ١٢٦، ١٢٧
مزاحم (مولى عمر بن عبدالعزيز): ٣٤
المستعين: ١٧١
مسعود بن عمرو: ٣٤٧
مسكين الدارمي: ٢٧٣

أبو مسلم الخراساني: ٧٩
أبو مسلم بن فهد الهذلي: ١١٧
مسلم بن يسار: ١٥٣
مضرس الأسدي: ٢٧٢
أبو مطر: ١٠١، ١٠٢
معاوية بن أبي سفيان: ٣٠، ١٧١، ٣٠٣، ٣٩١، ٣٩٢، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤١٣
المعتز: ١٧١
معدان الأعمى: ٣١٧
معمر: ٩٩، ١٠٠
المغيرة بن شعبة: ٣٧٥، ٣٧٦
مكحول: ٢١٥
المنتصر: ١٧١
منصور الفقيه: ٣٢٤
أبو جعفر المنصور: ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ٢٢٣
المنذر بن النعمان: ١٤٣
المهلب: ٢٢٣
المهلب بن أبي صفرة: ٤٢، ٤٣، ٤٤، ١٤٤، ٣٨٩
موسى عليه السلام: ٢٤٧، ٢٥٣، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩
ابن ميادة: ١٧٧

(ن)

أبو النجم: ٢٧٠
نصر بن أحمد: ٤٠، ٤١
النعمان بن المنذر: ١٤٣، ١٤٤، ١٧٨
النهدي: ٢٩٤
نوح عليه السلام: ٤٢، ٤٥

(هـ)

هارون الرشيد: ١٦٦، ١٦٧، ٢٨٩
بنو هاشم: ٢٨٩
ابن هبيرة: ٤٢٣
ابن هرمة: ١١٦
أبو هريرة: ٣٥٦
هشام بن عبدالملك: ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ٣٥٤، ٣٥٥
هلال بن العلاء: ١١١
هلال بن معاوية التغلبي: ٤٥
هند بنت أسماء: ٤٠٤
هند بنت الحسن: ٢٧٨
هند: ٢٧١

(و)

والبة: ١٨٦
الوليد بن عبدالملك: ٢٥، ٥٣، ٣٨٨، ٣٨٩
الوليد بن يزيد: ١٢٩
الوليد بن يزيد بن عبدالملك: ٣٥٤
وهب بن منبه: ٣١، ٣٢

(ي)

يحيى بن نوفل: ٢٩٧
يزذجرد: ١٤٧
يزيد بن الخطيب: ١٦٩، ١٧٠
يزيد بن معاوية: ٤٠٥
يزيد بن مفرغ: ٢٧٦
اليزيدي: ٣٦٩
يوسف ـ عليه السلام ـ: ١٦٢، ١٦٣
أم يوسف ـ عليه السلام ـ: ١٦٣
يعقوب ـ عليه السلام ـ: ١٦٣
أبو يعقوب الحريمي: ١٨٠
أبو اليقظان: ٣١٠
يونس بن حبيب: ٢٤٧
يونس ـ عليه السلام ـ: ٢٤٧

(٤) فهرس الأماكن

(أ)

الأبلة: ١٦٩

أرمينية: ١٦٩

(ب)

البحرين: ١٦٩

البصرة: ٧٠

بغداد: ٣٧، ٣٨، ١٢٥، ١٥٥

البقيع: ٣٠٠، ٣٠٨

(ج)

الجزيرة: ٥٩

(ح)

الحرم المكي: ٤٩

حمص: ٢٦٣

(خ)

خراسان: ٨٠

(د)

دار أبي سفيان: ٤٩

دامغان: ١٦٩

دمشق: ٢٣

(ر)

الرقـة: ٢٥٢

الرملة: ٦٢

بلاد الروس: ١٥٠

الروم: ١٦٨، ١٧٠، ٣٦٥، ٤٠٨

(س)

السند: ٣٩٣

(ش)

الشام: ١٤٢، ١٦٨، ٢١٥، ٢٣٩، ٣٩٦

(ص)

صنعاء: ١٦٨

الصين: ٤٠٨

(ط)

طرطوس: ٣٩

الطور: ٢٥٣

(ع)

العراق: ٥٢، ٥٣، ١٢٣، ٣٨٦، ٣٨٧

(ف)

فارس: ١٤٢، ١٤٦، ١٦٨، ٣٠٨، ٣٦٣، ٣٦٥، ٤٠٨

فلسطين: ٥٨

(ق)

القدس: ٣٩٦

قزوين: ١٦٩

(ك)

الكـوفة: ٦٧، ٣٧٥

(م)

المدينة المنورة: ١٠٩، ١٤٢، ٣٢٢

مزدلفة: ٣١٤

مصر: ١٦٨، ٢٩٧، ٣٣٩، ٣٨٥

مكة: ١٤٢

(هـ)

الهنـــد: ٣٧١، ٤٠٨

(ي)

يوم بدر: ٣٣٧

(٥) فهرس المراجع والمصادر

١ - آداب الملوك

لأبي منصور عبدالملك الثعالبي

تحقيق: الدكتور جليل العطية

دار المغرب الإسلامي ـ الطبعة الأولى: ١٩٩٠م

٢ - الآدب الكبير

لعبدالله بن المقفع

دار الجيل ـ بيروت

٣ - الإشراف

للإمام أبي بكر عبدالله محمد بن أبي الدنيا

تحقيق: الدكتور نجم الدين عبدالرحمن خليفة

مكتبة الرشد ـ الرياض ـ الطبعة الأولى: ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م

٤ - كتاب الأغاني

لأبي الفرج الأصبهاني

تحقيق: لجنة من الأدباء

دار الثقافة ـ بيروت ـ الطبعة السادسة ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م

٥ - البصائر والذخائر

لأبي حيان التوحيدي

تحقيق: الدكتور وداد القاضي

توزيع دار الجيل ـ بيروت ـ دار صادر، الطبعة الأولى: ١٤٠٨ /١٩٨٨م

٦ - بهجة المجالس ، وشحذ الذهن والهاجس

للإمام أبي عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر النمري القرطبي

تحقيق: محمد مرسي الخولي

دار الكتب العلمية ـ بيروت

٧ - **البيـــان والتبيين**

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
تحقيق: عبدالسلام هارون
الطبعة الأولى : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

٨ - **تـاريـخ بغـــداد**

لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي
ومعه المستفاد من ذيل تاريخ بغداد
دار الكتب العلمية ـ بيروت

٩ - **تسهيل النظر ، وتعجيل الظفر ، في أخلاق الملك وسياسة الملك**

لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي
تحقيق: محيي هلال السرحان ، والدكتور حسن الساعاتي
دار النهضة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت ١٩٨١م

١٠- **ثمـرات الأوراق**

لتقي الدين أبي بكر بن علي بن محمد بن حجة الحموي
صححه وعلق عليه: محمد أبو الفضل إبراهيم
الطبعة الأولى ـ مكتبة الخانجي بمصر ١٩٧١م

١١- **كتـأب الحيـــوان**

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
تحقيق: عبدالسلام محمد هارون
دار إحياء التراث ـ الطبعة الثالثة: ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م

١٢- **الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة**

لعبد القادر بن محمد بن عبدالقادر الأنصاري الجزيري
أعده للنشر: الشيخ حمد الجاسر
منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ـ الرياض
الطبعة الأولى: ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م

١٣- ربيع الأبرار ، ونصوص الأخبار
للإمام محمد بن عمر الزمخشري
تحقيق: الدكتور سليم البعبمي

١٤- رجال من التاريخ
لعلي الطنطاوي
دار الفكر ـ الطبعة الأولى: ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م

١٥- سراج الملوك
لمحمد الوليد الطرطوشي
تحقيق: جعفر البياتي
نشر: رياض الريس للكتب والنشر

١٦- عيون الأخبار
لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة
تحقيق: الدكتور يوسف علي الطويل
دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان

١٧- تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب
لمحمد خلف بن المرزبان
تحقيق: زهير الشاويش
المكتب الإسلامي ـ الطبعة الأولى : ١٤١٠هـ/١٩٩٠م

١٨- قوانين الوزارة
لأبي حسن الماوردي
تحقيق : الدكتور فؤاد عبدالمنعم أحمد والدكتور محمد سليمان داود
مؤسسة شباب الجامعة ـ الطبعة الثالثة: ١٤١١هـ/١٩٩١م

١٩- الكامل
لأبي الحسن علي بن أبي الكرم (ابن الأثير)
دار الفكر ـ بيروت

٢٠- لبـاب الآداب
للأمير أسامة بن منقذ
تحقيق: أحمد محمد شاكر
دار الجيل ـ بيروت ـ الطبعة الأولى: ١٤١١هـ/١٩٩١م

٢١- مجالس ثعـلب
لأبي العباس أحمد بن يحيى بن ثعلب
تحقيق: عبدالسلام هارون
دار المعارف ـ الطبعة الخامسة

٢٢- المجتـنى
لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد
دار الفكر ـ الطبعة الثانية: ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م

٢٣- محاضرات الأدباء ، ومحاورات الشعراء والبلغاء
للراغب الأصفهاني
إختصار: إبراهيم زيدان
دار الآثار ـ بيروت

٢٤- المستطرف في كل فن مستظرف
لشهاب الدين محمد بن أحمد أبو الفتح الإبشهي
تحقيق: الدكتور مفيد محمد قميحة
دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الثانية: ١٤٠٤هـ/١٩٨٦م

٢٥- نوادر المخطوطات
تحقيق: عبدالسلام هارون
الطبعة الثانية: ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م

❊ ❊ ❊

(٦) فهرس أبيات الشعر

(أ)

يا بني هاشم أفيقوا فإن الـ ـملك منكم حيث العصا والرداء ٢٨٩
منعت من العهار أطهار أمه وبعض الرجال المدعين زناء ٣٤٧
خاط لي عمر وقباء ليت عينيه سواء ٨٦

(ب)

بضرب يزيل الهام عن سكناته كما ذيد عن ماء الحياض الغرائب ٢٦٧
يذدن وقد ألقيت في قعر حفرة كما ذيد عن حوض العراك غرائبه ٢٧٨
فدى لرعاء بالنحيرة ذببوا بأعصيهم والماء برد المشارب ٢٨٢
ولو صادفت عوداً سوى نبعة وهيهات أفنته الخطوب النوائب ٢١٧
عصا حكم في الدار أول داخل ونحن عن الأبواب نقصى ونحجب ٢٩٧
رؤوس عصي كن من عود أثلة لها قادح يبري وآخر مخرب ٢٦٨
إذا غدوا وعصي الطلح أرجلهم كما تنصب وسط البيعة الصلب ٣١٧
برتني صروف الدهر من كل جانب كما يبترى دون اللحاء عسيب ٢٨٧
في رداء النبي أقوى دليل ثم في القعب والعصا والقضيب ٢٨٩

(ت)

فمن مبلغ رأس العصا أن بيننا ضغائن لا تنسى وإن قيل سلت ٢٨٦
قد أفلح السالم الصموت كلام واعي الكلام قوت ٤٠٧

(ج)

عصى الشمل من أسد أراها قد انصدعت كما انصدع الزجاج ٣٢٤

(ح)

أبهلها ذائدها وسبحا ودقت المركو حتى ابلندحا ٣٢٤

(د)

الحريلحى والعصا للعبد	وليس للملحف مثل الرد	٢٧٧
بع بردك الأسود قبل البرد	في قرة تأتيك حسما صرد	١٧٤
ألا هتفت ورقاء في زمن الضحى	على غصن غض النبات من الرند	٣١٩
أَبَى القلب إلا أم عمرو وحبها	ومن يحبب عجوزاً يفند	١٨١
تخيرت من نعمان عود أراكة	لهند فمن هذا يبلغه هندا	٣٢٠
ولو شهد الخيل ابن سعد لقنعوا	عمامته الميلاء عضبا مهنداً	٣٤٠
أيها الركب المخبون هل لكم	بأخت بني هند عتيبة من عهد	٢٧١
إمام له كف يضم بنانها	عصا الدين ممنوعاً من البري عودها	٢٨٤
تمر به الأيام تسحب ذيلها	فتبلى به الأيام وهو جديد	١٨٠
العبد يقرع بالعصا	والحر يكفيه الوعيد	٢٧٧
نمت في الروابي من معد وافلجت	على الخفرات الغر وهي وليد	١٨٠

(ر)

لسنا نقاتل بالعصي	ولا نرامي بالحجارة	٢٦٥
لقد ذهب الحما ر بأم عمرو	فلا رجعت ولا رجع الحمار	٢٣٠
ما للقناة إذا ما عي قائلها	أو للأعنة يا عمرو بن عمار	٣١١
يؤمون ملك الشام حتى تمكنوا	ملوكا بأرض الشام فوق المنابر	٣٠٥
يا جفنة كإزار الحوض قد هدموا	ومنطقا مثل وشي اليمنة الحبرة	١٧٨
فيما كسانيه ابن حرب معتبر	فانظر إليه فإنه إحدى الكبر	١٣٩
علي ثياب لو تباع جميعها بفلس	لكان الفلس منهن أكثر	١١٤
نعم إنني مهد ثناءاً ومدحة	كبرد اليماني يربح البيع تاجره	١٧٧
يصيبون فصل القول في كل خطبة	إذا وصلوا أيمانهم بالمخاصر	٣٠٣
أهل التجارب في المحا	فل والمعاول بالمخاصر	٣٠٥
مجالسهم خفض الحديث وقولهم	إذا قضوا في الأمر وحي المخاضر	٣٠٢
حوالي عاصب بالتاج منّا	جبين أغر يستلب الدوارا	٣٤٣
فألقت عصاها وإستقر بها النوى	كما قر عينا بالإياب المسافر	٢٦٢

ما للكواكب يا دهماء قد جعلت	تزور عني وتطوي دوني الحجر	٢٩٨
تسمو بأعناق وتحسبها	عنا عصي الذادة العجر	٢٧٣
حتى إذا دارت رحى لا تجري	صاحت عصي من قنا وسدر	٢٦٢
وما بي من عيب غير أنني	ألفت قناتي حين أوجعني ظهري	٢٩٥
ومن يعتطفه على مئزر	فنعم الرداء على المئزر	١٧٧
من مبلغ رأس العصا أن بيننا	ضغائن لا تنسى وإن قدم الدهر	٢٨٩
تجر الأذيال في نعمة زو	ل تقولان ضع عصاك الدهر	٢٧٣
نحن الأحايل لا يزال غلامنا	حتى يدب على العصا مذكورا	٢٩١
وعويص من الأمور بهيم	غامض الشخص مظلم مستور	١٧٩
كعاب أبوها ذو العصابة	وابنه وعثمان ما أكفاؤهما بكثير	٣٤٥
إذا لبسوا عمائمهم لووها	على كرم وإن سفروا أناروا	٣٤٠
هو الشهاب الذي يرمى العدو به	والمشرفي الذي تعصى به مضر	٣٢٢
وأشهر من عوف حلولا كثيرة	يحجون سِب الزبرقان المزعفرا	٣٣٧
مالك من همة وعزم	لو أنه في عصاك سير	٣١٦

(س)

إن العيون رمتك مذ فاجأتها	وعليك من شهر اللباس لباس	١١٩
لا تنظرن إلى الثياب فإنني	خلق الثياب من المروءة كاسي	١١٤
كساك فضل بن عباس قلنسوة	هذا السخاء الذي قد شاع في الناس	٣٥٧
ترك الصلاة لأكلب يسعى لها	طلب الهراش مع الغواة الرجس	٢٠٧
صفراء من نبع كلون الورس	أبدؤها بالدهن قبل نفسي	٣١٧
وقائدها جلد العصا دلهمس	إن قيل قم وإن قيل اجلس	٢٨٢
أبا مسلم إن الفتى بجنانه	ومقوله لا بالمراكب واللبس	١١٧
نقاتل عن أحسابنا برماحنا	فنضربهم ضرب المذيد الخوامسا	٢٦٩
لئن كان ثوبي فوق قيمة الفلس	فلي فيه نفس دون قيمتها الأنس	١١٥

(ش)

دافع عني جلبي وحشي	فهي كعود النبعة الأجش	٣١٩

(ع)

ألبس ورائي إن تراخت منيتي	لزوم العصا تحنى عليها الأصابع	٢٩١
ضعيف العصا بادي العروق ترى له	عليها إذا ما أجدب الناس إصبعا	٢٨٠
فإن كنت أستاني حلوم مجاشع	فإن العصا كانت لذي الحلم تقرع	٢٧٩
ألا قالت الخنساء يوم لقيتها	كبرت ولم تجزع من الشيب مجزعا	٢٩٢
عبيد العصا لم يتقوك بذمة	سوى سيب سعدى إن سيبك واسع	٢٨٥
فإما تريني حليف العصا	فما كنت من رثية خامعا	٢٩١
قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه	خلق وجيب قميصه مرقوع	١١٦
كسوتنيها فهي كالتجفاف	كأنني فيها وفي اللحاف	١٥١
يا مالِ والسيد المعمم قد	يبطره بعد رأيه الشرف	٣٤٥
دعا ابن مطيع للبياع فجئته	إلى بيعة قلبي لها غير آلف	٢٦٢

(ق)

صلب الحيازيم لا هذر الكلام إذا	هز القناة ولا مستعجل زعق	٣١١
لولا الهراوة والكفّان أنهلني	حوض المنية قتالَ لمن علقا	٢٦٠
وإنما الشعر عقل أنت تعرضه	على المجالس إن كيسا وإن حمقا	١٣٦
تصدع شعب الحي وانشقت العصا	ذاك النوى بين الخليط شقوق	٢٨٤
اليوم تنتزع العصا من ربها	ويلوك ثني لسانه المنطيق	٢٨٧
رأيت الفانيات نفرن مني	نفار الوحش من رام مفيق	٣١٨

(ل)

وإن مقال المرء في غير كنهه	لكا النبل تهوي ليس فيها نصالها	٤٢٣
إذا كنتموا للناس أهل سياسة	فسوسوا كرام الناس بالرفق والبذل	٣٦٨
لسان الفتى سبع عليه مراقب	فإن لم يزع من غربهِ فهو آكله	٤٢٢
أليس ورائي أن أدب على العصا	فيأمن أعدائي ويسأمني أهلي	٢٩١
لعمرك إن صمتك ألف عام	لأصلح من كلامك بالفضول	٤٢٥
يموت الفتى من عثرة بلسانه	وليس يموت الرجل من عثرة الرجل	٤٢٧

فغدا خامعا بوجه هشيم	ويساق كعود طلح بال	٣١٧
أأعقر من جرا كريمة ناقتي	ووصلي مفروش لوصل منازل	١٣٥
قولا لدودان عبيد العصا	ما غركم بالأسد الباسل	٢٨٥
تغشى العصا والزجر إن قيل حل	يرسلها التغميض إن لم ترسل	٢٧٠
فما وجد ملواح من الهيم حُلئت	عن الماء حتى جوفها يتصلصل	٢٦٧
للهام ضرابون بالمناصل	ضرب المذيد غرب النواهل	٢٦٨
لا يعجبنك من يصون ثيابه	حذر الغبار وعرضه مبذول	١١٧
بانت سعاد فقلبي اليوم متبول	متيم إثرها لم يفد مكبول	١٦٨
وشي بي واش عند ليلى سفاهة	فقالت له ليلى مقالة ذي عقل	٢٩٤
تصف السيوف وغيركم يعصى بها	يا ابن القيون وذاك فعل الصيقل	٢٢٣
إذا دببت على المنساة من كبر	فقد تباعد منها اللهو والغزل	٢٩٩
نزلوا إليهم والسيوف عصيهم	وتذكروا دمنا لهم وذحولا	٣٢٤

(م)

القول لا تملكه إذا نمى	كالسهم لا يرجعه رام رمى	٤٢٣
فَدَاويته بالحلم والمرء قادر	على مهمه ما دام في كفه السهم	٤٢٣
دفعنا إليه وهو كالذيخ خاظيا	نشد على أكبادنا بالعمائم	٣٤٨
بني عامر إن تلجئوها فإنكم	ملاجيء للسوءات دسم العمائم	٣٤٦
أجد الثياب إذا اكتسيت فإنها	زين الرجال بها تهاب وتكرم	١١١
وأنت بذات السدر من أم سالم	ضعيف العصا مستضعف متهضم	٢٨١
وزعمتم أن لا حلوم لنا	إن العصا قرعت لذي الحلم	٢٧٨
لذي الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا	وما علم الإنسان إلا ليعلما	٢٧٨
ونحن صدعنا هامة ابن محرق	كذلك نعصى بالسيوف الصوارم	٣٢٣
عصا شريانة دهنت بزبد	تدق عظامه عظما فعظما	٣٢٠
في كفه خيزران ريحه عبق	من كف أروع في عرنينه شمم	٣١٣/٣٠١
أبلغ نعيما وعوفا إن لقيتهما	إن لم يكن كان في سمعيهما صمم	٣٤٣
إذا المرء أثرى ثم قال لقومه	أنا السيد المفضى إليه المعمم	٣٤١
تنخبتها للنسل وهي غريبة	فجاءت به كالبدر خرقا معمما	٣٤٥
وكان أبو أحيحة قد علمتم	بمكة غير مهتضم ذميم	٣٤٢
سلاءة كعصا النهدي غل لها	منظم من نوى قران معجوم	٢٩٤

نقيم العصا ما كان فيها لدونة ... وتأبى العصا في يبسها أن تقوما ٢٨٨
فلما وردن الماء زرقا جمامه ... وضعن عصي الحاضر المتخيم ٢٧٢
ألخي إن الحادثات ... عركنني عرك الأديم ١٥٣
فإن كان قصداً في الرجال فإنني ... إذا حل امرؤ ساحتي لجسيم ١١٥

(ن)

يا أم عمر جزاك الله مكرمة ... ردي علي فؤادي أينما كانا ٢٢٩
فإن أهلك فقد أبقيت بعدي ... قوافي تعجب المتمثلينا ١٧٨
ألق العصا ودع التخامع والتمس ... عملا فهذي دولة العرجان ٢٩٦
كم رفوناه إذْ تمزق حتى ... بقي الرفو وانقضى الطيلسان ١٣٨
وما صاديات حمن يوما وليلة ... على الماء يغشين العصي حوان ٢٦٥
وإذا رأيت المرء يشعب أمره ... شعب العصا ويلح في العصيان ٢٨٥
إذا قامت لسبحتها تثنت ... كأن عظامها من خيزران ٣١٣
أعددت للضيفان كلبا ضاريا ... وهراوة مجلوزة من أرزن ٣١٦
وإذا كسوت فجبة وعمامة ... ما واحد الثوبين بالحسن ٣٥٨
ألا إن ليلى عصا خيزرانة ... إذا غمزوها بالأكف تلين ٣١٣

(هـ)

لا تدخلن بنميمة ... بين العصا ولحائها ٢٨٧
العبد يقرع بالعصا ... والحر تكفيه الإشارة ٢٧٧
فاحتلت حين صرمتني ... والمرء يعجز لا محاله ٢٧٧
العبد يقرع بالعصا ... والحر تكفيه الملامه ٢٧٦
تصوف فازدهى بالصوف جهلا ... وبعض الناس يلبسه مجانه ١٢٦
خليلي شدا لي بفضل عمامتي ... على كبد لم يبق إلا صميمها ٣٤٨
وأسلمها الباكون إلا حمامة ... مطوقة بانت وبان قرينها ٣١٢
عليك السكوت فإن لم يكن ... من القول بد فقل أحسنه ٤٢٤
وثياب المرء جلوا ... زلة بين يديه ١٣٤

(ي)

وفتى يضرب الكتيبة بالسيـ ... ـف إذا كانت السيوف عصيا ٣٢٣

نبذة عن المؤلف :

- ولد عام ١٣٤٤هـ في مدينة عنيزة بالقصيم بالمملكة العربية السعودية .
- جزء من دراسته الابتدائية بعنيزة وجزء منها والثانوية في مكة المكرمة .
- حصل على الليسانس من دار العلوم بجامعة القاهرة عام ١٣٧١هـ .
- حصل على الدكتوراه في التاريخ من جامعة لندن عام ١٣٨٠هـ .
- عيِّن في العام نفسه أميناً عاماً لجامعة الملك سعود .
- عيِّن وكيلاً للجامعة عام ١٣٨١هـ حتى عام ١٣٩١هـ .
- درَّس تاريخ المملكة العربية السعودية لطلاب كلية الآداب .
- انتقل منها رئيساً لديوان المراقبة العامة لمدة عامين ثم وزيراً للصحة ثم وزيراً للمعارف .
- عين في عام ١٤١٦هـ وزير دولة وعضواً في مجلس الوزراء .

كتب صدرت للمؤلف :

- نشر عام ١٣٩٠هـ كتاب الشيخ أحمد المنقور في التاريخ .
- ألَّف عام ١٣٩٠هـ كتاب «عثمان بن بشر» .
- ألَّف عام ١٣٩٥هـ كتيب «في طريق البحث» .
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك « الظاهر بيبرس » باللغة العربية .
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك « الظاهر بيبرس » باللغة الانجليزية .
- حقق عام ١٣٩٦هـ كتاب « الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر » ونشره .
- حقق كتاب : « حسن المناقب السّرية ، المتفرعة من السيرة الظاهرية » لشافع ابن علي ، ونشره عام ١٣٩٦هـ .
- من حطب الليل ، نشر في عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م .
- ألّف عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م كتاب : «قراءة في ديوان محمد بن عبدالله بن عثيمين» .
- ألّف بين عامي ١٤٠٩ و ١٤١٤هـ كتاب « أي بني » في خمسة أجزاء .
- ألّف منذ عام ١٤١٤هـ كتاب «إطلالة على التراث» الأجزاء الثلاثة عشر وبين يديك الجزء الرابع عشر .

التوزيع

تطلب الأجزاء الأربعة عشر من كتاب «إطلالة على التراث» والأجزاء الخمسة من كتاب «أي بني»

من مؤسسة الجريسي للتوزيع

الرياض ١١٤٣١ ص . ب ١٤٠٥ - ت : ٤٠٢٢٥٦٤

جدة ت : ٦٨٢٦١٠٥ - الدمام ت : ٨٢٧١٨١١

القصيم ت : ٣٦٤٤٣٦٦ - خميس مشيط ت : ٢٢٢٠٧٥٨

ردمك : ٨ - ١١٨ - ٢٧ - ٩٦٦٠ (مج ١٤)

مطبعة سفير تلفون ٤٩٨٠٧٨٠ - ٤٩٨٠٧٧٦ * الرياض